AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

H H

N. MAKHOUL
BINDERY
4 NOV 1972
Tel. 260458

892.73
Z39haf
1902

الحجاج بن يوسف

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة السادسة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

تتضمن حصار مكة على عهد عبد الله بن الزبير الى فتحها
ومقتل ابن الزبير وخلوص الخلافة لعبد الملك
ابن مروان . ويتخلل ذلك وصف مكة
والمدينة وعادات اهاليهما
واخلاقهم وسائر
احوالهم

تأليف

جرجي زيدان

« منشئ الهلال »

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر

سنة ١٩٠٢

مقدمة

هذه هي الحلقة السادسة من روايات تاريخ الاسلام التي اخذنا على عاتقنا تأليفها ونشرها بين قراء هذا اللسان . لان تاريخ الاسلام عبارة عن تاريخ الشرق الحديث او هو تاريخ العالم كله بعد عصر الرومان والفرس . فيجدر بأبناء الشرق درسهُ والاعتبار بهِ

وقد رأينا بالاختبار ان نشر التاريخ على اسلوب الرّواية أفضل وسيلة لترغيب الناس في مطالعتهِ والاستزاده منهُ . وخصوصاً لاننا نتوخى جهدنا في ان يكون التاريخ حاكماً على الرواية لا هي عليه كما فعل بعض كتبة الافرنج وفيهم من جعل غرضهُ الاول تأليف الرواية وانما جاء بالحقائق التاريخية لالباس الرواية ثوب الحقيقة . فجره ذلك الى التساهل في سرد الحوادث التاريخية بما يضل القراء

واما نحن فالعمدة في رواياتنا على التاريخ وانما نأتي بحوادث الرواية تشويقاً للمطالعين . فنبقي الحوادث التاريخية على حالها وندمج في خلالها قصة غرامية تشوق المطالع الى استتمام قراءتها . فيصح الاعتماد على مايجيء في هذهِ الروايات من حوادث التاريخ مثل الاعتماد على أي كتابٍ من كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والاشخاص . الاّ ماتقتضيه القصة من التوسع في الوصف مما لا تأثير له على الحقيقة ـ بل هو يزيدها بياناً ووضوحاً بما يتخللهُ من وصف العادات والاخلاق فنطلب اليه تعالى ان ياخذ بيدنا لاتمام هذهِ السلسلة وهو حسبنا ونعم الوكيل

الفصل الاول

بعد مقتل الحسين

انتهينا في رواية « غادة كربلاء » الى حيث قتل الحسين ابن علي واهلهُ في كربلاء بجوار الكوفة وما كان من الوقائع بعد ذلك الى وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ ولما مات يزيد كان عبد الله بن الزبير لا يزال في مكة يدعو الى نفسهِ وقد خلا له الجو بعد موت الحسين . وكان يزيد قد بعث لقتالهِ جنداً تحت قيادة الحصين بن نمير فجاء الخبر بوفاة يزيد وهم في الحصار . ولم يكن من ابناء يزيد من يصلح للخلافة فرأى الحصين ان الامر لا يستتب الا ببايعة عبد الله بن الزبير . فطلب اليهِ ان يحجب الدماء ويقدم معهُ الى الشام ليبايعهُ فابى عبد الله فارتحل الحصين الى الشام بمن معهُ ودانت الحجاز لابن الزبير

واما في الشام فانهم بايعوا بعد موت يزيد ابنهُ معاوية (الثاني) فلم يعش الا اياماً ثم اختلفوا على من يبايعون بعدهُ . وكان في جملة امراء بني امية مروان بن الحكم وكان أميراً للمدينة على عهد يزيد . فلما مات يزيد رحل مروان الى الشام فبايعوه لانهُ شيخ طاعن في السن فتزوج بام خالد بن يزيد ليكتسب حزب بني يزيد ويصغّر نفس خالد عن طلب الخلافة . ولكن امرأتهُ هذه خنقتهُ سنة ٦٥ هـ لسبب سيأتي ذكره وهو لم يحكم الا تسعة اشهر وبضعه عشر يوماً . فولوا مكانهُ ابنهُ عبد الملك بن مروان وفي ايام هذا الخليفه زهت دولة بني امية وتأيد سلطانها

وأما ما كان من اهل الكوفة فانهم بعد مقتل الحسين ندموا على تخليهم عنه ورجعوا الى رشدهم وقاموا يطالبون ابن زياد واصحابهُ بدمه وسموا انفسهم التوابين

وفي سنة ٦٦ هـ ظهر في الكوفة رجل اسمهُ المختار بن عبيد قام يطالب بدم الحسين ويدعو الناس الى بيعة الزبير فحارب الامويين وقتل قتلة الحسين وفيهم عبيد الله بن زياد وشمر بن ذي الجوشن وخولي الاصبحي وعمر بن سعد وغيرهم . فلما ذاق النصر بدّل دعوته وصار يدعو الى محمد بن الحنفية اخي الحسين من ابيهِ وزعم ان جبريل يظهر له . واتخذ كرسياً قال ان فيهِ سرًّا مثل سر تابوت العهد عند اليهود

فلما استقل امر المختار في الكوفة ودان له العراق اصبحت الخلافة يتنازعها ثلاثة — عبد الملك في الشام ومصر والمختار في العراق وابن الزبير في الحجاز . وغضب عبد الله ابن الزبير على المختار لنقضه بيعته فبعث اليه اخاه مصعب بن الزبير فحاربه وقتله . فدانت العراق لعبد الله ولم يبق لبني امية غير الشام ومصر . فخاف عبد الملك على سلطانه فجند جنداً وقدم الى العراق فحارب مصعباً وقتله سنة ٧١ هـ واسترجع العراق . وبعث جنداً الى الحجاز لقتال ابن الزبير فملك المدينة ثم ارسل الحجاج بن يوسف الثقفي في جند لفتح مكة فحاصرها وطلب الى عبد الله ان يسلم فابى . فدخلت سنة ٧٣ هـ وابن الزبير محصور في مكة وقد قل زاده وفارقه رجاله

الفصل الثاني

عزة الميلاء في المدينة

المدينة ويقال لها يثرب هي مدينة الرسول وفيها قبره ومسجده . وكان يحيط بها سور وخندق وهي واقعة في منبسط من الارض تكتنفها الآجام والغياض . وقد عمرت في صدر الاسلام حتى كانت ايام يزيد بن معاوية فهاجرها كثير من اهلها [1] لكثرة الفتن والحروب في ايامه ولكنها مازالت آهلة وفيها اهل البيت وتتخلل ابنيتها البساتين والحدائق واكثر مغارسها من النخيل [2]

وكان من اهل المدينة في اواسط القرن الاول للهجرة مغنية يقال لها عزة الميلاء وكانت مولاة للانصار . وهي اقدم من غنى الغناء الموقع من النساء في الحجاز . وقد سميت الميلاء لتمايلها في مشيتها من سمنها . وكان العود حديث العهد عند العرب فاجادت ضربه حتى ضرب المثل بها . وكانت تحسن الضرب بالمزاهر والمعازف وسائر آلات الطرب وكانت جميلة الوجه ظريفة اللسان كريمة الخلق سخية النفس لا يقدم قادم الى المدينة الا التمس ان يراها ويسمع غناءها

وكانت العرب يومئذ لا يعدون الغناء من الصنائع اللائقة بأهل الشرف [3]

---

(١) صفوة الاعتبار (٢) مراصد الاطلاع ج٣ (٣) الاغاني ج ١

ولكن عزة كانت مع ذلك ذات دين حسن وهيبة ووقار اذا جلت جلوساً عاماً فكأن الطير على رؤوس اهل مجلسها من تكلم وتحرك نقر رأسه (١)

وكانت دار عزة في طرف المدينة من جهة الشمال مما يلي طريق الشام في بستان من النخيل تخلله اشجار الفاكهة من البرتقان والتفاح و يكتنف البستان والدار سور قليل الارتفاع له باب بمصراع واحد في وسطه خوخة . وفي بعض جوانب البستان عريش مبني من سعف النخل اشبه بقبو طويل تبيت فيه الدواب . والبيت عبارة عن باحة كبيرة يكتنفها من الجانبين غرفتان من كل جانب وفي الصدر قاعة واسعة تجلس فيها عزة لمقابلة الزوار و بين يدي باحة الدار نخلات متقاربة تظلل تلك الباحة في اثناء النهار

ففي يوم من أيام ربيع الآخر سنة ٧٣ للهجرة (وهو يوافق شهر اغسطس سنة ٦٩٣) (٢) قضت عزة الميلاء نهارها في بيتها وكان يوماً شديد الحر والحر ثقيل هناك نظراً للرطوبة المتكاثفة مما يتصاعد من الابخرة عن المستنقعات والاشجار . فلما دنت الشمس من الغروب دخلت عزة الى مخدعها فاستخرجت قارورة من الطيب فتطيبت و بدلت ثيابها فالتحفت ملاءة معصفرة لونها اصفر زاهٍ وكشفت النقاب عن رأسها لشدة الحر مع خلو المكان من الرجال وأرادت تناول عشاءها على سطح البيت تحت السماء

وكانت يومئذ في نحو الخمسين من عمرها وقد تزايد سمنها وذهبت استدارة وجهها وارتخى خداها واستطالا الى اسفل الذقن بما يشبه ذقناً ثانياً . وثقل بدنها حتى لم يكن في المدينة دابة تحملها (٣) ولا غرابة في سمنها وهي قلما تنتقل من بيتها والناس يفدون عليها لسماع غنائها او ضرب عودها و يحملون اليها الاموال والهدايا من الحلي والجواهر حتى ملأت معصميها بالاساور والدمالج وملأت عنقها بالعقود وضفرت شعرها بسلاسل الذهب والدنانير وعلقت في اذنها قرطين كبيرين بناسبان حجم اذنيها لانها كانت كبيرتهما مع تناسب التكاسير وكذلك آذان أهل الغناء والموسيقى في الغالب (٤)

وكان الرجل من اهل الوجاهة اذا اراد التزوج بفتاة لا يعرفها استشار عزة بها ووسطها في خطبتها أو استطلاع جمالها وصحتها (٥)

وكانت عزة قد قضت ذلك اليوم ولم تعمل عملاً لشدة الحر وعندها فتاة من نزالة

---

(١) الاغاني ج ١٦ (٢) التقويم العام (٣) الاغاني ج ٢ (٤) علم الفراسة الحديث
(٥) الاغاني ج ١٠

المدينة اسمها « سمية » كانت تحبها وتأنس بها . وكانت الفتاة ترتاح الى عزة وتكاشفها بسرها وتستشيرها في امرها وقد جاءتها يومئذ وعليها ثوب احمر يكسوها كلها . وكانت معتدلة القامة صحيحة الجسم اذا نظرت الى تقاطيع وجهها افرادا لاترى جمالا باهرا ولكن في عينيها ماء يدل على الذكاء والحب وحول ثغرها ابتسامة تأخذ بالعقول حتى كانت وهي في معظم اضطرابها قلما تبدو الكآبة على وجهها وانما تظهر الكآبة عليه بمظهر الهيبة . وفي ذقنها اندفاع قليل الى الامام مع بروز هو دليل الانعطاف وفي انفها ذلف قليل يزيدها هيبة . وكانت سمية حينئذ في نحو الثالثة والعشرين من عمرها

الفصل الثالث

ضواحي المدينة

فلما أرادت عزة الصعود الى السطح امرت جارية لها ان تفرش عليه البساط وتعد المائدة وامسكت ضيفتها بيدها وقالت لها وهي كأنها تشاغلها عن همومها « هلمّ بنا الى السطح ياسمية واتركي الهواجس عنك وتعالي لاريك بثرب وضواحيها عن سطح بيتي فانها من اجمل مايكون ولا تعجلي في الذهاب الى بيتكم لان والدك لااظنه عاد اليه »

فمشت الفتاة وراءها وقد ارتاحت لقولها وأرادت نسيان ما يجول في خاطرها من دواعي الهموم وصعدتا على سلم من الخشب كان يرتعد كلما نقلت عزة قدماً عليه حتى وصلتا الى السطح والجارية قد اعدت المائدة . فجلست عزة واجلست سمية الى جانبها وقد لاحظت انها لاتزال منشغلة البال بما في نفسها . فارادت ان تصرف ذهنها الى شيء آخر فلم ترَ خيرا من ان توجه التفاتها الى ما يحيط بالمدينة من بساتين النخيل وما بينها من برك الماء والمستنقعات فقالت لها « التفتي يابنية الى هذه البساتين الواسعة وراء سور المدينة فان نظرك لا يقف في آخرها الا على التلال البعيدة وخصوصاً على هذا الجبل وهو جبل أحد الذي جرت فيه الواقعة الشهيرة بين النبي (صلعم) وقريش . وذكر هذه الواقعة يؤلمني لان الغلبة فيها كانت للقرشيين وقتل من المسلمين سبعون رجلا واصيب النبي بجراح وقتل عمه حمزة »[1] فقالت سمية « وهل شهدت تلك الواقعة »

---

(١) ابن هشام ج ٢

فالت « كلاً لانها حدثت منذ سبعين سنة فكيف اشهدها » ثم عادت عزة الى اتمام كلامها عن تلك المناظر فقالت « واني لتعجبني مناظر المياه جوالي غروب الشمس . انظري الى هذه البحيرة فان ماءها ساكن كأنهُ صفيحة من الفضة اللامعة واظلال النخيل تترآءى على شواطئها مقلوبة كأنها مردة من اجان غائصون في الماء »

وكانت الشمس لما دنت من المغيب قد ارسلت اشعتها منحرفة على تلك المغارس فاستطالت اظلال النخيل وما زالت تستطيل وتضعف حتى اختلطت وصارت عتمة

واما سمية فكانت تساير عزة في ما تقول وبصرها ثابت في تلك البحيرة بالرغم عنها والبصر اذا اطلق سراحهُ يطلب النور . فلما غابت الشمس كان سطح تلك البحيرة لا يزال يلمع بانعكاس الشفق عنهُ واظلال النخيل فيهِ واضحة وضوح الخطوط السود على الصفيحة البيضاء . وبعد قليل لم يعد يظهر للرائي غير سطوح المياه وما يبدو فيها من ظلال الاشجار واما اليبس وما عليهِ فلم يكن يتميز

واشتغلت عزة وسمية عن الطعام والكلام بالتأمل في ذلك المنظر البديع وشُغلت اذانهما بنقيق الضفادع يتخلله صياح الادباك في الدار

الفصل الرابع

طوَيس المغني

تحوّلت عزة ودعت سمية لمشاركتها في الاكل وجعلت تقطع من لحم الدجاج وتناولها وهي تأكل وعيناها منشغلتان بتلك المناظر ثم عادت عزة الى محادثتها فقالت لها « مالي اراك صامتة باسمية هل تفكرين بوالدك وتخافين اذا غبتِ عنهُ ان ينقم عليك لا تخافي فانهُ اذا علم انك عند عزة لا يعاتبك »

وتوقعت عزة بعد الفراغ من قولها ان تسمع من سمية جواباً فاذا هي لا تزال ثابتة النظر في تلك البحيرة وآنست في وجهها بغتة وقد ابطلت المضغ واللقمة لا تزال في فمها وهي تتفرس في البحيرة وقد اقطبت حاجبيها وحددت بصرها فاعادت عزة السؤال عليها . فاجابتها سمية وقد عادت الى المضغ وهي تشير بيدها الى البحيرة وتقول « كأني ارى اظلال النخيل تنتقل في الماء . . . ما هذا ؟ . . ماذا ارى ؟ »

فالتفتت عزة وفي يدها لقمة كانت قد اعدتها لسمية ونظرت في البحيرة فرأت اظلالاً تتحرك في الماء بين اظلال النخيل ولكنها لم ترَ الاشباح على الجرف لان الظلام حجبها ولكن انعكاس الشفق على سطح الماء ابداها « انك ترين ظل شبح سائر بجانب البحيرة ... » وتفرست عزة قليلاً ثم قالت « ان الذي نراه ظل شبحين اظنهما فارسين مارين بين النخيل على حافة الجرف ... لا بل هما جملان وعليهما رجلان ... أليس كذلك ؟ »

قالت سمية « بلى .. هما جملان ويخال لي انهما ما شيان على سطح الماء من الاسفل »

فضحكت عزة وقالت « انك ترين ظليهما يابنية ... وارى الآن شبحاً ثالثاً اظنه جملاً ثالثاً » . ولم يمض قليل حتى توارت الاشباح فقالت عزة « لا ينشغل بالك ليس ما ترين الاَّ اناساً اظنهم قادمين الى المدينة من دمشق وما هذه اول مرة رأيت مثل هذا المنظر ... عودي الى طعامك فقد برد الهواء وانقشعت حمأة القيظ ومتى فرغنا من الطعام اسمعك صوتاً تلقنته من استاذتي رائقة »[1]

فعادتا الى الاكل وهما لا تتكلمان ولم تكادا تفرغان من الطعام حتى تكاثف الظلام واحتاجتا الى الضوء . فصفقت عزة فجاء رجل في نحو الستين من عمره والجمال لا يزال بادياً فيه وهو نظيف الثوب حسن الهندام فلما رأته سمية غطت وجهها . فضحكت عزة وقالت « أتحتجبين من مخنث » ولم تكن سمية قد عرفته في الظلام

وكان في المدينة جماعة كبيرة من هؤلاء المخنثين كانوا يخالطون النساء واكثرهم يحب الغناء ويحسنه . وكان من اراد خطبة امرأة سأل عنها احد المخنثين فلا يزال يصف له النساء واحدة واحدة حتى ينتهي الى وصف ما يعجبه ثم يتوسط بينه وبين ما يعجبه منهن حتى يتزوجها وكان اكثر هؤلاء المخنثين يترددون على عزة ويتقربون اليها بالخدمة والمنادمة ليستفيدوا منها الاصوات

فلما وقف ذلك المخنث بين يديها قالت « ما جاء بك ياطوَيس ؟ .. »

فلما سمعت سمية اسم طوَيس قالت « اطويس هذا ؟ »

قالت « هو بعينه .. ولا يصعب عليك انه جاءنا على حين غفلة فان ذلك دأبه معنا ... باطويس قل للجارية تضيء لنا الشموع فاننا ننزل بعد قليل ... »

قال « افعل ذلك على شرط واحد »

---

(١) الاغاني ج ١٦

قالت « وما هو »

قال « تغنين لي شعرًا على الهزج »

قالت « اتطلب ان اغني لك الهزج وانت أهزج الناس [١] لو سالتني ان اغني في الثقيل او الرمل لكان خيرًا »

قال « لا ابالي اي صوت وانما انا اقترح عليك شعرًا فتغنينه »

قالت « افعل ان شاء الله . ولكني اخاف من وجهك لانك على ما يقال مشئوم »

قال « واكثر من مشئوم فان امي كانت تمشي بالبهائم بين نساء الانصار ثم ولدتني ليلة قبض النبي (صلعم) وفطمت ليلة مات ابو بكر واحتلمت ليلة قتل عمر وزفت الى اهلي ليلة قتل عثمان وولد لي يوم قتل علي »

فضحكت عزة لخفة روحه وقالت له « ارجو ان لا يتكامل شؤمك علينا الليلة . . فامض اعزك الله وافعل ما قلته لك »

الفصل الخامس

طارق مجهول

فنزل طويس وبعد قليل نزلت عزت وسمية ودخلتا القاعة التي تستقبل عزة الاضياف فيها . ومشت الى صدرها وهي تتوكأ على اوراكها حتى جلست على مقعد والارض مفروشة بالطنافس وحولها الوسائد وقد اوقدت فيها الشموع وجلست سمية بجانب عزة وعادت الى هواجسها واما طويس فانه تناول دفًا مربعًا كان معلقًا بالحائط في جملة الاعواد والمزاهر والدفوف المعلقة هناك ورماه في حجر عزة

فقالت عزة « ويلك ماذا تريد »

قال « بابي انت وامي . . . اريد ان اسمع غناءك »

قالت « تمهل يا طويس ريثما استريح »

وفيما هي تكلمه سمعت هدير جمال بقرب باب البستان فقالت انظر يا طويس من جاءنا الليلة . . اني اخشى ان يكون شؤمك وصل الينا »

---

(١) الاغاني ج ٤

قالت سمية « واي شؤم تخافين ونحن في امان »

قالت وقد خفضت صوتها « لا اظننا في امان واميرنا اليوم ياكل المخ ويا كل فوقه التمر على منبر رسول الله (صلعم) [1] . . . اذهب يا طويس واخبرنا من هو القادم »

فهرول طويس الى نعليه واسرع في لبسها ومشى وهو يتظاهر بالمجون في مشيته حتى قطع البستان وانتهى الى باب الدار وفتح خوخة الباب واطل راسه فرأى جملين و بجانبهما رجلان احدهما طويل وقد تلثم بالكوفية والتف بالعباءة والآخر قصير غير مثلم يشبه ان يكون خادماً . فقال لهما « من انتما وماذا تريدان »

فاجابه الطويل بصوت كأنه هدير الجمل وقال « اليس هذا بيت عزة الميلاء »

قال « بلى وماذا تريد منها ؟ »

قال « اريد الدخول اليها »

قال « ومن انت ؟ الا انتسبت ؟ »

قال « لا . . . لا انتسب »

قال « اتريد الدخول وانت ملثم كما ارى ؟ » . قال « نعم »

قال « دعني استاذن لك » وعاد طويس الى عزة واخبرها بما رآه . فلما سمعت سمية قوله تحفزت للقيام وقالت لعزة « دعيني انصرف الى ابي فقد طال مكثي عندك اليوم لاسيما وارى رجالاً قادمين اليك ولا يليق بي البقاء معهم على هذه الحالة »

قالت « لك الخيار فانصرفي يا بنية ولا تطلبي الغياب علي . . . اذهبي من الطريق القريب الذي تعرفينه واخرجي من الباب الخلفي » فودعتها وانصرفت

فلما انصرفت جعل طويس يشيعها ببصره حتى توارت عنه ثم التفت الى عزة واشار بضم انامله وزم شفتيه الى انها جميلة . فاومأت اليه ان يصمت ثم قالت « اخرج الى الطارق واطلب اليه ان يريك وجهه او يذكر لك اسمه »

فذهب طويس وبعد غياب طويل عاد وهو يقول لعزة ان صاحبنا من اهل البادية ويهوى الغناء وقد جاء لسماع عزة الميلاء فسالته عن اسمه فابى ان يخبرني به ولما الححت عليه قال انه لا يقول اسمه ولكنه يقول لك انه قائل هذين البيتين

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها * فليس اليها ما حييتَ سبيلُ
لنا صاحب لا ينبغي ان نخونهُ * وانت لأخرى صاحب وخليلُ

(١) ابن الاثير ج ٤

الفصل السادس

ليلى الاخيلية

فلما سمعت عزة قول طويس بغنت وتبسمت ولولا ثقل بدنها لوثبت الى الباب لاستقبال ذلك الضيف . فقال لها طويس « وما بغنك ياعزة ؟ »

قالت « ألا تعرف قائل هذا الشعر ؟ »

قال « كلاَّ ... ومن هو ؟ »

قالت « لواني سمعت لفظ قائلهِ لعرفتهُ ولو كان في غير هذا الشعر ... ألم تنتبه انهُ يلفظ حرف المضارعة مكسورًا مثل اهل بهرا [1] ؟ »

قال « اظنني لحظت ذلك فيهِ .... واذا كان يكسرهُ ؟ »

قالت « ويلك هذه ليلى الاخيلية الشاعرة وهذا الشعر شعرها وهي تكسر حرف المضارعة في لفظها أيضًا »

فقال طويس « اذا كانت هذه هي ليلى فقد تمَّ حظنا لاني أسمع بشعرها وحديثها مع توبة بن الحمير الذي كان يهواها ... فهل ادعوها ؟ »

قالت « كيف لا .. وهي صديقتي ويندر ان تنزل المدن الاَّ لحاجة ماسة لانها من اهل البادية »

فاسرع طويس وهو يهرول في مشيتهِ حتى أتى الباب ففتحهُ ورحب بليلى وجعل ينظر الى قامتها ويلاحظ مشيتها وهي ملتفة بالعباءة وطولها يندر في النساء . ولكنهُ لم يتمكن من رؤية وجهها لانها كانت لا تزال ملثمة . فدخلت البستان واشارت الى خادمها ان يدخل الجملين الى العريش ومشت وهي تخطر في مشيتها وطويس يمشي وراءها ويتأمل قامتها وحسن مشيتها واللثام محيط براسها ووجهها جميعًا

فلما اقبلت على القاعة نهضت عزة وتقدمت لاستقبالها عند الباب وهي تقول « مرحبًا بليلى .. اهلاً بك يا حبيبة .. لقد بالغتِ في الاختفاء حتى أسأنا معاملتك واخرناك » قالت ذلك وتناولت وسادة عن البساط وثنتها واجلستها عليها

---

(١) الدميري ج ٢

فقالت ليلى وصوتها جهوريٌّ لايكاد يشبه اصوات النساء « لاباس عليك وان لم يكن ذلك ذنبي لاني كنت احسبك تعرفينني من صوتي ولهجة كلامي »

وكان طويس واقفًا بالباب يتشوق لرؤية وجه ليلى ولكنها ما زالت ملثمة لا تلتفت الى طويس كأنها تتوقع خروجهُ ليخلو لها المكان . فادركت عزة ما في نفسها فقالت لها « لا تحتجبي يا ليلى من هذا الرجل فانهُ من المخنثين . وازيدك تعريفًا بهِ انهُ طويس المغني »

فضحكت ليلى ونظرت الى طويس وازاحت اللثام وهي تقول « أهذا هو طويس المشهور بالشؤم ... ؟ لقد تمّ سرورنا بلقياه »

فلما ازاحت النقاب بان تحتهُ وجه يتدفق هيبة وعينان دعجاوان وثغر حسن (١) وآثار الصحة بادية على وجهها من سكنى البر . فانبهر طويس بروئيتها ولما رأى استئناسها بهِ سرَّ وقال وهو يمشي نحو البساط الذي كانت هي جالسة عليهِ « ان سروري تمَّ بلقياك ايتها الشاعرة البارعة . وقد كنتُ اعجب لما اسمعهُ من شغف توبة فيك وما ينشدهُ من الاشعار بذكرك وانت زوجة سواه — فلما رأيت هذا الوجه علمت السر الذي دعاه الى ذلك »

فلما سمعت ليلى اسم توبة علا وجهها الاحمرار وكأنها خجلت وطأطأت راسها حياء ثم رفعت بصرها اليهِ وقالت « وهل سمعت شيئًا من قولهِ »

قال سمعت كثيرًا ولكنني اذكر هذه الابيات فقط :

ولو ان ليلى الاخيلية سلمت * عليَّ ودوني جندل وصفائح
لسلمتُ تسليم البشاشة اوزقى * اليها صدى من جانب القبر صائح
وأغبط من ليلى بما لا انالهُ * ألا كل ما قرَّت بهِ العين صالح

ولم يتم كلامهُ حتى تبدل لون وجهها بالاصفرار . وادركت عزة ذلك فيها فاحبت مداعبتها ولكنها قبل الشروع بالمداعبة دعتها الى الطعام والغسل . فقالت انها لا تحتاج الى شيء وانها انما جاءت لزيارتها ساعة لتسمع حديثها وتطرب بغنائها ثم تنصرف فقالت عزة « أ لعلك قادمة من الشام »

قالت « نعم وقد وصلت المدينة الساعة وكان معي رفيق خليتهُ في مكان وجئت اليك على ان اعود اليهِ عاجلاً »

---

(١) الاغاني ج ١٠

فتطنت عزة للاشباح التي رأتها سمية على شاطئ تلك البحيرة فقالت « اظنني رأيت اشباحكم عند الغروب بين النخيل »

قالت « كنا ثلاثة وصلنا عند الغروب الى ضاحية المدينة على جمالنا »

الفصل السابع

حكاية ليلى مع توبة

فتأكدت عزة انها هي بعينها فعادت الى العبث بها فقالت « اتحبين توبة ؟ »

فقالت ليلى « لم أفهم معنى سؤالك »

قالت « سؤالي بسيط . اعرف انك تحبين توبة واسمع انهُ شاب جميل الخلقة شجاع وانهُ يحبك ... فكيف تزوج هو سواك وتزوجت انت سواه »

فقالت ليلى وقد تغيرت سحنتها وتزايد احمرار وجهها « دعينا يا عزة من هذا الحديث واسمعينا صوتاً يروّح النفس وينسينا تعب الطريق »

فلم تشأ عزة ان تلح عليها وعمدت الى الحيلة فقالت « صدقت ان تلك الذكرى تؤلمك ... هات الدف يا طويس »

فناولها طويس دفاً فنقرت عليهِ وغنت

وكنتُ اذا ما جئت ليلى تبرقعت ✲ فقد رابني منها الغداة سفورها

عليَّ دماء البدن ان كان بعلها ✲ يرى لي ذنباً غير اني ازورها

ولم تتم هذين البيتين حتى تململت ليلى وامتقع لونها وقالت « ما هذا الغناء ياعزة اني لا ازال أراكِ تسألينني عن سبب تركي توبة »

فضحكت عزة وتجاهلت وهي تقول « وما علاقة هذا الشعر بك ؟ ... اظن توبة هو الذي قاله فيك ... ؟ »

قالت « اراك تتجاهلين واحسبك ما زلت تريدين سماع حديثي مع توبة . فها اني اقصهُ عليك وان كان ذكره يؤلمني : اعلمي يا أختي ان عاداتنا نحن معاشر البدو غير عادات الحضر اهل المدن امثالكم . فان الرجل منكم اذا احب فتاة تزوجها . واحسن ما يكون الزواج على حبٍّ . واما نحن فاذا عرف اهل الفتاة ان شاباً يحبها وتحبهُ منعوه

منها . وهكذا وقع لي مع توبة فانهُ كان يحبني ويقول فيَّ الشعر فخطبني الى ابي فأبى ان يزوجني بهِ وزوجني برجل من بني الادلع هو زوجي الى الآن . ولم يكتفوا بذلك ولكنهم هدروا دم توبة ومكثوا لهُ في الموضع الذي كان يلقاني فيهِ حتى اذا جاءني همموا بقتلهِ . وكنت اذا جاءني قبل ذلك اتبرقع واحتجب منهُ على عادتنا . فنكرت في طريقة احذره بها من غدرهم بحيث لا يشعرون فلم ار خيرًا من ان اغير عادتي معهُ . فلما جاءني في ذلك اليوم خرجت اليهِ سافرة وجلستُ في طريقهِ . فلما رآني على تلك الحال فطن لما اردتُ وعلم المكيدة فركض فرسهُ فنجا ونظم في ذلك قصيدتهُ التي مطلعها

نأتك بليلى دارها لا تزورها وشطت نواها واستمرَّ مريرها

ومنها البيتان اللذان غنيتهما — وهي طويلة »

وكانت عزة قد سمعت هذه القصة من قبل ولكنها ارادت ان تسمعها لطويس . فلما فرغت ليلى من حديثها قالت عزة « اني لم اكن اجهل حديثك هذا ولا غيره ولولا ذلك ما عرفتك من البيتين اللذين بعثت بهما اليَّ دليلاً عليك . فبالله ألا ذكرت لي سبب قولك ذينك البيتين فانهما يدلان على اننة وعنة يندران في المدن »

قالت « صدقت . . . فاعلمي يا عزة ان العنة والحب النقي انما يكونان في اهل البادية وبنو عذرة اهل وادي القرى على مقربة من هذه المدينة مشهورون بهما . ولكن ذلك غير قاصر عليهم وان كان غالبًا فيهم . قلت لك ان توبة كان يحبني واحبهُ ولم اسمع منهُ ما يدعو الى ريبة ولكنني اجتمعت بهِ مرة بعد ان تزوجت وتزوج فقال لي كلمة ظننت انهُ قد خضع فيها لبعض الامر فقلت لهُ

وذي حاجة قلنا لهُ لا تبح بها فليس اليها ما حييت سبيل
انا صاحب لا ينبغي ان نخونهُ وانت لأُخرى صاحب وخليل

ولم اعد اسمع منهُ ريبة بعدها قط »

فضحك طويس وقهقه حتى كاد يستلقي ثم قال « ما اشبه هذه العنة بعنة مخنثي المدينة والله ان البداوة حلوة ولكنني لا أُحبها . . . »

فقالت لهُ ليلى « اذا شاقك ذلك فعليك بوادي القرى انهُ قريب منكم وفيهِ بنو عذرة الذين تضرب بعنتهم الامثال وفيهم جميل بثينة وكثير عزة وغيرهما »

فضحكت عزة ولم كنفت بالرجوع الى الغناء جوابًا على ذلك . فعادت الى الدف فطربت ليلى وطرب طويس . ثم استبدلت الدف بالعود فضربت عليهِ الحانًا شجية وكان

العود حديث العهد عند العرب يومئذ لانهم اخذوه عن الفرس بعد الاسلام

وكانت ليلى في أثناء الغناء تطرق وتستغرق في التأمل كانها تفكر في أمر ذي بال. فلما فرغت عزة من غنائها قالت ليلى « لقد اطربتنا يا عزة بغنائك وعندي أمر أحب ان اسره اليك فهل تسمحين بخلوة ؟ »

الفصل الثامن

رملة بنت الزبير

فلما سمع طويس كلامها خرج مسرعاً واغلق الباب وراءه . فلما خلتا جرجرت ليلى نفسها حتى دنت من عزة وجاست بجانبها وقالت لها بصوت يقرب ان يكون همساً « اتعرفين رملة بنت الزبير »

قالت عزة « كيف لا أعرفها وهي اخت عبد الله بن الزبير اللائذ بالحرمين وهو محصور في الكعبة الآن »

قالت « هل هو محصور ... ؟ ومن حصره .. ؟ »

قالت عزة « الم تعلمي انه اقام في الحرمين يدعو الناس الى نفسه منذ توفي معاوية وتولى الخلافة ابنه يزيد سنة ٦٠ هـ . ولم يقوا مره الا بعد مقتل الحسين وموت يزيد . وهو الآن ينكر الخلافة على عبد الملك بن مروان خليفة بني امية بدمشق »

قالت ليلى « اني اعلم ذلك واعلم ايضاً ان اهل الحجاز بايعوه وان الامويين ينوون قتاله ورده الى بيعتهم »

قالت « الم تسمعي بقدوم الحجاج بن يوسف الثقفي من الحجاز بامر عبد الملك لقتال عبدالله في مكة »

قالت « اظنني سمعت شيئاً من ذلك قبل خروجي من الشام »

قالت عزة « وقد جاء الحجاج وانت تسمعين بشدة بطشه واستبداده وحاصر عبدالله ابن الزبير في مكة وضيق عليه وقد خرجت المدينة من سلطانه وعاملنا الآن من قبل عبد الملك بن مروان »

فاطرقت ليلى وصمتت كان خاطراً طرأ عليها فارجعها عما كانت تهم به . فادركت

عزة فيها ذلك فقالت لها « مالي اراك صامتة ... ؟ قولي ما في نفسك »

قالت « جئت المدينة في مهمة تتعلق برملة بنت الزبير ولكن حال اخيها يحول دون الغرض من السؤال عنها ... هل هي معهُ في مكة ... ؟ »

قالت « نعم هي معهُ هناك وإظنهم في اشد الضيق من الحصار وقد قلّ زادهم ولا ندري ما يأول اليهِ امرهم »

فنأفنت ليلى وتذمرت ثم جعلت تحك وراء اذنها وتنظر الى البساط بين يديها كأنها تتفرس في نقوشهِ وهي لا تتكلم

فقالت عزة « قولي يا اخية ما في نفسك فقد اقلقت خاطري بسكوتك .. ما الذي تريدينهُ من رملة واخيها .. ؟ »

قالت « لا أُخفي عنك ان اميرًا من اكبر امراء بني امية انتدبني للبحث عن رملة واستطلاع احوالها لانهُ يريد خطبتها فلم اجد من يصف لي جمالها سواك لانك عاشرتها وعرفتها فماذا تقولين ؟ »

قالت « على الخبير وقعت . اما رملة فانها من احسن النساء خلقًا وعقلاً ودراية . ولكنني اعجب لاقدام امير من بني امية على خطبتها والحرب قائمة بين الاموبين وبين أخيها كما تعلمين »

فامسكت ليلى عن الكلام قليلاً ثم قالت « اخشى ان اصرح لك بالاسماء فاكون قد بحت بسرٍّ اؤتمنت عليهِ »

قالت « لا تخافي من ذلك فاني مستودع اسرار اهل المدينة ... واني اعاهدك على كتمان ما تقولينهُ »

قالت « ان الامير الذي يبغي خطبتها أحسن امراء بني امية علمًا وشعرًا وفصاحة وعارضة ولهُ ولع خاص بعلم الكيمياء وهو ابن خليفة وحفيد خليفة .... » (١)

فقطعت عزة كلامها قائلة « قد عرفتهُ .. انهُ خالد بن يزيد .. اليس هو ... ؟ »

قالت « هو هو بعينهِ فما قولك ؟ .. »

فاطرقت عزة هنيهة ثم قالت « قد ادركت سر الامر وعلمت السبب الذي سوّغ لخالد خطبة رملة وهي من اعداء بني امية وان كان هو اموياً .. »

قالت « اما وقد فهمت سر الامر فاكتميهِ عن كل احد . وهذه هدية من خالد

(١) الاغاني ج ١٦

بعث بها اليك » قالت ذلك ومدت يدها الى كمها واستخرجت عقداً من اللؤلؤ دفعته اليها . فتناولته عزة واثنت على فضلها وقالت « هل عولت على خطبة رملة لخالد . . . ومن يخطبها له ؟ »

قالت ليلى « ليس لي ان اصرح لك باكثر من ذلك . ولكنني اطلب اليك كتمان ما ذكرته حتى ياتي اجله فيظهر »

فقالت عزة « للسر عندي بئر عميقة طيبي نفساً وقري عيناً »

ثم تحفزت ليلى للقيام فامسكتها عزة ودعتها للبقاء عندها . فاعتذرت ان بعض الناس ينتظرها في مكان ولا بد لها من موافاته لامر لا يحسن تأجيله . فاطاعتها فخرجت فلقيت طويس في البستان فودعته وانطلقت

وكانت ليلى الاخيلية شاعرة بارعة كما تقدم وكانت تفد على الملوك والامراء تمدحهم وتنال منهم الرعاية والجائزة . وكانت قد وفدت على عبد الملك بن مروان في ذلك العام فامتدحته ثم صارت الى خالد فعهد اليها البحث عن رملة واستيصافها من عزة . وبعث معها شاباً من خاصته اسمه حسن كان في جملة من جاء مع عبد الملك بن مروان عند عودته من العراق الى الشام بعد قتل مصعب بن الزبير واخراج العراق من سلطة عبد الله بن الزبير

وكان حسن في جملة رجال مصعب القاتلين بقوله الداعين الى دعوة أخيه في العراق وحارب معه في قتاله المختار بن عبيد الثقفي فابلى بلاء حسناً حتى قُتل المختار وخلص العراق لمصعب . فلما جاء عبد الملك لحرب مصعب دافع حسن عنه جهده حتى قُتل أبوه ووقع هو في أسر عبد الملك ورافقه الى الشام . فلقي هناك خالداً فاحبه خالد وجعله من بطانته وكان يثق به ويبيح له بما في نفسه على عبد الملك بن مروان لانه تولى الخلافة دونه وهو أحق بها لانه ابن الخليفة يزيد بن معاوية وبين والده ووالد عبد الملك حكاية سيأتي ذكرها

وكان خالد قد سمع برملة بنت الزبير واحب خطبتها . فلما جاءته ليلى سألها عنها فقالت انها لم ترها فكلفها ان تستفهم عزة الميلاء في المدينة وكتب الى اخيها عبد الله بن الزبير يخطبها منه وسلم الكتاب الى حسن وارسله مع ليلى واوصاه اذا أمرته ليلى بالذهاب الى مكة ان يذهب ويدفع الكتاب الى عبد الله بن الزبير ويبذل جهده في اقناعه . وكان حسن يحب خالداً حباً شديداً فعول ان يبذل ما في وسعه لتنفيذ مرامه وكان لحسن في المدينة وطر يحن الى قضائه قلبه فكان له بواعث آخر للمسير فاسرع

مع ليلى حتى وصلا المدينة في مساء ذلك اليوم كما قدمنا فعرج هو الى منزل يمكث فيهِ ريثما تعود هي

أما ليلى فلما عادت من منزل عزة امرت الخادم ان يذهب بالجمال الى منزل سكينة بنت الحسين على ان توافيهُ الى هناك وسارت لمقابلة حسن في الملتقى . فلقيتهُ في انتظارها على مثل الجمر فاخبرتهُ بما دار بينها وبين عزة واوعزت اليه ان يسافر الى مكة بالمهمة التي جاء من اجلها ودعت لهُ بالتوفيق

الفصل التاسع

حسن

فلما خلا حسن بنفسهِ عاد لما يتقد في قلبهِ من الوجد . وكان يحبُّ فتاة عرفها منذ اعوام وانقذها من الموت هي ووالدها في العراق في اثناء محاربتهم المختار بن عبيد وقد عاهدها على الحب وهو يعلم انها تقيم في المدينة ولكنهُ لا يعرف منزلها ففكّر في امرها طويلاً فلم يرَ خيرًا من ان يستطلع عزة فانها اخبر نساء المدينة بنسائها . فسار توًّا الى عزة وكانت لا تزال جالسة وقد خرج طويس من عندها . فاستغربت قدومهُ اليها في اواخر الليل

وكان حسن طويل القامة حسن الخلقة وفي وجههِ دلائل الشهامة وصدق المودة وعيناه تنقدان ذكاء وحدة . فلما اقبل على عزة استقبلتهُ باشة ولم تستهجن قدومهُ لما تعودتهُ من كثرة الوفود عليها من سائر البلاد

فاعتذر حسن عن جسارتهِ ثم قال لها « اني قادم اليك في امر اقلقني واحرمني المنام وليس لي من يفرج كربي سواك »

قالت « قل ما بدا لك »

قال « اني احب فتاة من اهل المدينة ولكنني لا اعرف منزلها ولا ادري هل هي مقيمة هنا ام سافرت الى بلد آخر »

قالت « ما اسمها »

قال « اسمها سمية بنت عرفجة الثقفي »

فبهتت عزة عند سماعها ذلك الاسم وجعلت تتفرس في وجههِ كأنها تستطلع حقيقتهُ

وقالت « ومن ابن عرفتها وكيف احببتها وانت بعيد عن المدينة »

قال « قولي لي اولاً هل هي في المدينة وهل تعرفينها جيداً ؟ »

قالت « اعرفها كما اعرف نفسي وهي مقيمة هنا وقد كانت عندي في هذا المساء فقل لي من ابن تعرفها »

قال « اني من رجال مصعب بن الزبير الذين ساروا معهُ الى العراق لمحاربة المختار بن عبيد الثقفي . وكان المختار هذا بعد قتل الحسين قد قام يدعو الناس الى الاخذ بثاره وتظاهر بمبايعة عبد الله بن الزبير اللائذ بالحرم الآن . ففتل المختار قتلة الحسين جميعهم بمساعدة التوابين وهم اهل الكوفة الذين خانوا الحسين وامسكوا عن نصرته فلما قُتل ندموا وقاموا يطالبون بدمهِ »

قالت « نعم اذكر ذلك جيداً ولكن المختار هذا كان يدعو الناس الى بيعة محمد ابن الحنفية اخي الحسين من ابيهِ وليس لعبد الله بن الزبير »

قال « لا بل كان يدعو الى عبد الله في بادىء الرأي فلما فاز في حروبهِ طمع بالامر لنفسهِ وتظاهر بالدعوة لمحمد بن الحنفية ولا اشك ان محمداً لم يكلفهُ بذلك لانهُ زعم اشياء لا يرضى بها محمد » قالت « اظنك تعني الكرسي الذي زعم انهُ كرسي علي وصار يحملهُ معهُ في حروبهِ ويزعم ان جبريل يظهر لهُ ويكلمهُ [1] »

قال « نعم ذلك اعني ولكنهُ لم يفلح لان عبد الله بن الزبير لما سمع بما فعلهُ المختار بعث اليهِ اخاه مصعباً ومعهُ جند فحاربوهُ وقتلوهُ وسمروا يدهُ في مسجد الكوفة وكنت انا في جملة رجال مصعب . ففي يوم المعركة بعد ان تمَّ لنا النصر ولمعنا في رجال المختار قتلاً ونهباً لقيتُ عرفجة والد سمية طريحاً على الارض بين يدي بعض رجالنا وقد هموا بقتلهِ ثم رأيت سمية ابنتهُ (قال ذلك وتنهد) قد خرجت من الخباء وشعرها محلول على كتفيها فوقع بصرها عليَّ فلما نظرتها تحرك قلبي نحوها تحركاً غريباً وسمعتها تستنجدني لانقاذ والدها من القتل . فصحتُ في الرجال فابعدتهم عنهُ وخلصتهُ واوصلتهُ الى مأمنهِ فقبَّل يدي وشكرني وقال انهُ لا يقدر على مكافأتي . فقلت لا التمس مكافأة منك الاَّ ان تزوجني ابنتك هذه فقال هي جارية بين يديك . فتواعدنا على ان آتي المدينة واتزوجها . واتممت امر خلاصهِ فاخرجتها من الكوفة وبعثت معها من اوصلها الى هنا وبقيت انا هناك وشغلت بامور كثيرة لا محل لذكرها فلم استطع المجيء الاَّ اليوم »

---

(١) ابن الاثير ج ٤

الفصل العاشر

كشف السر

وكان حسن يتكلم وعزة تتطاول بعنقها لسماع بقية الحديث . فلما وصل الى هذا الحد قطعت كلامهُ قائلة « أَلعلك حسن ... »

قال « نعم ... وكيف عرفت ذلك ؟ »

قالت « عرفتهُ منها .. فابشرك واهنئك بهذه الفتاة فانها زينة فتيات المدينة وليس احد يعرف مكنونات قلبها غيري . وقد طالما ذكرتْ اسمك لي سرًّا واطلعتني على خصالك واثنت على افضالك . وكن واثقًا انها لاتزال على ودك ولو جئتنا في هذا المساء لوجدتها هنا »

قال « وهل من سبيل لرؤيتها ولك عليَّ ما يرضيك »

فاطرقت عزة هنيهة ثم قالت « لم يكن عليَّ اهون من مرضاتك لولا ان والدها ضنين بها لايأذن بخروجها من البيت لاي سبب كان وهي اذا جاءتني انما تجيء خلسة وربما اذن والدها بمجيئها اليَّ احيانًا . اما اذا عرف انها جاءت لمثل ما تريده انت فانهُ يغضب وربما اساءها وكدرها وقد يكدرني والرجل ذو نفوذ لدى امير هذه المدينة فاذا لم يؤذني راسًا وشى بي واتهمني تهماً يكدر عليَّ عيشي »

فمكث حسن مدة يفكر في امره وقد اقتنع بالمشقة التي تحول دون مجيء سمية لكنهُ لعظم شوقهِ استسهل كل عسير على انهُ لم يعد يرى سبيلاً للالحاح على عزة باستقدامها فصبر نفسهُ الى صباح الغد اذ يذهب لزيارة والدها وهو يعهد فيهِ الميل لهُ والرضى بهِ فلما عوَّل على ذلك نهض فودَّع عزة واستدل منها على بيت عرفجة فدلتهُ ودعت لهُ بالسلامة واعتذرت عن رفضها التماسهُ فعذرها وخرج الى بيتهِ

وبات حسن تلك الليلة على مثل الجمر وافاق قبل الفجر واخذ يتأهب للذهاب الى بيت عرفجة وقد اشتد هيامهُ وخفق قلبهُ وجعل يفكر في لقياه سمية . وشق عليهِ انهُ لا يستطيع مخاطبتها بين يدي والدها ولا يقدر على بث شكواه لها . واشهى ما يلتذ بهِ المحبون النشاكي بعد الفراق . فعلل نفسهُ بما قد يأتي بهِ القدر من سوانح الفرص وخرج

والشمس قد اطلت من وراء المنازل والناس يذهبون ويجيئون في الطرق وهو لا يلتفت الى احد لعظم ما قام في خاطره من امر تلك الملاقاة بعد ذلك الغياب الطويل حتى ان صورة سمية كادت تذهب من ذهنه لطول البعاد ويستقر في مكانها صورة اخرى غير صورتها وان كانت تشبهها . واما عرفجة فلم يكن يذكر الاَّ صورته ساعة اضطرابه يوم انقذه من القتل في الكوفة

الفصل الحادي عشر

عرفجة

وظل حسن ماشياً وهو غارق في بحار الهواجس حتى اشرف على بيت عرفجة وهو بالقرب من بيت سكينة بنت الحسين ولكنه اضيق منه واقل قيمة . ووصل باب الدار فرآه منتوحاً فدخل ولم يقرع الباب ولم يتكلم فاطل على باحة تحيط بها ثلاث غرف وفي بعض جوانب الباحة نخلة عظيمة رأى بجانبها فتاة عليها جلباب احمر زاه وليس على رأسها نقاب وقد جلست امام النخلة واسندت ظهرها اليها ووجهها الى جانب الدار بحيث لا يقع بصرها على الداخل من الباب . ولم يرحسن من وجهها الاَّ صفحة خدها وجانب عينها وفمها . وحالما وقع بصره عليها علم انها سمية مع انه رأى في وجهها تغيرًا عما رسم في ذهنه من صورتها ولكن قلبه دله على نزيلته فندم لدخوله بغتة واستحرم ان ينظر اليها او يدخل بلا استئذان . ولكن الشوق اعمى بصيرته فوقف مبهوتاً وقلبه يخفق وهو بين عاملين متضادين الشوق يدفعه الى التملي من رؤيتها والحياء يدعوه الى الرجوع وقرع الباب . ثم غلب عليه الحياء وخاف ان يقع نظرها عليه فتخجل وربما اصابها سوء من تاثير البغتة فيقع في الندم فتقهقر حتى وقف بالباب وقرعه بحلقة من الحديد كانت ملعنة في خوخته ولبث ينتظر من يدعوه للدخول او من ياتي لاستقباله . فسمع وهو في الانتظار حركة مشي في الباحة فعلم ان سمية تمشي الى احدى الغرف للاستتار . وظل هو واقفاً مدة فلم يأته احد فاعاد القرع مثنى وثلاث . وبعد هنيهة سمع وقع اقدام قادمة نحو الباب عرف من شدتها وسرعتها انها اقدام رجل . ثم جاءه رجل في نحو الخمسين من عمره قصير القامة نحيف البدن يكاد جلده يلصق بعظمه لخفة عضله

اشمط شعر اللحية خفيفة وعلى رأسهِ عمامة صغيرة وعلى كتفيهِ مطرف التف بهِ وكان خديهِ حفرتان ووجنتيهِ اكمتان وانفهُ كتلة بارزة في منتصف وجههِ ولهُ عينان غائرتان . ولو احسن حسنٌ التفرس فيهِ لتبين من سرعة اختلاج اجفانهِ وعدم امكانهِ تثبيت نظرهِ فيهِ انهُ من اهل الرياء والخبث

فلما وقع بصر حسن على الرجل عرف انهُ عرفجة والد خطيبته فهش لهُ وهو يتوقع ان يعرفهُ و يرحب بهِ . اما عرفجة فلبث برهة ينظر الى وجه حسن وهو يتجاهلهُ . فلما رأى حسن منهُ ذلك حملهُ منهُ محمل السهو فضحك وتقدم اليهِ والقى التحية فرد عرفجة التحية ولم يتغير وجههُ بما يدل على بغتة او استغراب . ولكنهُ سعل سعلة رجل ينبه اهل بيتهِ الى قادم غريب فقال حسن « اظنك لم تعرفني يا عماه »

فلما سمع عرفجة كلامهُ ابتسم بغير ان تبدو في سحنتهِ ملامح الابتسام والقى نفسهُ عليهِ وجعل يقبلهُ و يرحب بهِ و يقول « اهلاً بك يابني ياحسن من اين اتيت » وامسكهُ بيدهِ ودخل بهِ الى الدار وسار توًّا الى غرفة هناك يستقبل بها الزائرين . فاستأنس حسن بذلك الترحاب بعد ان كاد يتميز غيظًا مخافة ان يعود من سفرتهِ بخفي حنين . وابتدره عرفجة بالسؤال عن حالهِ وعن سبب غيابهِ وسألهُ اذا كان في حاجة الى طعام . فاعتذر عن الطعام ولكنهُ اخبره عن قدومهِ المدينة للقياه . فجعل عرفجة يتملقهُ بالكلام اللطيف ليستطلع ما في قلبهِ . فاستخلصهُ حسن ففتح لهُ قلبهُ واطلعهُ على شدة شوقهِ لسمية . وكان يخاطبهُ و يراقب ما يبدو من استحسانهِ او استهجانهِ . فلم يجد فيهِ الا انعطافًا وترحابًا . ومما قالهُ عرفجة ان سمية في خير وانها ما زالت تذكر فضلهُ عليها . فازداد حسن استئناسًا وتوقع ان يدعو سمية لتراه فلم يدعها فظنهُ اجل ذلك الى ما بعد الاستراحة . واستغرقا في الحديث في شؤون مختلفة حتى تطرقا الى سبب قدومهِ المدينة فاخبره حسن انهُ انما جاء بمهمة من خالد بن يزيد الى عبدالله بن الزبير . ثم قال « الم يئن لي ياعماه ان ابلغ امنيتي التي وعدت نفسي بها منذ اعوام » قال عرفجة « وما هي يابني »

قال « هي سمية خطيبتي »

قال « هي جاريتك وطوع ارادتك ولكنك تقول انك ذاهب الى مكة فمتى عدت من مهمتك كانت هي لك . واما الآن فانها ليست هنا وقد ذهبت الى خالتها ومتى عادت اخبرتها بقدومك ولا أشك انها تسر بلقياك . فاذهب الآن في مهمتك ومتى عدت نكتب كتابك وتكون كما تشاء »

الفصل الثاني عشر

القباء الصوف

فعجب حسن لانكار عرفجة وجود سمية في المنزل ولكنه التمس له عذرًا وشكر الله انه رآها ولو خلسة . على انه كان وهو يخاطب عرفجة يتوقع ان يسمع خطوات سمية او يلمح طرف ثوبها وهي مارة او يسمع كلامها فلم يكن يرى الا بعض الجواري يخطرن بالدار لقضاء بعض حاجات المنزل

وسكت كلاهما لحظة وكل يفكر في شأنه وشتان بين الفكرين . ثم عاد عرفجة الى الكلام فقال « ومتى عزمت على المسير الى مكة يا بني ؟ »

قال « اني عازم اليها في القريب العاجل وربما خرجت الليلة »

قال « وهذا الذي اراه فان سرعة ذهابك يقرب زمن زواجك فنفرح بك ونتشرف بمصاهرتك »

فسرّ حسن بما سمعه ولم يفطن لما كان يبدو في عيني عرفجة وفي حركاته من دلائل الخبث والغدر — ولا بعده ذاك سذاجة في حسن وانما هي سلامة القلب وصدق النية وكبر النفس لا تري الانسان غير الطيب . وزد على ذلك ان حسنًا لم يأتِ بين يدي عرفجة الا ما يستوجب الجزاء الحسن ولم يطلب منه الا ما هو حق له . فلم يخطر في باله ان عرفجة يتردد في اجابة طلبه فاقتنع بسرعة المسير فقال « ارى ان اخرج من المدينة الليلة »

قال « وهل تعرف الطريق ؟ ومن اي باب تخرج »

قال « نعم يا مولاي اني خارج من الباب المطلّ على قباء »

قال « اجعل خروجك نحو الغروب من الباب المؤدي الى مكة فانه اسهل مسلكًا ولكنني اخاف عليك برد الليل فهل احتطت لذلك »

قال « عندي عباءة التف بها اذا برد الليل »

قال وهو يتبسم وكأنه اهتدى الى سبيل لتنفيذ مرامه « لا ارى ان تخرج من المدينة وانت ملتف بعباءة ومن كان مثلك من ذوي الوجاهة لايليق ان يمرّ في الاسواق ملتفاً بعباءة فاسمح لي ان اقدم لك قباء يليق بمقامك » قال ذلك وصفق فجاءه غلام

فقال « يا غلام هات القباء الاخضر المعلق في الحجرة »

فعاد الغلام وعلى يديهِ قباء من صوف فتناولهُ عرفجة ودفعهُ اليهِ وقال لهُ « اليك هذا القباء فالبسهُ وانت خارج على ناقتك في هذا المساء فانهُ اوقى لك من البرد »

فتناول حسن القباء واثنى على فضلهِ وهو لا يرى حاجة اليهِ ولكنهُ لم ير من اللياقة ان يرده فاخذهُ وقد ازداد ثقة فيهِ وفي حسن قصدهِ . ولحظ في حركاتهِ ميلاً الى الانصراف فنهض فقبل يدهُ وودعهُ وخرج وقلبهُ لا يزال في تلك الدار وقد شق عليهِ ان يخرج منها وهو لم يخاطب حبيبتهُ . ولكنهُ علل نفسهُ بساعة اللقاء بعد رجوعهِ من مكة . وسار تواً الى السوق ليبتاع بعض النبال استعداداً للدفاع في اثناء الطريق ولكنهُ لم يكن يعرف اين يبيعون النبال فرأى غلاماً رث الثياب على راسهِ قفة يلتقط نوى التمر [1] ويضعهُ فيها . وهي احقر مهن اهل المدينة فان افقر الناس عندهم يشتغل بالتقاط النوى للوقود او نحوهِ . فناداه حسن « يا غلام » فقال « لبيك يا مولاي » . فقال « ألا تعرف رجلاً يبري النبال في هذا الجوار »

قال « أعرف كثيرين وهل تريد النبال المريشة او التي بلا ريش »

قال « اني افضل المريش منها »

قال « تعال معي فادلك على احسن من يبريها في هذه المدينة »

الفصل الثالث عشر

سليمان

فسار حسن في اثرهِ حتى انتهيا الى الطرف الآخر من المدينة فأقبل بهِ على حانوت امامهُ دكة وفي صدر الحانوت رجل من اهل يثرب بين يديهِ القسي والنبال وفيها المبري وغير المبري بعضها من الخشب والبعض الآخر من القنا ونحوهِ . فدفع الى الغلام درهماً وصرفهُ وتقدم الى الحانوت والقباء على ذراعهِ فلما رآه الرجل عرف من لباسهِ انهُ من اهل الشام فرحب بهِ واجلسهُ على الدكة . فجلس حسن ووضع القباء بجانبهِ واخذ

(١) الاغاني

بقلب السهام بين يديهِ وفيها المريش المربع او المثلث وذو الجناح الايمن او الايسر [1] وجعل ينتقي ما يريدهُ منها ثم قال للرجل « هل تبيع الجعاب (جمع جعبة) »

قال « كلاَّ يا مولاي وانما هي من صنع الجعّاب وجاري هذا جعّاب يصنع الكنانة والجعبة من الجلد او من الخشب على اشكال فاذا شئت بعثت اليهِ فيأتيك باصنافها »

فقال « انا اذهب اليهِ بعد الفراغ من انتقاء النبال » ثم انتقى ما احتاج اليهِ منها ودفع الثمن وسأل الرجل عن حانوت الجعّاب ونهض وقد نسي القباء عند النبّال وسار والنبّال يسير امامهُ حتى اوصلهُ الى حانوت اوسع من حانوتهِ فيهِ جلود واخشاب وجعاب معلقة . فرجع النبال وتقدم حسن حتى انتهى الى باب الحانوت . فرأى الجعّاب يخاطب شاباً يظهر من لباسهِ انهُ من اهل الوجاهة وهو يساومهُ على جعبة اراد ابتياعها فوقف حسن ينتظر فراغ الرجل من تلك البيعة ولكنهُ حالما وقع بصرهُ على ذلك الشاب استانس برؤيتهِ وتذكر انهُ يعرفهُ . فجعل يتأملهُ و يتفهم كلامهُ وهو يستحث ذاكرتهُ لعلهُ يذكرهُ والشاب مشتغل بالمساومة . ثم التفت الشاب الى حسن وحالما وقع بصرهُ عليهِ بغت وتفرس في سحنتهِ ولم يطل النظر اليهِ حتى ابتسم وصاح فيهِ « حسن » فقال حسن للحال « نعم وانت سليمان ؟ » قال « نعم » وتعانقا وسلما سلاماً حاراً وجلسا على مقعد من حجر بجانب الحانوت وقد نسيا الجعاب وصاحبها . فقال سليمان « من اين انت قادم يا اخي ومتى قدمت »

قال « اني قادم من دمشق وقد وصلت المدينة في مساء الامس »

قال « وهل تنوي الاقامة هنا »

قال « كلاَّ اني عازم على السفر الليلة »

قال « لا لا لا تسافر لاني مشتاق الى رؤيتك وقد مضى عليَّ بضع سنوات وانا افكر فيك واتذكر اياماً قضيناها في الكوفة معاً وقد كانت اياماً سعيدة ولو انها ممزوجة بالحرب والقتل »

قال حسن « لا ريب انها كانت سعيدة عليكم لانكم فزتم بالامر الذي قمتم لهُ وقتلتم قتلة الامام الحسين شر قتلة ... اظنك لا تنسى منظر عبد الله بن زياد وهو مضرج بدمهِ في ساحة الحرب »

---

(١) ترتيب الدول

قال « لا أنسى منظره ولا اقدر على نسيانهِ فاني اتذكره كلما شممت رائحة المسك لاني لما فرغنا من الواقعة وقالوا قُتل ابن زياد سرت لمشاهدته فما اقبلت على الجثة حتى شممت رائحة المسك قوية [1] لانهُ كان كثير التضمخ بالمسك ... ولكنني لم افرح بمقتل ابن زياد بمقدار فرحي بمقتل ذلك الابرص الذى قطع راس الحسين بيدهِ ... »

قال حسن « اظنك تعني شمر بن ذي الجوشن قبحهُ الله .. »

قال « هو اعني ... فقد رايت هذا الخبيث في معركة اخرى مقتولاً وعليهِ برده وقد عرفتهُ من بياض برصهِ [1] »

فقال حسن « انها لذكرى حسنة ولكننا لا نستطيع الخوض في هذا الموضوع ونحن على قارعة الطريق »

قال سليمان « دعنا نذهب معًا الى مكان نقضي فيهِ بقية هذا اليوم فاني احسبهُ من اسعد ايامي لانهُ يذكرني بايام النصر وان كنا الآن في .... » وقطع كلامهُ لئلا يسمعهُ احد

ثم نهض فابتاع حسن جعبة وضع النبال فيها وسار وقد شُغل بصديقهِ عن الافتكار بالقباء وهو لم يتعود حملهُ

الفصل الرابع عشر

المرافقة

وكان سليمان هذا صديقًا لحسن عرفهُ منذ الصبا . واقام سليمان مع ابيهِ في الكوفة في جملة دعاة الحسين . فلما قدم الحسين الكوفة في اهلهِ كان هو وابوهُ من جملة الذين تخلفوا عن نصرتهِ . فلما قتل الحسين في سهل كربلاء وقتل اهلهُ معهُ اصبح سليمان وابوهُ من التوابين الذي ندموا على تخلفهم عن نصرة الحسين . وقاموا بعد قتله للمطالبة بدمه ولما جاء المختار بن عبيد الثقفي الى الكوفة يدعو الناس الى بيعة عبد الله بن الزبير

(١) ابن الاثير ج ٤

وانضم التوابون اليهِ كان سليمان وابوهُ في جملتهم فقتلوا قتلة الحسين . ولما طمع المختار ابن ابي عبيدة (وليس ابن عبيد) بالامر لنفسهِ وارسل عبد الله بن الزبير أخاه مصعبًا لمحاربتهِ كان حسن مع مصعب . فلما غلب مصعب على المختار وقتلهُ تفرقت رجالهُ فانحاز بعضهم الى مصعب وفي جملتهم سليمان وابوهُ وقد ائتلف قلبا حسن وسليمان كثيرًا . وكان سليمان يعجب باخلاق حسن . فلما جاء عبد الملك بن مروان وحارب مصعبًا بالكوفة وقتلهُ تفرق رجالهُ فسار حسن مع عبد الملك كما تقدم وجاء سليمان وابوهُ الى المدينة فاقاما فيها

فلما تلاقى حسن وسليمان في المدينة على هذه الصورة لم يصدق سليمان انهُ لقي صديقهُ حسنًا فانعطف اليهِ واحب البقاء معهُ . فلما مشيا دعاهُ سليمان الى منزلهِ وقال لهُ ان ابي يسرُّ بلقياك فتذكر حسن ابا سليمان فقال « فانني ان اسالك عن ابيك كيف هو وما الذي يعملهُ الآن »

قال « انهُ في خدمة طارق بن عمرو عامل هذه المدينة من قبل عبد الملك ابن مروان »

قال « وهل هو بخدمتهِ عن رضىً »

قال « اراه راضيًا بخدمتهِ وكثيرًا ما اظهرتُ عدم رضائي بخدمة هؤلاء القوم الذين قتلوا حسينًا . وكنَّا في الامس نجرد السيوف عليهم ونطالبهم بدم المقتولين فكيف نخدمهم الآن .. ؟ ولكني رايتهُ راضيًا فسكتُّ عنهُ ... ولعل لهُ عذرًا »

وكانا يتكلمان وهما ماشيان حتى وصلا الى بيت سليمان ولم يكن ابوهُ في البيت فمكثا هناك وتناولا الغداء معًا وسرَّ كل منهما بلقاء صديقهِ . فلما كان العصر نهض حسن واعتذر باضطراره الى الذهاب لوداع ليلى الأخيلية في بيت سُكَيْنة بنت الحسين وفي باطن سرهِ انهُ ربما استطاع مشاهدة سمية عرضًا لان بينها بجانب بيت سُكَينة

فامسكهُ سليمان وتوسل اليهِ ان يؤجل سفرهُ الى الغد فاعتذر . فقال لهُ سليمان اذا لم يكن بدٌّ من سفرك فاني ارافقك في اوائل الطريق لانك اذا خرجت من المدينة عند الغروب لا تسير الليل كلهُ . فاذا رضيت برفقتي فاني اصاحبك الى العقيق فتمكث هناك ساعة اتملى بها من حديثك ثم نفترق »

قال « حسن كيف لا ارضى بذلك وفيهِ راحتي وحسن حظي »

قال « اذًا اين نلتقي ؟ »

قال حسن « نلتقي بباب المدينة المؤدي الى مكة ونخرج من هناك معًا »

قال « وهل تعرف الطريق الى الباب »

قال « نعم اعرفهُ فانهُ على مقربة من حانوت النبَّال الذي اشتريت هذه النبال منهُ اليوم »

ولما ذكر النبَّال تذكر القباء فبغت وقال « وقد نسيت عند القباء واخاف اذا اردت الذهاب اليهِ ان تفوت الفرصة لمشاهدة ليلى » فابتدره سليمان قائلاً « دع هذا اليَّ فانا امرٌ بالنبال وآخذ القباء منهُ واحفظهُ لك الى الملتقى »

فشكره حسن وودعهُ وخرجا فسار كلٌّ في طريقهِ

الفصل الخامس عشر

سميه ووالدها

لا يليق بنا التجاوز الى ما وراء هذا الحد ولا نبسط للقارىء حال سمية وقد دخل حبيبها بينها بعد غيابهِ بضع سنوات وخرج منهُ ولم يرها ولا خاطبها . كانت سمية جالسة بالباحة كما قدمنا ولا ندري لما قرع حسن الباب هل دق قلبها وهل حدثتها نفسها ان الطارق حبيبها — او هي تذمرت من ذلك القادم لانهُ كدر عليها مقامها في الخلاء فاضطرت عند سماع القرع ان تنزوي في اقرب الغرف ونفسها لا تزال عالقة بالاطلاع على من هو القارع لانها لم تجد في الدقة التي سمعتها ما يشبهُ دقات زوارهم في ذلك الجوار . وكثيرًا ما تدل الدقة على صاحبها ويعلم اهل البيت قدوم صديقهم من قرعهِ الباب . ثم ان ميل سمية الى استطلاع حقيقة القادم لم يكن عن تطفل او فضول وانما هو من نتائج التحجب — والانسان انما يتطلع الى ما يمنع من الاطلاع عليهِ . وكان عرفجة من اكثر الاباء تضييقًا على بناتهم في امر الحجاب على ان ذلك لم يكن يمنعها عن التطلع الى القادمين من شقوق النوافذ او ثقوب الابواب

واتفق في ذلك الصباح انهُ لم يكن في البيت احد من الرجال غير عرفجة وكان منشغلاً في حجرة خصوصية لهُ لا يدخلها احد غيرهُ وفيها محنَّة من خشب مقفلة لا يفتحها سواه . فاذا

دخل تلك الحجرة اقفل بابها ولا يدري اهل البيت ماذا يفعل هناك . فيقضي فيها ساعة او بعض الساعة ثم يخرج ويقفل الباب وراءه . وكثيرًا ما احبت سمية استطلاع امر تلك المحنّة ومشاهدة ما في داخلها فلم تتوفق الى ذلك . لان المحنة من خشب متين لا منافذ للبصر فيهِ . فلما قرع حسن الباب كان عرفجة منشغلاً هناك فابطأ في فتح الباب كما رأيت

فلما فتح الباب ودخل وهو يخاطب حسنًا ويرحب بهِ كانت سمية تنظر من ثقب في باب غرفتها يطل على حجرة والدها فوقع بصرها عليهِ وهو يخلع حذاءه بباب الحجرة وهي اول مرة رأته فيها بعد ذلك الغياب الطويل ولم تكد تتبينهُ حتى شعرت بهزة قوية وخفق قلبها خفوقًا شديدًا ولكنها ظنت نفسها مخطئة فتفرست فيهِ جيدًا فاذا هو حسن بعينهِ ورات اباها يخاطبهُ ويرحب بهِ وقد فهمت ذلك من اشاراتهِ وملامحهِ لانها لم تكن تفهم الكلام لبعد المسافة وخصوصًا بعد ان دخلا واغلقا الباب . ولكنها لم تحرم من جارية تتنصت من جانب تلك الغرفة وتعود اليها بما سمعتهُ . والجواري اكثر الناس رغبة في نقل الاحاديث وخصوصًا اذا كانت من هذا القبيل . فكانت تلك الجارية تتظاهر بخروجها لغرض تريده من البستان او الباحة فتقف هناك بحيث تسمع ما يدور وربما سمعت بعضهُ فتكمل الحديث من عندها وتعود الى سمية بهِ . فاطلعت سمية بذلك على ما دار بينهما حرفيًا . فساءها إباء والدها عن ان يريهُ اياها ولو من وراء حجاب ولكنها سرت انها رأتهُ واطمأن بالها انهُ لا يزال على حبها . ولما اخبرتها الجارية انهُ جاء يطلبها من ابيها زاد اضطرابها واصطكت ركبتاها ولم تعد تستطيع الوقوف فثنت وسادة كانت بجانبها وجلست عليها وعينها على شق الباب . على انها ما زالت ترجو ان يعود حسن الى طلب رؤيتها فياذن لهُ والدها لكنها ما لبثت ان علمت انهُ غير الحديث وعول على الخروج من المدينة في تلك الليلة وعرفجة حبب اليهِ الاسراع في ذلك واعطاه القباء . واستغربت الحاحهُ عليهِ باخذ القباء وهي تعلم بخلهُ على ان ذلك اكد لها رضاءه عن تلك الخطبة فانبسطت نفسها وتعللت بقرب اللقاء بعد الرجوع من مكة

فلما خرج حسن وتبعهُ عرفجة لوداعهِ طارت عيناها شعاعًا الى حسن ولكنهُ ما لبث ان غاب عن مرسل بصرها من ذلك الثقب . فلما رأت والدها راجعًا خرجت من الغرفة لملاقاتهِ وقد توردت وجنتاها من عظم التأثر وبانت دلائل الحب في وجهها . فلما رآها عرفجة في تلك الحال انقبضت نفسهُ وتظاهر انهُ في شاغل عن الحديث معها

اما هي فلم تكن تصبر عن استطلاع افكاره ولكنها امسكت عن الكلام تهيباً لانها كانت تخافهُ كثيرًا وتخشى غضبهُ وقد قاست منهُ الامور الصعاب على انها كانت تحسن الظن بهِ . فتحولت الى حجرتها وهي منقبضة النفس ودخل عرفجة حجرة اخرى وقد لحظ ما في نفس ابنتهِ ولم يفتهُ اطلاعها على ما دار بينهُ و بين حسن . فبعث اليها فجاءت وليس في المكان سواهما . فوقفت وقلبها يخفق وهي لا تستطيع التطلع الى ابيها ولا تدري ما يريد منها . فاشار اليها فجلست على وسادة بالقرب منهُ وهي تتشاغل باطراف جدائلها المرسلة . وكانت تضفر شعرها عادة في طرق اشتهرت في المدينة يومئذ بالطرق السكينية نسبة الى سكينة بنت الحسين لانها اول من ضفرها على تلك الصورة (١)

لبثت سمية برهة وهي تتشاغل بذلك ووالدها ينظر اليها و يتامل عواطفها فلم يزدد الاَّ وثوقًا بتعلقها بذلك الشاب وهو لا يحب ان يتقرب منهُ بوجه من الوجوه ولكنهُ لم يذكر ذلك لسمية صريحًا . على انهُ كثيرًا ما حاول ان يزوجها بسواه فلم تقبل . وكان لما طال غياب حسن عن المدينة ظنهُ مات او قتل او انهُ عدل عنها وانشغل بغيرها . فلما رآه في ذلك الصباح وتحقق انهُ ما زال حياً بغت واستعاذ بالله ولكنهُ عمد الى الخبث والرياء فتغلب على عواطفهِ و بش لهُ واستدناه منهُ واظهر لهُ ما اظهره من اللطف والانس على امل ان يفتك بهِ غيلة . فلما رأى سمية في ذلك الاضطراب قال لها « اراك يا سمية مضطربة ... ما الذي دعاك الى هذا الاضطراب »

قالت وهي لا تزال مطرقة وقد صعد الدم الى وجهها فزاد احمرارهُ « واي اضطراب تعني »

قال « اعني ما يبدو في وجهك من الاحمرار على اثر الاصفرار وكاني اسمع دقات قلبك ... فما هذا ؟ » قال ذلك بنغمة واطئة رفقًا بها واحتيالاً في استطلاع سرها وقد كان يحب رضاءها ولكنهُ لا يريد ان تعمل عملاً تستقل بهِ عنهُ . وكان اهل المدينة يتحدثون بجمال سمية واطفها وكان والدها يريد ان يتجر بذلك الجمال فيزوجها بعامل او امير فيكتسب بزواجها منصبًا او مالاً . وكانت لهُ مطامع اخرى كثيرة ترجع كلها الى الطمع وحب الاثرة مع خبث الطوية . وحبُّ الاثرة مع سلامة الطوية قلما يضر بالناس اذ ليس في البشر من لا يحب ذاتهُ ويفضلها على سائر الناس . فاذا صحب الاثرة سلامة القلب وطيب العنصر لم يكن منها ضرر . اما اذا صحبها خبث النية وسوء

(١) القاموس

الخلق فانها تكون وبالاً على الناس لان محبها لا يبالي بما قد يضحي من الانفس او الاعراض في سبيل نيل اغراضه . وكان عرفجة ذا مطامع كبيرة جدًّا وكان ذلك شأن كثيرين في ذلك العهد على اثر تزعزع اركان الخلافة وانقسام الناس وكثرة الدعاة وتعدد الدعوات . فكان هذا يدعو الى بيعة عبد الملك وذاك الى بيعة محمد بن الحنفية وذلك الى بيعة عبد الله بن الزبير فضلاً عن دعاة آخرين في البلاد الأُخرى . فاصبح الامر فوضى وربما خطر لعرفجة ان يدعو الى احد هؤلاء او غيرهم ولو اتيح له ان يدعو الناس الى نفسه لفعل ولكنه لم يكن يطمع بذلك وهو من ثقيف وكانوا محتقرين بجانب القرشيين . وكان الحجاج والمختار بن ابي عبيدة ثقفيين ايضًا فلما أراد المختار ان يستأثر بالملك تظاهر بالدعوة الى محمد بن الحنفية كما قدمنا

الفصل السادس عشر

الاستبداد

اما سمية فلما سمعت سؤال والدها ولم ترفيه نغمة الجفاء اجابت وهي تكاد تذوب خجلاً «انساني يا سيدي وانت اعلم الناس بسبب ذلك»

فضحك وهو يغتصب الضحك اغتصابًا «اظنك تحبين هذا الشاب ... »

قالت «لا اقول اني احبه ولكنني اعلم فضله علينا لانه انقذنا من الموت وقد اشترط شرطًا وعدناه به افلا نقوم بالوعد .. ؟»

وكانت تقول ذلك بلهجة المنتصر وهي تنظر في وجه والدها لانها اغفلت امر الحب وطالبته بحق شرعي عليه وكانت تتوقع ان يكون جوابه الاذعان الصريح . ولكنها رأته ابتسم ابتسام الاستخفاف ثم هز راسه وجعل يده عند اسفل لحيته يلاعب اطراف شعرها بانامله وهو يقول «ما شاء الله ! ... واي فضل تعنين يا سمية .. ؟»

قالت «الم ينقذنا هذا الرجل من القتل ونحن في الكوفة الم أُخرج اليه محلولة الشعر واطلب نجاتك فاسرع هو في انقاذك ... ؟ ولا أراك تنكر ذلك عليه الى الآن» قالت ذلك وهي تنظر الى وجهه بطرف عينها وتتوقع اذعانه فاذا هو قد تغيرت سحنته وبان الشرُّ في عينيه وكان بيده مفتاح الحجرة فرمى به الى الارض من شدة

الغيظ وقال « لا اقدر على سماع هذا الكلام ... ان الذي يدعي علينا مثل هذا الفضل يجب ان يموت »

فلما سمعت سمية ذكر الموت اقشعر بدنها وامتقع لونها ونظرت الى والدها والدموع ملء عينيها كانها تستعطفهُ بالحنو الوالدي وهي لا تصدق انهُ يعني ما يقول . ولكنها ما لبثت ان رأتهُ نهض وجعل يمشي في ارض الحجرة ولحيتهُ ترقص امام عنقهِ وعيناه محمرتان وانامله ترتجف . فتهيبت واطرقت ودموعها تتساقط على ثيابها وهي هادئة لا تحرك ساكنًا ولسان حالها يقول « ويلك ياظالم »

اما هو فبعد ان تمشى هنيهة عاد فوقف امامها وقال لها « لو كنت تحبين والدك ما رضيت ان يكون لمثل هذا الغلام فضل عليهِ . كيف نعيش ولهذا الغلام منة علينا ... ؟ وتتولين ذلك جهارًا . ؟ لا شك انك تحبينهُ اكثر مما تحبينني »

فقالت والبكاء يخنق صوتها « كيف تقول ذلك يا ابتاه وانت تعلم قلبي وتعلم اني لا أحب احدًا سواك . واما هذا الشاب فان لهُ علينا فضلاً لا ينكر — هل نسيت الخطر الذي كنا فيهِ وكيف انقذنا وعني بايصالنا الى هذا المكان .. ؟ وانت الذي وعدتهُ بي ... فاذا كنت انا احبهُ فانما تكون انت دعوتني الى ذلك و ... »

فقطع عرفجة كلامها وقال « أالى هذا الحد بلغت وقاحتك حتى تقولي لي انك تحبينهُ وتعيدي ذكر فضلهِ ... وذكر هذا الفضل وحده يدعوني الى قتلهِ ... »

فاقشعر بدن سمية واضطربت جوارحها فجثت عند قدمي عرفجة والدمع يتساقط من خديها و يمتزج بالعرق المنصب من جبينها وقالت « وارحمتاه يا سيدي .. بالله لا تذكر القتل ... دعهُ لا تقتلهُ ولا غرض لي بهِ .. فانا لا أخرج عن طاعتك في امر من الامور .. لا تذكر القتل لانهُ يقطع قلبي ... افعل بي ما تشاء اني طوع لك ... اشفق على دموعي وارحمني ... »

فلما سمع تذللها ظنها ارعوت عن محبتهِ فامسكها وانهضها ومسح دموعها بيديهِ وقال لها « خففي عنك يا بنية وكوني حكيمة عاقلة وانبذي امر هذا الغلام من ذهنك وارجعي الى رأيي واعلمي اني لا أفعل الاَّ ما يعود الى سعادتك و راحتك »

قال ذلك واجلسها على الوسادة وجلس هو الى جانبها فاتكأت على صدره فخفق انها اذعنت لامره واستسلمت لهُ فلم يعد الى ذكر حسن . ولكنهُ اغتنم هذه الفرصة وقال لها « يظهر انك كنت في جهالة عمياء .. والحمد لله انك فهمت ما انويهِ لك ... كيف

تعيشين مع رجل تعلمين انهُ ذو فضل على ابيك .. اليس ذلك منتهى الذل والضعف ... ؟ كيف اقدر على حفظ منزلتي بين الناس وفي الدنيا رجلٌ يقول انهُ انقذني من الموت ... ولهُ عليَّ فضل ؟ ... »

فظلت سمية صامتة مخافة ان يعود والدها الى ذكر القتل أو نحوهِ ولكنها استغربت اعظامهُ الاقرار بالفضل لاهلهِ . وقد فاتها ان من الناس من يتعمدون الايقاع بالمحسنين اليهم لان مجرد تصورهم فضلهم يهيج حسدهم حتى يقودهم الى الفتك بهم ليتخلصوا من ذكر تلك المنة . وامثال هؤلاء قليلون والحمد لله — وكان عرفجة واحداً منهم ولم يحملهُ على قتل حسن الا سابق فضلهِ عليهِ — وتلك غاية الدناءة والخسة

ولم تر سمية خيراً من السكوت على ماسمعتهُ و رأتهُ ولكن ذلك لم يغير شيئاً من عواطفها بل هي زادت تعلقاً بحسن وتعلق ذهنها بحياتهِ خوفاً عليهِ من والدها فعولت على السعي في تحذيرهِ . كانت تفكر في ذلك وهي متكئة على صدر والدها وقد بللت قميصهُ بدموعها فانهضها وقبلها وقال لها « قومي يا سمية الى شانك وارجعي الى رشدك فاني سازوجك باعظم رجل يتحدث بهِ المسلمون الآن لتعلمي اني انما اسأتك باقوالي لاحسن اليك بافعالي »

الفصل السابع عشر

المناجاة

فنهضت ومشت وهي صامتة تمسح عينيها بكمها حتى انت حجرتها فدخلت واقفلت الباب واوصدتهُ واستلقت على فراشها وقد تمثل لها عظم الارتباك المحيط بها والخطر الذي يتهدد خطيبها فاظلمت الدنيا في عينيها فاستغرقت في البكاء واطلقت لدمعها العنان ثم استرجعت وفكرت في امرها ومركزها بالنظر الى رأي والدها وما تعرضت لهُ من الامر العظيم بسبب حبها لحسن فجعلت تناجي نفسها قائلة « كيف تعلقتُ بهذا الرجل الغريب وفي تعلقي بهِ خطر على حياتي وحياتهِ .. ؟ اليس هذا والدي الذي ربياني وكفلني ولا يريد لي الا الخير والسعادة .. كيف اعصاه واطيع هواي ..... أليس من التعقل ان انصاع لوالدي ؟ ... نعم ... لا .. لا .. لا ... حسن حبيبي ... ولكن ماذا يربطني بهِ .. ؟

الحب ... ما معنى الحب ؟... ان هذا الحب سبب عذابي وعذاب والدي وعذاب حبيبي ... لا ... الحب عذابه عذب .... آه ما احلى الحب وما اشرف عواطف المحبين .. كيف يعيش الناس بدون الحب و ما الفائدة من الحياة بلا محبة ؟ ... اني لا ارى في العيش لذة الا لما افتكر بحسن .. حسن .. حسن .. آه ما الطف هذا الاسم ... ولكن كثيرًا ما كنت اسمعهُ قبل ان اعرف الحب فلا التذُّ بلفظهِ كما التذ الآن . فانا انما اتلذذ بالحب ... آه ما احلاه وما احلى لفظهِ بفمي وذكرهُ بفكري وما احلى صورتهُ في عينيَّ .... » ثم مسحت دموعها ولبثت هادئة برهة وهي تفكر في والدها وقالت « ولكن والدي ربائي بعد وفاة امي وحده ولم يتزوج من اجلي وهو يحبني و يريد سعادتي فكيف اغضبهُ ... ؟ »

ثم قالت « ولكن والدي خرج في معاملتهِ عن حقوق الوالدية .. انكر لهذا الرجل فضلاً كبيرًا له علينا ... بل اراد قتلهُ من اجل ذلك الفضل .... اراد قتلهُ ... قتل حسن حبيبي ..؟ ان والدي ظالم والظالم لا يحبهُ الله فكيف احبهُ انا .. وحسن شهم استهلك في سبيل نجاتنا و يكفي انهُ يحبني واحبهُ حباً عذرياً نقياً لا عيب فيهِ .... يا الهي ما هذا الحب ..؟ اذا كنت ترى اني اخطىء في ما اقول فانزع حب هذا الشاب من قلبي .... لا ... لا تنزعهُ ... او انزعهُ يا الهي ... او كما تشاء .... آه لا ارى هذا كلهُ الاَّ مما يزيدني تعلقاً وهياماً .... الله هو الذي أراد ان نحب احدنا الآخر والحب الذي يكون خالياً من الدنس وغايتهُ شريفة انما هو من عند الله .... »

قضت سبعة ساعات في مثل هذه الهواجس . ثم تذكرت ما سمعتهُ من تهديد والدها فخافت ان يتمكن من حسن وهو غافل . فرأت من واجباتها بان توصيهُ ان يكون من والدها على حذر حتى يقضي الله امرًا كان مفعولاً

وحدثتها نفسها ان تفرَّ معهُ الى مكة ولكن تعقلها وادبها زجراها عن الافكار في ذلك . على انها اصبحت بعد ما لاقت في سبيل حبهِ لا تصبر عن رؤيتهِ لتشكو لهُ ما في قلبها و يتعاهدا على الاتحاد والصبر . فتذكرت عزمهُ على الخروج من المدينة في تلك الليلة وعلمت انهُ خارج حوالى الغروب من الباب المؤدي الى مكة فعولت على اغتنام الفرصة بانشغال والدها او غيابهِ فتخرج نحو الغروب وتقف لهُ في الطريق وتخاطبهُ

اما عرفجة فقد كان بينهُ وبين طارق بن عمرو عامل المدينة يومئذ صداقةٌ ودسائس وكان طارق يكرم عرفجة لانهُ ثقفي من قبيلة الحجاج وكان الحجاج قد اوصاه بهِ خيرًا ليس لانهُ ثقفي فقط ولكن الحجاج كان قد عرف سمية وطلب الاقتران بها فوعده عرفجة بذلك ولكنهُ استمهلهُ ريثما يسترضيها ولم يشأ الحجاج ان يحملها ابوها على ذلك بالكره مخافة ان تشكوه الى الخليفة عبدالملك بن مروان فيامره بالتخلي عنها كما اتفق لهُ مع عبد الله بن جعفر لما خطب الحجاج ابنتهُ ام كلثوم على مال كثير ثم امره عبد الملك بن مروان بطلاقها . وجلية الخبر : ان الحجاج خطب الى عبد الله بن جعفر ابنتهُ ام كلثوم على الفي الف في السر وخمسمائة الف في العلانية فاجابهُ الى ذلك وحملها اليهِ فاقامت عندهُ ثمانية أشهر ثم خرج عبد الله بن جعفر الى عبد الملك بن مروان وافدًا ونزل بدمشق فاتاه الوليد بن عبدالملك (ابن الخليفة) على بغلة ومعهُ الناس فاستقبلهُ ابن جعفر بالترحيب فقال لهُ الوليد « لكنك أنت لا مرحبًا بك ولا أهلاً » قال عبدالله « مهلاً يا ابن أخي فلست أهلاً لهذه المقالة منك » قال « بلى والله وبشرٍ منها » قال « وفيم ذلك » قال « لانك عمدت الى عقيلة نساء العرب وسيدة نساء بني عبد مناف فعرضتها على عبد ثقيف يتفخذها » قال « وفي هذا عتبت عليَّ يا ابن أخي ؟ » قال « نعم » فقال عبد الله « والله ما أحق الناس ان لا يلومني في هذا الاَّ انت وابوك لان من كان قبلكم من الولاة يصلون رحمي ويعرفون حقي وانك وابالك منعتماني وفدكا حتى ركبني الدين . أما والله لو ان عبدًا حبشيًا مجدعًا أعطاني بها ما اعطاني عبد ثقيف لزوجتها منهُ انما فديت بها رقبتي » فما راجعهُ الوليد كلمة حتى عطف عنانهُ ومضى حتى دخل على عبد الملك فقال لهُ عبد الملك « مالك يا أبا العباس » قال « انك سلطت عبد ثقيف وملكتهُ حتى تفخذ نساء بني عبد مناف » وقص عليهِ الخبر . فادركت عبدالملك غيرة فكتب الى الحجاج يقسم عليهِ ان لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل [1] . فخاف اذا فعل مثل ذلك بسمية ان تشكوه الى عبد الملك بواسطة سكينة لعلمهِ انها تحب سمية ولها منزلة وكرامة عند عبد الملك

(١) المستطرف ج ٢

الفصل الثامن عشر

الرسول الى سمية

واما حسن فانهُ ودع رفيقهُ وسار ماشياً وخادمهُ يقود ناقتهُ وراءه . وتوجه نحو بيت سكينة وقبل ان يصل اشرف على بيت عرفجة واول ما وقع بصره على نخيلهِ اختلج قلبهُ في صدره ووقف كأن شيئاً استوقفهُ بالرغم عنهُ وتصورانهُ شاخص الى مكة وهي محصورة فلا يدري متى يعود منها ولا ما يمكن حدوثهُ في غيابهِ . وكيف يسافر وهو لم يرسمية . ثم تمثلت لهُ سمية كما رآها في صباح ذلك اليوم قاعدة الى جذع النخلة حاسرة رأسها ولم ير غير جانب وجهها . فلما تصور ذلك زاد هيامهُ واضطربت جوارحهُ وظل برهة كأنهُ فاقدٌ رشده لعظم ما اكتنفهُ من الهواجس . ولم ينتبه لنفسهِ حتى خاطبهُ خادمهُ . وهو رجل من ثقيف اسمهُ عبد الله واصلهُ من الطائف وكان في جملة خدم المختار بن ابي عبيدة اثناء حربهِ في العراق فلما قتل المختار سار في جملة الاسرى الى الشام ثم دخل في خدمة حسن عند ما سمع بعزمهِ على المدينة رغبة منهُ في الاقتراب من اهلهِ في الطائف . وكان عبدالله يعرف عرفجة لانهُ من قبيلتهِ ولم يكن يحترمهُ ولا يثق باقوالهِ ولكنهُ لم يكن يعلم بما بين حسن وسمية . فلما رأى سيدهُ واقفاً مبهوتاً استغرب ذلك منهُ فخاطبهُ قائلاً « ما بال مولاي ؟ هل يفكر في امر نسيهُ فاقضيه لهُ »

فانتبه حسن لنفسهِ واستحيى من خادمهِ ولكنهُ تذكر للحال ما بين هذا الخادم وعرفجة من رابطة القبيلة فلاح لهُ ان يستخدمهُ في ذلك لعلهُ يأتي بفائدة فقال لهُ « أتعرف عرفجة يا . . . »

فاجاب عبدالله وهو لم يصبر الى تمام السؤال وقال « كيف لا أعرفهُ وهو والد سمية »

فلما طرق ذلك الاسم اذن حسن خفق قلبهُ ولو انتبه عبد الله لوجه سيدهِ لرأى الاضطراب ظاهراً في محياه ولكنهُ لم يكن يتفرس في وجههِ لفرط احترامهِ لهُ . اما حسن فقال « وهل تعرف سمية ؟ . . وكيف عرفتها . ؟ »

فضحك عبد الله وقال « كيف لا اعرفها وهي من قبيلتي »

قال « وهب انها من قبيلتك فهل تعرف كل بنات قبيلتك ؟ »

قال « كلاً ولكن سمية مشهورة بجمالها وتعقلها ولطفها وقد اتفق لي اني رأيتها غير مرة يوم كنا في العراق »

فسرّ حسن بهذه الصدفة واراد ان يستخدم عبد الله في البحث عن سمية او مخابرتها فقال « إذًا اسمع يا عبد الله .. اريد منك ان تسير الى سمية في مهمة هل تذهب ؟ »

قال « كيف تامرني ولا اطيع .. »

قال « ولكن يجب ان تفهم الغرض من تلك المهمة بدون ان اقول شيئًا عنها »

فتبسم عبد الله واطرق خجلاً وقال « لا احتاج الى زيادة ايضاح فان سمية مولاتي وانت مولاي ... »

فاعجب حسن بلطف تعبيره وقال له « بورك فيك يا عبد الله فاعلم اني قدمت في هذا الصباح الى عرفجة وقضيت معه ساعة ولم اتمكن من مشاهدة سمية لانها كانت منشغلة ونحن الآن سائرون الى مكة ولا ندري متى نعود . فهل اخرج من المدينة قبل ان أراها ؟ .. »

قال « كلاً بل يجب ان تراها وتخاطبها .. هل اسأ لها موعدًا للقاء ؟ »

قال « لا تستعجل يا عبد الله ... فاني اخاف ان يغضب والدها اذا اطلع على ذلك لاني سمعت بصرامته في تحجبها فلا يليق بي ان أراها خلسة عنه وخصوصًا بعد ان خطبتها منه »

فارسل عبد الله بصره الى بيت عرفجة وقال « اذًا هي خطيبتك ... ولكن لا باس من رؤيتها اذا لم يعلم والدها .. اتاذن لي بالدخول الى هذا البيت والاستفهام عن عرفجة فاحتال بايصال موعدك اليها ؟ .. أين تقابلان ؟ »

فاستعظم حسن الاقدام على هذا الامر ولكن رغبته في رؤية سمية هوّنت عليه ذلك فقال « اني ذاهب الى منزل سكينة وانا أعلم ان سمية كثيرة التردد اليه وسكينة تحبها وتعتبرها فاذا قلت لها ان توافيني الى هناك الآن يكفي »

قال « سمعًا وطاعة » وتحوّل والجمل معه وهو يقول « ساحمل اليك الجواب في منزل سكينة ان شاء الله »

الفصل التاسع عشر

اشعب الطماع

اما حسن فمشى حتى وصل منزل سكينة بنت الحسين فرأى بجانب الباب زريبة تربط فيها دوابها ودواب من يقدم اليها من الوفود لان منزلها كان مقصداً للشعراء والادباء واهل الوجاهة من قريش وغيرهم [1] وكان حسن قد سمع جعجعة الجمال وجلبة الخدم قبل وصولو الى الدار. فلما وصل رأى كثيراً من الدواب واكثرها للاضياف ورأى بينها جمل ليلى الاخيلية

فلما انتهى الى باب الدار او هو باب البستان دخل ولم يستأذن لان الناس يدخلون منهُ الى دار الاضياف ويخرجون بلا استئذان. ومشى في باحة كبيرة اشبه ببستان كبير رأى في بعض جوانبهِ غرفاً عديدة في صف واحد عرف انها دار الاضياف ورأى في صدر البستان بيتاً متقن البناء على بابهِ الخدم عرف انهُ مسكن سكينة. فنحول الى دار الاضياف لعلهُ يرى ليلى هناك فيقيم معها ريثما تاتي سمية فتكون لهُ وسيلة في مقابلتها. فوصل دار الاضياف فوجد الخدم منشغلين في اعداد الاطعمة من الذبائح ونحوها. وقد سرهُ انشغالهم عنهُ لكي يتمكن من البحث عن ليلى. فطاف الغرف غرفة غرفة فلم يجد احداً يعرفهُ فظل ماشياً وهو يسمع ضجة من جهة مسكن سكينة بعضها من الخدم في الخارج والبعض الآخر من الداخل. وكان يتخلل الضجة قهقهة وقوقأة مثل قوقأة الدجاج. فمشى الى مكان الضحك فاذا هو في غرفة بجانب باب المسكن وببابها بضعة رجال لم يعرفهم فدنا منهم والقى التحية فردوا السلام وابصارهم شاخصة الى داخل الغرفة فأطلّ حسن من فوق اكتافهم فرأى هناك رجلاً قصيراً دميماً قليل اللحم أزرق اللون أحول البصر اقرع الراس ائط اللحية [1] وقد جلس القرفصاء على اكمة من التبن الممزوج بالزبل [2] كأنهُ بحضن بيضاً وهو يتوقى كما تتوقى الدجاجة فاستغرب حسن ذلك ونظر الى احد الوقوف نظرة الاستفهام فاستغرب الرجل نظرتهُ وقال لهُ «الا تعرف هذا الرجل؟»

قال «لا ... ومن هو؟»

---

(١) الاغاني ج ١٨ (٢) الاغاني ج ١٤

قال « هو اشعب الطماع الذي اتخذتهُ سكينة بنت الحسين نديمًا يمازحها »

قال حسن « اسمع اسمهُ واعرف بعض اخباره المضحكة ولكن منظره اضحك من اخباره ... ما الذي اقعده هذا المقعد وهو يقوى كأنهُ يحضن بيضًا ؟ »

قال الرجل « بل هو يحضن بيضًا حقيقة عقابًا لهُ على ذنب ارتكبهُ بين يدي سكينة مولاتهِ فامرتهُ ان يقعد على هذا البيض حتى ينقس [1] وقد مضى عليهِ ايام وهو على هذه الحال .. »

فضحك حسن وانشغل بذاك المنظر عن قلقهِ في انتظار خادمهِ واراد ان يشغل نفسهُ هنيهة اخرى فقال « يا اشعب ما الذي اجلسك هذا المجلس »

قال « اجيبني اياه موباتي سكينة فهيْ فيكم من يخيجني من هذا الحبس » اي « اجلستني اياه مولاتي سكينة فهل فيكم من يخرجني من هذا الحبس » لان اشعب كان في لسانهِ لثغة [2] تتميماً لجمالهِ ! !

فقال حسن « ومن ترى يقدر على التوسط لك في هذا الامر »

قال « كأني رأيت ليلى الاخيلية داخلة دار مولاتي اليوم فاذا كانت هي هنا فلا ارى أقدر منها على التوسط باخراجي من هذا المكان لان سكينة تحب الشعراء وخصوصًا بنات جنسها »

قال حسن « هان الامر فلك عليَّ ان اوسط ليلى في العفو عنك »

الفصل العشرون

مجلس سُكَينة

ولم يتم حسن كلامهُ حتى سمع صوتًا ينادبهِ فالتفت فرأى خادمهُ عبد الله واقفًا على بضع خطوات منهُ فقال حسن « ما وراءك »

فدنا عبد الله منهُ وقال « دخلت البيت وسألت عن عرفجة فقيل لي انهُ خرج في الصباح ولم يعد بعد ولا يعرف احد مقرهُ »

فابتدره حسن قائلاً « وسمية ؟ »

(١) الاغاني ج ١٦ ٢ الاغاني ج ١٧

فقال « وسألت عن سمية فقالوا لي انها ذهبت الى سكينة من برهة قصيرة فسررت بذلك واتيت لاخبرك فهل رأيتها هنا ؟ »

قال « لا لم أرَها ولعلها في البيت مع النساء وكيف اصل اليها ... بورك فيك يا عبد الله فامكث انت بالباب مع الخدم والجمل معك حتى اخرج او احتاج اليك في شيء »

قال « سمعاً وطاعة » وخرج

وعاد حسن وقد شغل عن اشعب ونجاتو بالبحث عن سمية ولما تصور انهُ سيتمكن من مقابلتها خفق قلبهُ . فلم يرَ وسيلة الى ذلك الاَّ ليلى فجاء باب القاعة التي تستقبل سكينة فيها ضيوفها فرأى عليه رجلاً واقفاً وقوف الحاجب فقال لهُ حسن « هل في مجلس بنت الحسين احدٌ ؟ »

قال الرجل « ان مجلسها غاصٌ بالناس وفيهم جماعة من الشعراء والشاعرات »

قال « وهل فيهم ليلى الاخيلية »

قال « نعم »

قال « قل لليلى ان حسناً بالباب يدعوك اليهِ »

فدخل الرجل ثم عاد وليلى معهُ فلما رأت حسناً رحبت بهِ فمشى بها الى خلوة وقال لها « اني مسافر الليلة وقد جئت لوداعك »

قالت « رافقتك السلامة ووفقك الله في مهمتك »

قال « ولكني اعرض عليكِ امرًا ارجو مساعدتك فيهِ الآن وهو لا يتعبك »

قالت « وما هو ؟ »

قال « أتعرفين سمية بنت عرفجة »

قالت « نعم اعرفها وقد رأيتها من برهة وجيزة جالسة بجانب سكينة تخاطبها وسكينة تلاطفها لانها تحبها كثيرًا . وانت ما شانك معها ؟ »

قال « شاني معها شأن الخطيب وخطيبتهِ فهل هي لا تزال هناك ؟ »

قالت « لقد سرني انك خطبتها فانها زينة بنات المدينة . واما الآن فاظنها باقية لاني لم أرها خرجت . وعلى كل حال تعال معي فندخل القاعة فتمكث انت مع الجلوس من الرجال وادخل انا الى مجلس النساء وراء الستارة حيث تقيم سكينة وصاحباتها فابحث عن سمية ... »

فقطع كلامها وقال « فانقدم اليك ان تجمعيني بها ساعة لا يرانا فيها احد سواك لاني خطبتها منذ ثلاثة اعوام وجئت المدينة بالامس وها اني خارج الآن ولم اشاهدها او اخاطبها »

قالت « لك عليّ ذلك »

قال « ولكن فليكن عاجلاً لان الغروب قد دنا وانا مسافر عند الغروب »

قالت « ألا تؤجل سفرك الى الغد ؟ »

قال « كنت اود ذلك ولكنني وعدت صديقًا لي ان نسير معًا وسيوافيني نحو الغروب الى باب المدينة . فاصنعي معروفًا وعجلي .. ثم اني اوصيك باشعب الطماع فانهُ يحضن بيضًا هنا عقابًا لهُ على ذنب ارتكبهُ وقد وعدتهُ اني اخاطبك بالتوسط لهُ لدى مولاتهِ سكينة فلا تنسيهِ »

فضحكت وقالت « قبحهُ الله ما اكثر مجونهِ ولكنهُ وافق سكينة لانها تحب المازحة وقد احكت لي عن سبب حبسهِ هذه المرة وانها تعودت على معاقبتهِ مثل ذلك العقاب من قبل فانهُ حضن بيضًا مرة حتى فقس وخرجت فراريجهُ فملأت الدار وسكينة تسميهن بنات اشعب . . . [1] اني ذاهبة وساكلمها بشانهِ .. ولكن تعال معي واجلس مع الجالسين فاذا لفيتُ سمية اومأتُ اليك فتخرج »

الفصل الحادي والعشرون

مجلس الشعراء

فدخلت ودخل هو في اثرها بعد ان خلع نعليهِ بالباب ووضعها في ناحية يعرفها . ثم أطل على القاعة فاذا هي واسعة وقد فرشت أرضها بالطنافس الثمينة وحولها الوسائد المزركشة وفي صدرها ستارة عليها صور اشجار وطيور ملونة جلست خلفها سكينة ونساؤها بحيث ترى ضيوفها ولا يرونها

(١) الاغاني ج ١٤

ورأى في القاعة جماعة قد تصدر منهم خمسة عليهم لباس البدو جلسوا في صدر القاعة فقال حسن « ومن هؤلاء المتصدرون ؟ »

قالت ليلى « هم الشعراء ... الا تعرف احداً منهم ؟ »

قال « اظنني اعرف احدهم الجالس على الوسادة المثنية فقد عرفته من ضخامة بدنه وعبوسة وجهه وغلظه [1] أليس هو الفرزدق ؟ »

قالت « بلى هو بعينه .. الا تعجب من اجتماعه هو وجرير في مجلس واحد مع ما اشتهر بينهما من المهاجاة ؟ »

قال « وايهم جرير ؟ »

قالت « هو ذاك الذي قد كفّ شعره وادّهن ومتى تكلم سمعت لكلامه غنة يخرج بها الكلام من انفه كان فيه نونا » [2]

قال « ومن هو ذلك الرجل القصير الدميم العظيم الهامة مع احمراره » [3]

قالت « هو كثير عزة العاشق المشهور »

قال « اعاذ الله عزة من منظره فانه قبيح .. ومن هو ذاك الشاب الجميل الطويل بين المنكبين الحسن البزة [4] .. وكأنه جالس الفرفصاء ؟ »

فالت « ذلك هو جميل بثينة أحد عشاق بني عذرة .. الا تراه حزينا ؟ فانه علق بحب بثينة ولما اشتهر حبه لها منعه أهلها منها .. »

قال « ومن هو ذلك الاسود ؟ .. اني لاستغرب منظره ويندر الشعر في السود فمن هو ؟ »

فضحكت وقالت « هو نصيب [5] الشاعر المحل . واما سواده فمن امه لانها أمة واما ابوه فمن قضاعة ..... فها قد عرفت الشعراء وستسمع حديثهم وحديث سكينة معهم . اجلس على تلك الوسادة والتفت الى هذه الناحة كل برهة لعلي ابعث من يشير اليك بالخروج .. »

فدخل وهو يخاف فوات الوقت ولكنه لم يرحيلة فجلس في جملة الجالسين . ولم يكد يستقر به المقام حتى سمع لغطاً من وراء الستارة فاستبشر بكلام دار بين ليلى وسكينة او بينها وبين سمية . ثم رأى جارية وضيئة خرجت وقالت « ايكم الفرزدق »

---

(١) الاغاني ج ١٩ (٢) الاغاني ج ٧ (٣) الاغاني ج ١١ (٤) الاغاني (٥) الاغاني ج ١

وكان حسن يتوقع ان تناديه فلما سمعها تنادي الفرزدق التفت اليه فرآه يقول « ها انا ذا »

قالت « انت القائل

هما دلتاني من ثمانين قامة كما انحط باز أقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاي بالارض قالتا أحيٌّ فيرجى أم قتيل نحاذره
فقلت ارفعوا الامراس لا يشعروا بنا وافلتُّ في اعجاز ليل ابادره »

قال « نعم » . قالت « فما دعاك الى افشاء السر ؟ خذ هذه الالف دينار والحق باهلك » فاخذها وانصرف . ثم دخلت الجارية على مولاتها وخرجت فقالت « أيكم جرير » قال جرير « ها انا ذا » فقالت « انت القائل

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعي بسلام
تجري السواك على أغر كأنه برد تحدر من متون غمام
لو كان عهدك كالذي حدثتنا لوصلت ذاك وكان غير ذمام
اني أواصل من اردت وصاله بجمال لا صلف ولا لوام »

قال « نعم » قالت « او لا اخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ انت عفيف وفيك ضعف خذ هذه الالف والحق باهلك » فاخذها وانصرف ثم دخلت على مولاتها وخرجت وقالت « ايكم كثير » قال كثير « انا » قالت « انت القائل

واعجبني ياعز منك خلائق كرام اذا عد الخلائق أربع
دنوُّك حتى يدفع الجاهل الصبا ودفعك اسباب المنى حين يطمع
وانك لا تدرين صباً مطلتهِ أيشتد ان لاقاك او يتضرع
وانك ان واصلت علمت بالذي لديك فلم يوجد لك الدهر مطمع »

قال « نعم » . قالت « قد ملحت وشكلت خذ هذه الالف دينار واذهب لاهلك » ثم دخلت وخرجت وقالت « ايكم نصيب » قال نصيب « انا » قالت « انت القائل

ولولا ان يقال صبا نصيب لقلت بنفسي النشأُ الصغار
بنفسي كل مهضوم حشاها اذا ظلمت فليس لها انتصار »

قال « نعم » قالت « رثيتنا صغارًا ومدحتنا كبارًا خذ هذه الالف دينار والحق باهلك » فاخذها وانصرف ثم دخلت وخرجت فقالت لجميل — مولاتي تقرئك السلام وتقول لك « ما زالتُ مشتاقة لرؤيتك منذ سمعتُ قولك :

ألا ليت شعري هل ابيتن ليلة بوادي القرى اني اذًا لسعيد
لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد »

فجعلت حديثنا بشاشة وقتلانا شهداء خذ هذه الالف دينار والحق باهلك [1] » فاخذها وانصرف

وكان حسن ينظر و يسمع ولا يستغرب مثل ذلك المجلس كما قد يستغربهُ اهل هذا الزمان لان اهتمام النساء بالشعر والادب وجلوسهن لمثل تلك المطارحة كان شائعًا في تلك الايام ونبغ من النساء شاعرات ماهرات منهن ليلى الاخيلية وغيرها — وانما استغرب حسن اهتمام سكينة على رفعة مقامها بمباحثة الشعراء في ما قالوهُ ونظموهُ · على انهُ كان يسمع و يرى وهو قلق البال لتاخر ليلى عنهُ ولم يكن يدري كيف يستدعيها او يستعجلها فرأى ان يسمعها صوتهُ فانتحل امرًا يجهز لهُ الكلام — ذلك انهُ رأى على الستار الحاجز بين مجلسي الرجال والنساء صور طيور واشجار وكانت امثال هذه الانسجة الملونة كثيرة الشيوع في المدينة للاستار والوسائد والاغطية · ولكن بعضهم كان يحرم استخدامها عملاً ببعض الحديث · وكان حسن اول ما وقع نظره على الستار ساعة دخولهِ الغرفة قد اكبر امره فرأى لهُ حينئذ مسوغًا للكلام · فلما راى الجارية فرغت من مخاطبة الشعراء و رأى الشعراء قد خرجوا وهمّت هي بالرجوع وقف حتى اقبل عليها وقال « تمهلي يابنية »

فوقفت والتفتت اليهِ فقال لها « لقد باحثتِ هؤلاء الشعراء وافحمتهم فانصرفوا فهل اسألك سؤالاً ؟ »

قالت « قل ما تشاء »

قال « ارى على ستاركم صورًا وقد قال رسول الله (صلعم) « ان اشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون »

فاشارت الجارية اليهِ ان يتمهل ودخلت الى سيدتها وحسن ينتظرها · فلما عادت قالت لهُ « وما يضرنا وما نحن من المصورين »

قال ولكنكم اتخذتم تلك الصور استارًا · ولو كانت صور اشجار فقط لهان امرها [2] ولكنها صور ذات ارواح وقد قال رسول الله (صلعم) « ان الملائكة لا تدخل بيتًا فيهِ الصورة » ولم يتم حسن كلامهُ حتى سمع صوتًا جهوريًا من وراء الستار

(١) الدر المنثور (٢) مشكاة المصابيح

يقول « ولكنهُ (صلعم) قال ايضاً — الاَّ رقماً في ثوب — » (١) فعلم حسن انهُ صوت ليلى فسكت وعادت الجارية الى مكانها ولبث هو على مثل الجمر لا يدري ماذا يعمل ولا ماذا يقول . والتفت الى الخلاء من نافذة عالية فراى الشمس قد مالت الى الغروب فازداد قلقهُ مخافة ان يطول انتظار صاحبهِ سليمان بباب المدينة

الفصل الثاني والعشرون

الفشل

وفيما هو يفكر في ذلك سمع لغطاً وراء الستار غقبهُ ضحك كثير وصوت يقول « قد اطلقنا سراحهُ اذهبي يابنانة واخرجيهِ قبحهُ الله ما اخبثهُ » فعلم حسن انهُ صوت سكينة ولكنه ظنها تريد اخراجهُ هو فاضطرب . ثم ما لبث ان راى ليلى خارجة وهي تشير اليهِ ان يتبعها فسار في اثرها حتى خرجا من القاعة فدنت منه وقالت « لا تخف انها لم تامر باخراجك ولكنها امرت باخراج اشعب الطماع لاني اوصيتها بهِ عملاً باشارتك »

فقطع حسن كلامها قائلاً « بورك فيك ... ولكن ابن سمية .. »

قالت « ليست هنا ... كانت في هذا المجلس وخرجت قبل ان أراك »

فاستعاذ حسن بالله وانقبضت نفسهُ ثم قال « هل انت على يقين مما تقولين »

قالت « بحثت كثيراً وتحققت خروجها فلعلها خرجت الى بيت ابيها لانها لا تستطيع الغياب طويلاً عنهُ »

وفيما هما يتكلمان رايا اشعب مهرولاً وهو في ما وصفناه من قصر القامة وقلة اللحم وقرع الرأس وحول البصر حتى اقبل على حسن وهمَّ بهِ كانه يريد ان يقبل يدهُ وطفق يقول « جزاك الله عني خيراً فقد انقذتني من عذاب طويل لان البيض لم اكن ارجو ان يفقص قبل بضعة ايام فاطلب اليهِ تعالى ان يقدرني على مكافاتك . هل استطيع خدمتك في شيء ؟ »

قال حسن « اني لم افعل ما يستحق هذا الثناء فادعُ لي ان الاقي ضائعي .. »

(١) البخاري ج ٤

ثم التفت الى ليلى كانهُ يريد الرجوع الى الموضوع فتنحى اشعب قليلاً فقال حسن « استودعك الله ياليلى وارجو ان اراك في خير » ثم التفت الى اشعب وودعهُ فقالت لهُ ليلى « اتوسل الى الله ان ينصرك في امرك ... »

واحب حسن الاختصار في الكلام للاستعجال في الخروج لعلهُ يلاقي سمية في الطريق او في البيت او في مكان آخر . فخرج فلقي خادمهُ عبدالله في انتظاره ومعهُ الجمل فركب والشمس قد آذنت بالزوال و بان الشفق فاستحث جملهُ حتى دنا من حائط عرفجة فاحس بشيء استوقفهُ بغتة وما هو الا عامل الحب اوقفهُ بجانب بيت الحبيب . فلم يتمالك ان نادى عبد الله فوقف عبدالله بين يديهِ وهو يقول « هل اسأل عن سمية لعلها عادت »

فاستحسن حسن نباهة خادمهِ وشعوره معهُ وابتسم ولم يجب فاسرع عبدالله الى البيت ثم عاد وهو يقول « انها لم تعد يا سيدي »

فارتبك حسن في امره وخاف ان تكون سمية باقية في بيت سكينة ولم ترها ليلى او انها رأتها واخفت امرها لغرض لها . وتكاثرت عليهِ الهواجس وتراكمت الظنون — والحب سيء الظن كلما اشتد حبهُ كثرت هواجسه وزاد سوء ظنهِ بحبيبهِ واكثره من قبيل الغيرة . فاذا رأى حبيبه يخاطب احداً مهما يكن من شانهِ او مقامهِ او قرابتهِ تبادر الى ذهنهِ انه يغازله او يسارهُ في امر . واذا ابطأ عليهِ الزيارة سبق الى فهمهِ انه في موعد مع آخر او انه لا يحبه او يحبُّ سواه . وقد يخيل له ان اهل الحبيب كلهم ضده وانهم يمنعونه منه فاذا تخاطبوا همساً أو قصروا معه في شأن خيل له انهم يريدون بهِ سوءاً او هم ينصبون له احبولة — فالمحب كثير الهواجس سيء الظنون

فلا تلم حسناً اذا ساء الظن بليلى وحسبها تآمرت على اخفاء سمية عنهُ . قضى حسن برهة في هذه الهواجس وهو على جملهِ ثم انتبه فاذا بالظلام يتكاثف وتذكر صديقهُ سليمان فاجفل وشق عليهِ تاخره عن الموعد مع ما ابداه الرجل من الرغبة في مرافقتهِ بعد ان بالغ في اكرامهِ والتقرب منهُ . فاستحث جملهُ وطلب باب المدينة وقد يئس من مشاهدة سمية وعلل نفسهُ بلقائها عند رجوعهِ من مكة

الفصل الثالث والعشرون

اللقاء بغتةً

مشى حسن بضع دقائق فاشرف على باب المدينة ومن ورائهِ المستنقعات والتلال وغابات النخيل وقد بعد عن منازل الناس وهو ساكت . وفيما هو ينظر الى ماوراء الباب اذا هو بشبح وقف لهُ في الطريق وهو ينادي « حسن! » فالتفت حسن وقلبهُ يخفق لشدة وقع ذلك الصوت على اذنهِ ولاغرو فانهُ صوت الحبيب . فلما سمعهُ امسك زمام جملهِ ونظر الى الشبح فاذا هو امرأة فحدثهُ قلبهُ انها سمية فوثب عن الجمل حتى وقف بين يديها وتنحى عبدالله وقد اخذ بزمام الجمل وتشاغل باصلاح الرحل

اما حسن فانهُ نادى « سمية ! »

فالت « نعم ... ومن هذا الذي معك ؟ »

قال « هو خادم امين لا تخافي منهُ ... ما الذي جاء بك الى هذا المكان في هذا الليل .... سمية ؟ ... أأنت سمية حقيقة ؟ .... ما الطف هذا اللقاء وما اسعد هذه الساعة .. سمية .. حبيبتي ..... — قولي مابالك ؟ .... »

فتنهدت واسندت كتفها الى حائط هناك وتشاغلت باصلاح نقابها ولو اسفرت واسفها النور لرأى حسن وجهها يتدفق حياة وحياء ولا أدرك آثار الوجل عليهِ ولكنها قابلتهُ مقنعة والوقت ليل . على انهُ لم يكن يطمع منها باكثر من ذلك وقد كفاه انها سعت في ملاقاتهِ وهو دليل الحب الشديد . واول ماتشتاق اليهِ نفس المحب ان يتحقق مبادلة الحب مع حبيبهِ فاذا تحقق ذلك هان عليهِ كل شقاء . وما سبب كل ما يشكوه اهل الغرام من العذاب والشقاء في الحب الا الخوف من حب السوى او فتور الحبيب — فارتاح حسن لما رآهُ من سعي سمية في ملاقاتهِ ولكنهُ اوجس خيفة من سبب ذلك لعلمهِ بصرامة والدها وشدة سلطانهِ عليها فقال لها « اني لا أرى في هذه الدنيا احداً اسعد مني الآن وقد بذلتُ الوسع في سبيل الحصول على هذه المقابلة فلم افز حتى انتني السعادة عفواً فالحمد لله . ولكنني اخاف ان يكون لهذه المخاطرة سبب يسوءك » فتحيرت سمية في ماذا تجيبهُ وماذا تقول لهُ فلبثت صامتة فازداد حسن قلقاً فقال لها « مابالك قولي ... تكلمي ... أ لعلك علمت بذهابي الى مكة فخفت عليَّ الخطر هناك ... »

فلما سمعت لفظ الخطر من فيهِ اجابتهُ والبكاء يخنق صوتها « نعم اخاف عليك وليس من مكة فقط بل ... » وشرقت بالدمع فانقطع صوتها

فتقطع قلب حسن ومد يده فامسك انامِلها وهي اول مرة قبض بها على تلك الانامل فاقشعر بدنهُ واحسَّ بحركة لايعبر عنها الاَّ بالمجرى الكهربائي وقال لها « بل ماذا ؟ ... قولي ياسمية ... يا مالكة قلبي ... هل تخافين عليَّ احدًا في هذه المدينة ايضًا ؟ ... لاتخافي عليَّ بأسًا طالما كنت انت لي ... قولي انك تحبينني وانك لا تحبين سواي ولا ابالي بعد ذلك اذا كان اهل الارض اعدائي ... »

قالت « واذا كنتُ أنا عدوتك ؟ »

فحمل منها ذلك محمل المزاح وقال لها « اذا كنت انت عدوتي فلا غرض لي في الحياة .... بالله قولي ما في نفسك ... ممن تخافين عليَّ ؟ .. فاريك دمهُ مسفوكًا ولو كان حولهُ جيش جرار .. قولي .. »

فتنهدت ومسحت دموعها بطرف نقابها وهي تقول « لا أريد ان أرى دمهُ مسفوكًا ... »

فتعجب وقال « وماذا اذًا ... افصحي ياسمية ... يا منيتي قولي .. ممن تخافين عليَّ فقد نفد صبري وطال تأخري عن الخروج من المدينة ولي صديق ينتظرني في الخارج ... قولي ... »

قالت « اقول بعد ان التمس منك العذر لاني اعدهُ قولي عقوقًا لا يليق ببنات الناس ... ولكنني اسيرة حبك لا ارى لي راحة الاَّ بك ... »

فقطع حسن كلامها وقد ادرك ما تريده فقال « قد فهمت ما تريدين ... انك تخافين عليَّ من والدك ... »

قالت « نعم » واستغرقت في البكاء حتى كاد يغمى عليها وكان هو لا يزال ممسكًا بيسراها فامسك بيدها الاخرى وقال لها « ولاهذا يهمني طالما كنت انت تحبينني ... الا تحبينني ياسمية ؟ ... »

فصعدت الزفرات ولم تجب فعلم انهُ جواب الايجاب

فقال « فاذا كنت تحبينني وانا احبك فمن ذا يحول بيني وبينك ؟ .. » وسكت برهة وقد عظم عليهِ الامر ثم قال « وما الذي دعا والدك الى بغضي والحاق الاذى بي وانا لم ارتكب لديهِ منكرًا ولا اسأت اليهِ في شيء .. »

قالت « ذنبك انك احسنت اليه ... أو لعل ذلك من سوء حظي ... مالنا ولهذا ان الوقت لا يأذن بطول الشرح . فاخبرك ان والدي لا يريدك واخاف ان يسعى في اذيتك وقد علمت ذلك على اثر خروجك من منزلنا ولم استطع صبرًا عن اطلاعك على جلية الامر لتكون على بصيرة .. »

قال « اما الحاق الاذى بي فاني لا اخافه باذن الله ولكنني اخاف ان يلحق الاذى بك »

قالت « اما انا فقد أظهرت له الطاعة والرضى ريثما اراك ثم افعل ما تامرني به »

فاطرق حسن ثم قال « اما انا فاني مغلول اليدين بما أخذته على نفسي من امر السفر الى مكة عاجلاً في مهمة لرجل احبه وله عليّ فضل كبير . وقد ادعوك للذهاب معي ولكنني سائر الى مكان محاط بالعدو والحرب قائمة فيه فلا اريد تعريضك لهذا الخطر ... »

فقطعت كلامه قائلة « وكيف تعرض نفسك للخطر ... ومكة اليوم في اضيق الحصار واهلها في ضنك شديد .. بالله الا عدلت عن الذهاب .. ثم تفعل ما تريد »

قال « اما الذهاب فلا بد منه فامكثي انت هنا واظهري الطاعة حتى اعود ونرى ما يكون ... ولا اخاف باسًا ولا خطرًا طالما كانت سمية لاتحب سواي » ثم سمع جعجعة الجمل فانتبه للوقت وقال لها « وكنت اود ان لانفترق منذ الآن ولكن الضرورة لها احكام . فاني مرسل عبد الله معك الى منزلك لان الليل قد اظلم ولا آمن عليك المسير وحدك . فهل تسيرين الى بيت ابيك ؟ »

قالت « لاولكنني اعود الى بيت سكينة لان ابي يعلم اني سرت اليها فاذا استبطأني سال عني هناك فاعتذر عن تاخري وذلك خير من ان يراني عائدة الى البيت وحدي في هذا الليل .... ولكن كيف افارقك ... ؟ »

قال « تشددي يا سمية ان سفري هذا لابد منه ولكنه آخر الاسفار باذن الله ثم نعود ونعيش معًا ... »

فلما قال ذلك بكت سمية حتى سمع حسن صوت بكائها فانفطر قلبه وكاد يشاركها بالبكاء لولا انه اعظم البكاء وهو في موقف الخطر فتجلد وقال لها « لا تبكي يا سمية بل اتكلي على الله واعلمي اني عائد اليك على عجل باذن الله .... » قال ذلك ونادى عبدالله

وقال له « اوصل سمية الى بيت سكينة والحقني في الطريق المؤدي الى العقيق فاني سابقك الى هناك ... فقد ابطأت على سليمان واخاف ان يكون قد سبقني او عاد الى منزله »

الفصل الرابع والعشرون

جمجمة الجمل

فمشت سمية وهي تقول « سر بحراسة المولى نصرك الله على اعدائك وحماك من كل أذية » . وكان حسن يسمع كلامها حتى توارت عنه فركب جمله وساقه الى باب المدينة ولم يكن مقفلاً فالتفت يمنة ويسرة فلم ير سليمان فخرج وهو يمشي الهوينا ويصيخ بسمعه لعله يسمع صوتاً وجعل يحدق بعينيه لعله يرى احداً فسار والجمل دليله بين تلك المستنقعات . ولكنه لم يسر طويلاً حتى سمع جمجمة جمل عن بعد فجمجع جمله فاستوقفه واصاخ بسمعه وحول الزمام الى جهة الصوت وساق الجمل سوقاً بطيئاً فمشى به بين النخيل والظلام سادل ستاره والسكوت سائد لا يسمع فيه صوت . وكأن الجمل تهيب لذلك الهدو فسكت ايضاً فلم يكن يسمع غير وقع خفافه على العشب او الطين

وبعد قليل سمع حسن صوت بكاء وانين فوقف واصغى فسمع الصوت عميقاً وعرف جهته وخاف اذا سار بالجمل ان يجمجع الجمل فيشوش الصوت فترجل عنه وعقله وشده الى نخلة ومشى على قدميه وهو يتلمس الارض مخافة ان يخوض في الاوحال حتى تحول عن الطريق الاصلي الى ساحة لا نخل فيها ولا عشب فرأى جملاً معقولاً وشجاً متوسداً الى جانبه وفوق رأس الشيخ شبح آخر يبكي وينتحب . فاخذ حسن في منعطف بحيث يرى ويسمع ولا يراه احد فسمع صوتاً يقول « يا لتعاستي وشقائي ... لقد فتكت بك يا ولدي وفلذة كبدي ... اظنني استوجب هذا القصاص . واما انت فما ذنبك ... ؟ تباً لي ما انحس حظي ... ولدي حبيبي كلمني يا سليمان ... سليمان .. سليمان ! ... »

فلما سمع حسن ذكر سليمان علم انه صديقه فاقشعر بدنه لئلا يكون قد اصابه سوء بسببه فنهض ومشى ويده على قبضة سيفه حتى اقبل على الشبحين ولم ينتبه له احد

ثم سمع الشيخ الراقد يقول بصوت ضعيف « لا تحزن يا ابي فقد ذهبتُ فداء صديق لي هو احق بالحياة مني »

فقال الآخر « اظنك ذهبت بذنب هذا الشقي لانهُ لم يف لله عهده ... عاهدتُ الله على النصرة للحسين والمقاتلة في سبيلهِ وجعلت نفسي في عداد التوابين ثم رجعت لخدمة هؤلاء الطغاة .. وكثيرًا ما رأيتك غير راض بذلك مني وانا لا اصغي لك حتى ضربني الله هذه الضربة على قلبي ... »

فتحقق حسن ان الراقد سليمان وانهُ في ضيق فلم يتمالك عن الصياح « سليمان .. ! »

فاجفل الرجل الجالس وحسب الجن تخاطبهُ فوقف للحال وقال « أُنسيٌ انت ام جنيٌ .. ؟ » وكان الرجل كهلاً في نحو الستين من عمره والشيب قد جلل رأسهُ وهو طويل القامة دقيق العضل قصير اللحية صغير العمامة — ولم يتم الرجل سؤالهُ حتى كان حسن بين يديهِ وقد اكب على سليمان وهو راقد على ظهره وفوقهُ القباء وقد تلطخ بالدم فتفرس في عينيهِ فاذا هو يفتحهما فتحًا ضعيفًا ويتألم فأمسكهُ حسن بيده وقال لهُ « سليمان ! .. اخي سليمان ! .. »

وكان لذلك الصوت وقع عظيم على اذني ذلك الجريح ففتح عينيهِ وصاح « حسن حبيبي حسن ! .. اشكر الله اني تحملت الموت عنك ... »

ولم يقل سليمان ذلك حتى تقدم الرجل الآخر ونادى « حسن ! .. انت حسن ! .. يالله ما هذه المصيبة التي وقعتُ بها من اجلك ... ولكن الذنب ليس ذنبك وانما هو ذنبي انا الشقي التعيس ... »

الفصل الخامس والعشرون

العلاج

فعلم حسن للحال ان الكهل والد سليمان وادرك انهُ كان يترصدهُ فاصاب سليمان خطأً . فاهتم حسن اولاً في حياة سليمان فحاول اقعاده وقال لابيهِ « ائتني بالماء » فجاءه بشيء منهُ من مستنقع قريب فرش سليمان بهِ وغسل مكان الجرح في اعلى الصدر وكان قد اصيب بنبلة استخرجها أبوه لهُ . وكان حسن قد تعلم بعض الوسائل الطبية من معاشرة

خالد بن يزيد الاموي في دمشق . لان خالدًا كان شديد التعلق بالعلوم الطبيعية حتى فاق بها سائر قريش وكان بصيرًا بصنعة الكيمياء والطب متقنًا لها والف بذلك الكتب والرسائل وقد أخذ العلم عن راهب اسمهُ يانس [1] ولم يكن مجلس خالد في دمشق يخلو من أهل العلم فكان حسن يجالسهم ويسمع أقوالهم فاستفاد بعض الفائدة — فلما غسل جرح سليمان ضغط على الجرح بانامله وامر أبا سليمان بايقاد النار فاوقدها بالزناد حتى تكون الرماد فاخذ بعضهُ وذرّه فوق الجرح وربطهُ

ثم سأل عن ماء للشرب فقال الرجل « ليس معي قربة »

فقال « حسن اسند صدره لآتيك ببعض الماء من قربتي » قال ذلك ونهض ثم تحول نحو النخلة التي عقل جملهُ عندها فلم يجد الجمل هناك فطار صوابهُ لان كتاب خالد بن يزيد في جيب الرحل فوق الجمل خبأهُ هناك حرصًا عليهِ من راصد او واش فضلاً عن ان الجمل عزيز عنده وعليهِ عدته وثيابهُ والماء وكل شيء . فلما افتقده على تلك الصورة بغت ولكنهُ لم يضع فرصة فنظر في آثار الجمل فوجد العقال محلولاً حلاً لا يدل على عنف فتبادر الى ذهنهِ انهُ لم يعقلهُ عقلاً متينًا فانحل العقال واطلق سراح الجمل ففرّ . فجعل يفكر في الطريق الذي يمكن للجمل ان يسير فيهِ فلاح لهُ انهُ يطلب المرعى

فمشى حسن يطلب الجمل وقلبهُ مضطرب وهو خائف لانهُ غريب في تلك البلاد . وبعد مسير برهة وقف ونظر الى ما حولهُ من الغياض والبساتين والظلام حالك فتبين لهُ ظل يترا أى بين النخيل امامهُ فتفرس جيدًا واصغى بسمعهِ فسمع شخير جمل فطلب المكان فرأى ذلك الشبح يتباعد عنهُ فسار في اثرهِ وهو يعثر بالاعشاب والاحجار ونظرهُ شاخص الى جهة الشبح لا يبالي هل هو يسير على شوك او يخوض في بحر لفرط قلقهِ ولو اتيح لهُ ان يرى وجههُ بمرآة في تلك الساعة لرأى عينيهِ محملقتين متسعتين وحاجبيهِ مرتفعين حتى تغضنت جبهتهُ كانهُ يريد ان يلتقم ذلك الشبح بعينيهِ . وما زال يمشي والشبح يمشي امامهُ حتى خرجا من بين النخيل الى الفلاء فتفرس حسن بالشبح من وراء الافق فاذا هو جملهُ بعينهِ فسار في اثرهِ وكأن الجمل أجفل من شيء فجعل سيره طرادًا وقد مدّ عنقهُ وبسط قوائمهُ ورفع ذيلهُ وحسن يتبعهُ على غير هدى من الطريق وينادي بكل أدوات الزجر والجمل لا يزداد الاَّ هروبًا حتى توارى عن بصره وراء

---

١ ابن خلكان ج ١

بعض التلال . فظل حسن سائرًا بقوة الاستمرار مدفوعًا برغبته في القبض على الجمل حرصًا على ما يحمله من الادوات الثمينة

الفصل السادس والعشرون

وادي القرى

وفيما هو يركض ويلهث اذا هو بشيخ يمشي وعليه لباس الرعاة عاري الرأس وقد غرس عصاه في قفا طوقه وعليه عباءة قصيرة وخشونة البداوة بادية في وجهه مع شدة الظلام . فناداه حسن « يا أخا العرب هل رأيت بعيرًا راكضًا من هنا .. ؟ »

وما أتمّ حسن سؤاله حتى اسرع الرجل اليه وامسكه بذراعه وضغط عليها وأشار بيده على فمه ان « اسكت وانتظر » فالتفت حسن الى ما حوله فرأى شجرة كبيرة على اكمة والشيخ ينظر الى الشجرة ورأى هناك ظلاً يتحرك فقال له حسن « ما شأنك ؟ .. اخبرني »

قال لقد اتفق لي حادث غريب في هذا اليوم مع رجل التقيت به ولم اعرفه فاذا اصغيت لي قصصت الخبر عليك على عجل ثم نذهب ونستطلع بقيته معًا عند تلك الشجرة »

قال حسن « ولكن اخبرني قبل كل شيء هل رأيت جملاً راكضًا من هنا ؟ .. »

قال « نعم رأيته واظنه طلب هذا الوادي ولا تخف عليه فاني ضامن استرجاعه لاني أعرف رجال هذا الحي وهم يعرفونني وانني لا تزال سارحة هناك ولا خوف عليها باذن الله »

قال حسن « واي واد هو ؟ .. »

قال « هو وادي القرى »

قال حسن « اليس هو مقام بني عذرة المعروفين بشدة عشقهم وعفتهم » (١)

قال « لي هو هو بعينه .. والحادث الذي جرى لي اليوم يكشف لنا عن حقيقة ما نسمعه عن هؤلاء . اعرني سمعك لاقص عليك الخبر ... »

---

(١) الاغاني وغيره

فمال حسن الى سماع الحديث واهل الغرام يميلون الى حوادث الغرام
فقال الرجل : —

« قضيت في هذه الاودية معظم فصل الربيع وانا أرعى إبلي فجاء ني في أصيل هذا اليوم رجل طويل القامة منطو على رجلهِ كانهُ جان فسلم عليَّ ثم قال « ممن أنت ياعبد الله » فقلت « أحد بني حنظلة » قال « فانتسب » فانتسبتُ حتى بلغت الى فخذي الذي أنا منهُ . ثم سألني عن بني عذرة ابن نزلوا فقلت لهُ « هل تري ذلك السفح فانهم نزلوا من ورائهِ » قال « يا أخي بني حنظلة هل لك في خير تصطنعهُ الي فوالله لو اعطيتني ما اصبحتَ تسوق من هذه الابل ما كنتُ بأشكر مني لك عليهِ » فقلت « نعم ومن انت اولاً » قال « لاتسألني من انا ولا اخبرك غيراني رجل بيني وبين هؤلاء القوم ما يكون بين بني العم فان رأيت ان تأتيهم فانك تجد القوم في مجلسهم فتنشدهم ـ بكرة أدماء تجرّ خنيها عنلاء من السمة ـ فان ذكروا لك شيئًا فذاك والا استأذنهم في البيوت وقل ان المرأة والصبي قديريان ما لا يرى الرجال . فاذا اذنوا لك ادخل بين البيوت وانشد اهلها حتى لا تدع أحدًا تصيبهُ عينك ولا بيتًا من بيوتهم الا انشدت ذلك فيهِ » ـ قال الشيخ — فأتيتُ القوم فاذا هم على جزور يقتسمونها فسلمت وانتسبت لهم ونشدتهم ضالتي . فلم يذكروا لي شيئًا فاستأذنتهم في البيوت وقلت ان الصبي والمرأة يريان ما لا ترى الرجال . فأذنوا . فأتيت افصاها بيتًا ثم استقريتها بيتًا بيتًا أنشدهم فلا يذكرون شيئًا . حتى اذا انتصف النهار وآذاني حر الشمس وعطشت وفرغت من البيوت وذهبت لأنصرف حانت مني التفاتة فاذا بثلاثة ابيات فقلت في نفسي « ما عند هؤلاء الا ما عند غيرهم » ثم قلت لنفسي « سواءٌ . . وثق بي رجل وزعم ان حاجتهُ تعدل كل ما لي ثم آتيهِ فأقول عجزت عن ثلاثة ابيات ؟ » فانصرفت عامدًا الى أعظمها بيتًا فاذا هو قد أرخى مؤخرهُ ومقدمهُ فسلمت فردوا عليَّ السلام . وذكرت ضالتي فقالت جارية منهم « يا عبد الله قد أصبت ضالتك وما اظنك الا قد اشتد عليك الحر واشتهيت الشراب » قلت « اجل » قالت « ادخل » فدخلت فأتتني بصفحة فيها تمرٌ من تمر هجر وقدح فيهِ لبن والصفحة مصربة مفضضة والقدح لم أر اناء قط احسن منهُ . فقالت « دونك » فاكلت التمر وشربت من اللبن حتى رويت . ثم قلت « يا أمة الله والله ما أتيت اليوم اكرم منك ولا احق بالفضل فهل ذكرت من ضالتي شيئًا » فقالت « هل ترى هذه الشجرة فوق الشرف » قلت « نعم » قالت « فان الشمس غربت امس

وهي تطيف حولها ثم حال الليل بيني وبينها » فظننتني فهمت مرادها فقمت وجزيتها الخير وقلت « والله لقد تغديت وريت » فخرجت حتى أتيت هذه الشجرة فأطفت بها فوالله ما رأيت أثرًا فأتيت صاحبي فاذا هو منشح في الابل بكسائه ورافع عقيرته يغني قلت « السلام عليك » قال « وعليك السلام ماورائك » قلت « ماورائي من شيء » قال « لا عليك فأخبرني بما فعلت » فاقتصصت عليه القصة حتى انتهيت الى ذكر المرأة واخبرته بالذي صنعت فقال « قد أصبت طلبتك » فعجبت من قوله وانا لم اجد شيئًا ثم سألني عن صفة الاناءين والصفحة والقدح فوصفتها له فتنفس الصعداء وقال « قد أصبت طلبتك ويحك » ثم ذكرت له الشجرة وانها تطيف بها فقال « حسبك » ففهمت انها ضربت له موعدًا للقاء عند هذه الشجرة بعد الغروب . فمكثت حتى اذا آوت ابلي الى مباركها دعوته الى العشاء فلم يدن منه وجلس مني بمزجر الكلب . فلما ظن اني قد نمت رمقني فقام الى عيبة له فاستخرج منها بردين فاتزر بأحدهما وتردى بالآخر ثم انطلق عامدًا نحو الشجرة [1] وهو الذي تراه جالسًا هناك بقرب جزع الشجرة وسنرى ما يكون من اجتماع الحبيبين . . » انتهى كلام الشيخ

الفصل السابع والعشرون

الهوى العذري

ثم أمسك الشيخ حسنًا بيده وشده نحو الارض فجلس وجلس الرجل بين شجيرات واشار اليه بدون ان يتكلم فرأى شبحًا صاعدًا من الوادي وعليه لباس النساء ومعه شبح آخر . فقال الراعي « هذه هي الفتاة قادمة ومعها خادمتها ثم واختف لنرى ما يكون »

فانبطحا وتصفحا حتى اقتربا من الشجرة واختفيا في مكان بحيث يريان الاثنين ويسمعان ما يدور بينهما

واول ما وصلت الفتاة الى الملتقى كان الشاب في انتظارها على مثل الجمر فلو كانت الليلة مقمرة او كان الوقت نهارًا لظهر على وجه الشاب ملامح لا يخلو وجه العاشق منها ولو كان على غير موعد من الحبيب . فكيف وهو على مثل ذلك الموعد . فاقبلت الفتاة

(١) الاغاني ج ٣

وحدها فوقف لها الشاب وتقدم للقائها وهو يحسب نفسه في خلاء وظلماء. وقد كان قلب حسن في اثناء ذلك يضرب ضربات متسارعة مخافة ان يرى من الحبيبين ما يخجله او يهيج غيرته فندم على أصغائه للشيخ الراعي لما في ذلك من اختلاس اسرار الناس وهو امر منكرٌ. على انه أحس بميل شديد لاستطلاع ما يدور بين هذين - - واستطلاع مثل هذه الاسرار مما تتوق اليه النفس. والميل الى ذلك عام في الناس على اختلاف طبقاتهم وان تفاوتوا في احترام تلك الاسرار والاغضاء عن استطلاعها عملاً بالآداب العامة

وملتقى الحبيبين على هذه الصورة تميل النفس الى رؤيته وخصوصاً عند أهل الغرام فلا عجب اذا اختلج قلب حسن واضطكت ركبتاه واقشعر بدنه. ولم يكن سبب ذلك التأثر الا توقعه أمرًا يخاف ان يراه ولا يريد ان يفوته. ولكنه ما لبث ان رأى الرجل واقفًا لرد التحية حتى عرف من طول قامته وغنة صوته انه جميل الذى رآه في اصيل ذلك اليوم في مجلس سكينة. فتحقق حسن حينئذٍ ان الفتاة معشوقته بثينة لانه كثيرًا ما كان يسمع بما بينهما من احاديث الغرام وكيف منعه أهلها منها وهو لا يزال يحبها حباً مفرطًا وهي تحبه. وكان حسن من الجهة الاخرى يسمع بحب بني عذرة وعفافهم ولكنه لم يكن يصدق ان مثل ذلك الملتقى في ذلك الخلاء على غفلة من الرقباء يقتصر بين ذينك الحبيبين على القاء التحية

وكانت الفتاة مقنعة فجلست على حجر وجلس جميل على حجر لا يمس ثوبها ثوبه ولا يده يدها — جلسا متقابلين ينظر احدهما الى الآخر ولا يفوه بكلمة خارجة عن حدود المعاتبة والتشاكي لا يقولان فحشًا ولا هجرًا. فاستغرب حسن ما رآه من العفة الصادقة ثم سمع الفتاة تنادي خادمتها وكانت الخادمة في تختبأ بعيد عنهما. فجاءت وهي تحمل قصعة من الطعام. فجلسا يأكلان ويتحادثان فلما فرغا من الطعام قالت بثينة « بلغني انك نظمت فيَّ اشعارًا فهل تحبني يا جميل ؟ »

قال « لا أرى في لغة البشر لفظًا يعبّر عما في قلبي نحوك. فانه اعظم من الحب واشد من الغرام وارقى من العبادة لا ادري ما هو يا بثينة. فاذا اكتفيت بدعائه حباً فاني لا اراه يؤدي ما في قلبي . . . »

فالت « وكيف اذًا ؟ »

قال « لا ادري ياحبيبتي . . . لا أدري كيف هو ولا ما هو » ثم صعد الزفرات وقال « وانما اعلم انك نصب عينيَّ اينما سرت وحيثما جلست وكيفما نظرت . . . ان بثينة امام

عيني اراها جسماً واضحاً وما عداها من الناس اشباح او اظلال . ولم يذكر اسمها بين يديّ الا اضطربت جوارحي وانشعر بدني وخفق قلبي ولا أرى لي راحة الا بالبكاء. كأن الشوق نار والدمع ماء يطفئها — حتى قلت

خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حب قاتلهِ قبلي

الفصل الثامن والعشرون

جميل وبثينة

فقالت بثينة « اذا كنت انت كذلك فكيف انا . . . ؟ ولكن جنس النساء محكوم عليهِ بالتعب والشقاء فلا نقدر الواحدة منا على بث شكواها الى احد لئلا يتألم عرضها . واما انتم معشر الرجال فلكم الحرية في ذلك . . وانت تزعم انك تحبني حباً تقول انك لاتدري مقداره — فمن بلغ حبهُ الى هذا الحد كيف يهجر حبيبهُ ولا يسأل عنهُ . ثم اني لا اعلم ما تسمعهُ او تقولهُ في اثناء هذا الغياب الطويل . ولا ادري اين موقع بثينة مما يقع بصرك عليهِ من الناس » قالت ذلك بنغم الدلال فازداد جميل هياماً وقال لها

اني لأحفظ غيبكم ويسرني اذ تذكرين بصالح أن تذكري
ويكون يوم لا ارى لك مرسلاً او تلتقي فيهِ علي كأشهر
يا ليتني ألقى المنية بغتة ان كان يوم لقائكم لم يقدر
لا تحسبي اني هجرتك طائعاً حدثٌ لعمرك رائع أن تهجري
بهواك ما عشت الفؤاد فان أمت يتبع صداي صداك بين الاقبر

فما تمالكت بثينة عند سماعها قولهُ عن السكوت وقد غصت بريقها ثم قالت « وهل انت ناظم هذين البيتين ؟ . .

ألا ليت شعري هل ابيتن ليلة بوادي القرى اني اذا لسعيد
وهل القين فرداً بثينة مرة تجود لنا من ودها ونجود »

قال « نعم »

قالت « وما الذي ترجو ان نجود بهِ ونحن بنو عذرة ؟ »

قال « لا اطمع منك بغير الحديث والنظر ولو كان من وراء نقاب ... على حد قول القائل

لا والذي تسجد الجباه له ... مالي بما تحت ثوبها خبر
ولا بفيها ولا هممت بها ... ما كان الاّ الحديث والنظر (١)

فأطرقت بثينة خجلاً ثم قالت « ذلك عهدنا بجميل ولولا ذلك ما رأيتني اسعى اليك وحدي »

فلا تسل عن استغراب حسن والراعي ما رأياه حتى احتقر حسن نفسه لانه لم يكن يظن اذا التقى بسمية انه يستطيع ما استطاعه جميل

قضى جميل وبثينة ساعة في مثل ذلك ثم نهضت هي فودعته أحسن أوداع فودعها مثل وداعها وانصرف كل منهما الى ناحية وكل منهما يمشي خطوة ثم يلتفت الى صاحبه (٢)

فلما توارى نهض حسن من بين الاعشاب وهو مدهوش وقال للرجل « لقد شاهدت منظراً طالما تاقت نفسي لمشاهدته ... انه منظر يخجل منه كل ضعيف النفس دنيء الطبع ... ان العفة يا اخا العرب ما في الفضائل خير منها »

فقال الشيخ وهو ينفر بعصاه على عباءته لينفض التراب عنها « كيف لا وقد سمعت ابن عباس رضي الله عنه يقول قال رسول الله (صلعم) « من عشق فعف فمات فهو شهيد » وقال ايضاً « عفوا تعف نساؤكم » (٣)

فقال حسن « صدق رسول الله ولذلك فان بني عذرة كلهم شهداء فقد بلغني مثل ذلك عن كثير من عشاقهم ولكنني لم اكن اصدق حتى رايت ذلك راي العين »

ثم انتبه حسن لما هو فيه من ضياع الجمل وحال صديقه سليمان من الجرح والالم فقال للراعي « ابن الجمل يا اخا العرب فقد وعدتني باحضاره »

قال « تربص بي هنا ريثما آتيك به » قال ذلك وتحوّل حتى انحدر في الوادي وبعد قليل توارى عن النظر وظل صوت الاحجار المدحرجة على اثر وقع قدميه برهة ثم استولى السكوت فجلس حسن تحت الشجرة ولبث ينتظر عود الشيخ وقد استوحش المكان

(١) المستطرف ج ٢ (٢) الاغاني ج ٢ (٣) المستطرف ج ٢

الفصل التاسع والعشرون

العقيق

ولما خلا حسن بنفسهِ تحت تلك الشجرة جالت بهِ هواجسهُ في عالم الخيال فانتقل فكرهُ مما شاهدهُ في ذلك المساء الى سمية وحالهِ معها . فتذكر خادمهُ عبدالله وتأخرهِ ثم انتقل الى سليمان وابيهِ وعاد الى الجمل وعليهِ كتاب خالد فرأى انهُ اهمل البحث عنهُ بتربصهِ هناك لمشاهدة ملتقى ذينك الحبيبين . ولكنهُ علم انهُ انما فعل ذلك بالرغم عنهُ ولو لم يطع الشيخ الراعي بالتربص وظلَّ على مسيرهِ في ذلك الليل لما وجد الى جملهِ سبيلاً لانهُ يجهل تلك البقاع ولا يعرف طرقها

وفيما هو يفكر في ذلك والظلام حالك لا بر بهِ على الاكام والاودية المحيطة بهِ الاَّ اظلالاً ضعيفة سمع خربشة بين الاعشاب فوقف بغتة ثم انتبه الى انها خربشة ضب سارح فلم يلتفت اليهِ . ولكنهُ ظل واقفاً وقد تزايد قلقهُ لتأخر الراعي وود اللحاق بهِ ولكنهُ خاف ان يختلفا في الطريق فيكون ضياعهُ الثاني شرًّا من الاول

ولما طال انتظاره ملَّ الوقوف هناك فمشى على غير هدى وهو لا يخاف الضياع لان الشجرة تهديهِ الى المكان ولو عن بعد . وجعل مسيرهُ الى جهة الوادي الذي سار اليهِ الراعي في اثر الجمل وهو يتوقع اما ان يلتقي بالشيخ وهو عائد او يسمع جعجعة الجمل عن بعد او يعود الى مكانهِ . ولذلك فانهُ كان كلما مشى بضع خطوات التفت الى الشجرة مخافة ان تتوارى عن بصرهِ وراء بعض التلال فمشى مسافة طويلة لم يسمع في اثنائها صوتاً ولا رأى شبحاً . ثم نسي امر الشجرة فانحدر في الوادي وهو يتلمس الارض ولا يرى الطريق . فتارة كانت تزلق رجلهُ وطورًا ترتطم اصابعهُ من فوق النعال باصول الاعشاب الباقية بعد المرعي وهو بين ان يحملق نحو الوادي بعينيهِ او يصبخ باذنيهِ او يتفرس في الطريق بين يديهِ . فلما طال بهِ المسير ولم يهتد الى شيء ندم لنزولهِ من مكانهِ

وبعد مسير طويل على تلك الصورة سمع نباح كلاب في الوادي فالتفت الى جهة الصوت فرأى نورًا ضئيلاً فتأثر الصوت فاذا بهِ يتعاظم كلما اقترب حسن من النور فعلم انهُ على مقربة من بعض قرى ذلك الوادي لان وادي القرى فيهِ قرى كثيرة [1] منتشرة

(١) مراصد الاطلاع

في بطنهِ وعلى جانبيهِ . ولكنهُ استغرب النباح في الليل لعلمهِ أن ذلك لايكون الاَّ اذا طرق الحي غاز او لص . فوقف ليستريح ويفكر في امرهِ فالتفت الى ما يحيط بهِ فاذا هو في واد بين جبلين والظلام حالك والمكان موحش ولكنهُ استأنس بتلك النار على بعدها فمشى نحوها واذا هو بشبح يعدو صاعداً من الوادي كانهُ غزال نافر . فلما اقترب منهُ علم انهُ الراعي واستغرب مجيئهُ وحدهُ فصاح فيهِ « ما وراءك يا اخا العرب . . ؟ ابن الجمل . . ؟ »

فقال « ما الذي جاء بك الى هذا المكان ؟ »

قال « جاء بي قلقي على الجمل وانا كما قلت لك في عجلة لأسباب هامة »

قال « وما الفائدة من انحدارك في هذا الوادي والليل دامس وانت لا تعرف الطريق وقد تعرضت للخطر بطروقك هذا الحي ليلاً فان الكلاب انتبهت لك ونبحت ولما انا فان الكلاب النتني لكثرة ترددي الى هذه القرى . . »

فقطع حسن كلامهُ قائلاً « ما لنا ولهذا قل لي ابن الجمل . . ؟ »

قال « لم اعثر عليهِ في المكان الذي كنت اظنهُ فيهِ والظاهر انهُ قصد ماء آخر وقد كنت ذاهباً للبحث عنهُ في العقيق بجوار المدينة بدون ان اطلعك على الامر »

فاستعاذ حسن بالله وقال « يالله ما هذه المصيبة . . »

فابتدره الراعي قائلاً « لاتخف ياسيدي ان الجمل لايضيع ولو غاب عنك طويلاً فان اهل البادية يرسلون ابلهم للمرعى وقد لايرونها اياماً ثم تعود بنفسها او يعود بها غلام او فتاة . وقد كان ذلك شأننا في زمن الجاهلية فكيف ونحن الآن في ظل الاسلام . ولما انتم معاشر اهل المدن فان الرجل منكم اذا غفل عن عمامتهِ خاف اختطافها . . »

فملَّ حسن من جدال الراعي فقال لهُ « ما لنا ولهذا الجدال ابن الجمل وكيف السبيل اليهِ ؟ »

فقال « يغلب على ظني انهُ سار الى العقيق وهو ماء يخرج اهل المدينة اليهِ فيقيمون عندهُ ساعات او اياماً في خيام يحملونها معهم وربما ذبحوا الذبائح وأولموا الولائم . . . »

فقطع حسن كلامهُ قائلاً « فهمت ثم ماذا . . . ؟ »

قال « فالعقيق مجتمع اهل الرخاء من اليثربيين وهو يذكرني بايام الشباب فقد كان العقيق موعدنا للقاء بنساء المدينة . . . . لا تغضب يا سيدي اننا سائرون الآن جنوباً نحو المدينة والعقيق في طريقنا اليها . . . »

الفصل الثلاثون

قيافة الاثر

فاستغرب حسن بعده عن المدينة من جهة الشمال وعلم انهُ صار على مسافة بعيدة من المكان الذي ترك سليمان واباه فيهِ فقال للشيخ « هلمَّ بنا اذًا » فمشيا والراعي مع شيخوخته اسرع عدوًا من حسن لانهُ تعود المشي في الوعر . اما حسن فلما صعد من ذلك الوادي التفت الى السماء وتبين الكواكب فعلم انهُ في اواخر الليل فبغت لضياع الوقت وهو لم يعمل عملاً بعد وتشاءم مما تأتى لهُ في ذلك المساء وهو انما امسك عن رؤية حبيبته رغبة في المسير الى مكة على عجل فكيف بعد قضاء كل الليل في المشي والقلق يعود الى الورا

قضى مدةً وهو سائر في اثر الراعي على ارض اكثرها من الرمال وبعضها رطب بما يرشح فيهِ من الماء وفكره تائه في امثال هذه الهواجس حتى رأى نجم الصبح قد طلع فعلم ان الفجر دنا ثم رأى الراعي وقف واشار اليهِ قائلاً « ألا ترى الماء امامنا عن بعد . ؟ »

قال « اني ارى سطحًا لامعًا وكأني أرى فيهِ سماء اخرى من انعكاس انوار الكواكب »

ولما رأى حسن الماء شعر بانشراح الصدر واستبشر ببلوغ امنيته وجعل يتفرس في ضفاف ذلك الماء لعلهُ يرى اناسًا او جمالاً فلم يرَ شيئًا . ثم سمع الراعي يقول « ها اننا على ضفاف العقيق ولا نرى فيهِ احدًا سوى آثار اناس كانوا هنا ورحلوا في اوائل الليل فاقعد على هذا الحجر واغسل رجليك في هذا الماء واسترح ريثما آتيك بالخبر »

قال « دعني اسير معك »

قال « لا . . . امكث عندك واغسل رجليك وانا اعود اليك على عجل فاني لا اتحقق الامر حتى اطوف حول هذا الماء . فلا حاجة الى مسيرك معي فقد تعبت ولو كنت في عنفوان الشباب لان اهل المدن لا يقوون على المسير مثلنا » قال ذلك والتحف العباءة وسار وحسن يتبعهُ بنظرهِ حتى توارى . فعاد حسن الى هواجسهِ ولكنهُ ما لبث ان سمع الشيخ يناديه فنهض واسرع حتى اقبل عليهِ فاذا هو واقف تحت شجرة منبسطة الاغصان وقد قبض بيده على شيء وهو يقول « متى خرجت من المدينة . . ؟ »

قال حسن « نحو الغروب »

قال « هل اطعمت الجمل قبل خروجك »

فتحير حسن بماذا يجيب لانهُ وكل امر الجمل الى خادمهِ فقال « اظن الخادم اطعمهُ »

فبسط الشيخ يدهُ واذا فيها ابعار فقال « ان هذه الابعار لجمل من جمال المدينة جاء وحده الى هذا المكان من مدة قصيرة ورجع »

فاستغرب حسن حكمهُ في الامر بناتاً وقال « وكيف عرفت ذلك .. ؟ »

قال « عرفتهُ من هذه الاوساخ فان فيها النوى وهو علائف جمال المدينة لان النوى كثير عندهم . ويظهر من قلة جفافها انها وضعت من عهد قريب . ولم ار واضعها فبالطبع انهُ عاد »

فوجد حسن كلامهُ معقولاً ولكنهُ لم يقتنع ان الجمل الذي يشير اليهِ هو جملهُ اذ لا يبعد ان يكون جمل اناس آخرين فقال لهُ « وما الذي ينبئك انهُ جملي وليس من جمال اناس مروا بهذا المكان الليلة »

فضحك الشيخ وقال « لو كانت ابعار جمال كثيرة لرأيناها اصنافاً والوانًا . واذا سلَّمت انها لجملٍ واحد قلت لك ان هذا الجمل لم يقم هنا الاَّ قليلاً . واي جمل من جمال اهل المدينة يخرج الى هذا المكان بعد منتصف الليل الاَّ ان يكون فارًّا مثل جملك .. ؟ »

فاعجب حسن بنباهة اهل البادية وتذكر اشتهارهم بقيافة الاثر ولكنهُ ما زال مشككاً في ان يكون ذلك الجمل جملهُ فقال « لا أرى مانعًا من ان بعض اهل المدينة خرج الليلة على جملهِ يلتمس بعض الاحباء . فمرَّ بالعقيق ليشرب او يسقي جملهُ او يستريح »

قال « قد يكون ذلك ولكن في غير ما اراه من حال هذا المكان . لاني لا أرى على الارض آثار خطى الادميين ... »

فقطع حسن كلامهُ وقال وهو يظن نفسهُ افحمهُ « الظاهر ان الراكب لم ينزل عن جملهِ وانما وقف بهِ ريثما شرب ثم ساقهُ »

فقال « لا يمكن للجمل ان يقف تحت هذه الاغصان المدلاة وعليهِ راكب لانها تمس ظهر الجمل بانبساطها وانحنائها وليس عليهِ احد »

قال حسن « وربما برك الجمل »

قال « لو فعل لشاهدنا آثار ركبهِ ... فما الجمل الذي مرَّ من هنا الاَّ جملك واذا

صبرت هنيهة أريتك الطريق الذي سار فيهِ فيهون عليك طلبهُ »

قال « وكيف ذلك » وكان الفجر قد لاح وتبينت الارض جيدًا فنظر حسن الى ما حولهُ وراجع ما قالهُ الشيخ فترجح لديهِ قولهُ وتحقق ما كان يسمعهُ عن مهارة اهل البادية في قيافة الاثر فلبث ليرى ما يفعلهُ الشيخ فاذا هو قد مشى خطوات قليلة ثم قال « انظر الى هذه الخطى فانها آثار خفاف جمل يعدو عدوًا سريعًا كأنهُ يسير طرادًا — يدلك على ذلك عمقها وعدم انتظامها . . . ويظهر لي ان الجمل عاد الى المدينة »

الفصل الحادي والثلاثون

وجدناه ضائعًا

فالتفت حسن الى يساره وقد بان الصبح فاذا هو مشرف على المدينة عن بعد ولا يرى بدًّا من الذهاب اليها . فتذكر حبيبتهُ فيها ولكنهُ عاد الى الافتكار في امر الجمل فقال « اني لأستغرب ما رأيتهُ اليوم من جملي ولم يكن عهدي بهِ مثل ذلك من قبل »

قال « للجمال طبائع غريبة وقد يكون الجمل هادئًا ساكنًا فلا تراه الا وقد دلق لسانهُ وارغى وازبد واركن الى الفرار كأنهُ اصيب بجنة وقد يصيبهُ ذلك على اثر خوف او رعب او تعب او جوع . ومهما يكن من الامر فاطلب جملك في المدينة . واما انا فاني استاذنك في العود الى ماشيتي مخافة ان يكون قد اصاب ابلي ما اصاب جملك وهي وحدها هناك الا غلامًا وامهُ تركتهما لحراستها »

فانثنى حسن على الشيخ وودعهُ وسار يلتمس المدينة وقد انهكهُ التعب والقلق واحس بالجوع وتشاءم مما اتفق لهُ فعوَّل على ان يسير تؤدًا الى المسجد للصلاة والتبرك ثم يبحث عن الجمل . ثم تذكر حديث سليمان وابيهِ وما فيهِ من الاشارة الى الفتك بهِ فمال الى استطلاع سر أبي سليمان قبل دخول المدينة لئلا يكون فيهِ ما يمنعهُ من دخولها . فسار يلتمس المكان الذي تركها فيهِ بالامس . فاستشرف عن اكمة قرب سور المدينة فرأى قرب المستنقعات شيئًا كالجمل البارك ثم ما لبث ان سمع جعجعة فأسرع حتى دنا من الجمل فاذا هو جملهُ بعينهِ وقد وقع عند حافة المستنقع وكسر فخذهُ ولم يعد يستطيع النهوض

ولكنهُ رآهُ عاريًا لا رحل على ظهرهِ ولا خطام في رأسهِ فشك في ان يكون جملهُ بعينهِ وظنهُ جملاً آخر يشبههُ فنفرس فيهِ جيدًا فلم يرَ فرقًا بينهُ وبين جملهِ . ثم تذكر ميسمهُ وهو العلامة التي يسمون بها الجمال بسمات القبائل . فنظر في الميسم فاذا هو الميسم الذي يعرفهُ فتحقق انهُ جملهُ وانهُ لم يعد يقوى على المسير . فلم يهمهُ ضياعهُ وود لو ان الراعي رافقهُ الى هناك ليهبهُ الجمل فينحرهُ لاهلهِ — ولكنهُ فكر في الرحل وما كان عليهِ وما في جيبهِ وخصوصًا كتاب خالد بن يزيد فزاد تشاؤمهُ من تلك السفرة وقال في نفسهِ « لم يعد لي وطر في المدينة الآن » . ووقف برهة ثم مشى نحو الجهة التي ترك فيها سليمان مطروحًا ووالدهُ بجانبهِ فرأى المكان خاليًا الاَّ آثار الدم على صخر منبسطٍ ورأى بجانب الصخر ثوبًا معفرًا فرفعهُ فاذا هو القباء وقد تلوث بالدم وتمزق قطعًا قطعًا فاستغرب تمزقهُ فطرح بقاياه وفكر في امر سليمان والكتاب فقال في نفسهِ « لعل أبا سليمان عثر على الجمل وهو سائر الى المدينة فلما رآهُ معطلاً حمل رحلهُ معهُ على نية ان يدفعهُ اليَّ عند الملتقى . » فارتاح حسن الى ذلك الفكر وهدأ اضطرابهُ وترجح لديهِ ان ابا سليمان حمل ابنهُ الى منزلهِ في المدينة لمداواتهِ فعوَّل على الذهاب اليهِ

وفيما هو ماشٍ نحو المدينة رأى غبارًا يتطاير في عرض الافق مما يلي طريق مكة فوقف ينتظر ما يكون فاذا هو بثلاثة من الابل عليها ثلاثة رجال قد تلثموا وساقوا الهجن سوقًا عنيفًا ثم سمع قرقعة اللجم فعلم انها ابل البريد [1] اذ كان لدواب البريد عندهم قرقعة خاصة كأن ارسانها من سلاسل الحديد او لعلهم كانوا يعلقون في اعناقها جلاجل او نحوها . فمكث هنيهة ريثما مرَّ البريد فعلم من لباس الرجال وهيأة الركوب انهم من العراق فترجح عندهُ انهُ بريد الحجاج بن يوسف الى عامل المدينة

الفصل الثاني والثلاثون

سليمان وابوه

فلما مرَّ البريد سار هو في أثرهِ يلتمس بيت سليمان من أقرب الطرق فوصلهُ حالاً فلما وصل الدار استفهم عن سليمان فقيل لهُ انهُ مريض فتحقق انهُ هناك فاستأذن واقبل

(١) الفخري

على حجرة رأى فيها سليمان متوسدًا وابوه الى جانبه فخلع نعليه بالباب ودخل فوقف له ابو سليمان و رحب به واراد سليمان النهوض فامسكه حسن واجلسه وجلس على طرف الفراش الى جانبه وجعل يسأله عن حاله فطمأنه انه احسن كثيرًا وان الفضل في شفائه له . فقال حسن « ولا اظن المصيبة جاءتك الاَّ على يدي »

فقال سليمان « اشكر الله لانه نجاك من هذا الخطر ايضًا »

فتقدم ابو سليمان للحال والدمع ملء عينيه وقبل حسنًا وقال له « ألا غفرت زلتي يا بني فان الله قد تهددني بالقصاص حتى خوفني ضياع ابني ووحيدي ولكنني اشكره على السلامة ولأنه اكسبني ابنًا آخر . . . »

فنظر حسن الى ذلك الكهل فاذا هو على ما وصفناه من طول القامة ونحافة العضل وقصر اللحية وصغر العمامة ولكنه رأى في وجهه دلائل السويداء وانقباض النفس حتى اذا ابتسم انما يبتسم تكلفًا واذا تُرك ساعة او ساعات ظل صامتًا لا يفوه كأنه يفكر في مصاب محدق به

ثم سأله عما كان من سبب غيابه فقص حسن عليهما الحديث مختصرًا . وكان يتكلم وابو سليمان يصغي اليه وهو مثبت بصره فيه وكأنه لم يعره كل انتباهه . فلما جاء على آخر الحديث وذكر لقاء الجمل وضياع الرحل قال « فلما رأيت جملي بلا رحل على مقربة من المكان الذي كنا فيه ظننتكم عثرتم على الجمل ورأيتموه معطلاً فحملتم رحلته معكم لتحفظوه لي فهل صادف ظني مكانه ؟ »

قال ابو سليمان « كلا يا ولدي فاننا عدنا في الليل ولم نلتفت يمنة ولا يسرة لانشغال بالنا بجرح اخيك سليمان . . وانت هل وصلت الى المكان الذي كنا فيه . . ؟ »

قال « نعم وصلت اليه فرأيت أثر الدم ووجدت القباء ممزقًا وعليه جلط الدم فعجبت لتمزيقه »

فقال « الرجل لا تعجب يا ولدي لتمزيقه لانه مزق قلبي فانتقمت منه فاعذرني ولو كان قباءك . . . »

فاستغرب حسن ذلك وقال له « عزمت عليك أن تقص علي خبر هذا القباء »

فقال له « اعفني من خبره واقنع بما قلته ولو تلميحًا »

قال « وما ذا قلت ؟ »

قال « ألم أقل لك ان هذا القباء هو الذي مزق قلبي لانهُ كان دليلي الى الفريسة المطلوبة فاذا هي ولدي وفلذة كبدي . . ؟ »

الفصل الثالث والثلاثون

انكشاف الحقيقة

فنطن حسن لامور كثيرة كانت في محل الشك عندهُ وتذكرانهُ ما في العالم احد يعلم بوجود ذلك القباء معهُ غير عمهِ عرفجة لانهُ أخذهُ من عندهِ ولم يلبسهُ قط . فاحناطت بهِ الشكوك وتناوبتهُ الهواجس وظل صامتًا برهة لايتكلم . . . ثم قال « ألانقول لي من أمرك بقتلي . . ؟ أرى أن تقول لي لئلاَّ انهم اناسًا أبرياء . . . قل ولو اجمالاً »

قال « اعلم يا ولدي اني أمرت من اعظم رجل في هذه المدينة وهو صاحب السلطان الاقوى فيها »

ففهم حسن انهُ يريد عامل المدينة طارق بن عمرو وكان يعلم بما بين طارق وعرفجة من العلائق الودية . فترجح لديهِ ان لعمهِ هذا دخلاً في هذه الخيانة لكنهُ كتم ما في نفسهِ وعوَّل على الصبر الى الفراغ من مهمتهِ الى مكة

واراد سليمان أن يذهب الانقباض عن صديقهِ فقال لابيهِ « كيف رأيت هذا الصديق يا والدي »

فتنهد ابوه وحاول الابتسام وهو يقول « لم أكن اشك في ما قلتهُ لي ولكن سوء حظي سافني الى ما ارتكبتهُ ولكني احمد الله على خلاصنا من هذا الخطر » ثم التفت الى حسن وقال « واما أنت فاعتذر اليك لتعمدي قتلك عن غير معرفة بك ولا اظنني دفعت الى ارتكاب ذلك الاَّ بما جنيتهُ من الذنب برجوعي عن المطالبة بدم ذلك المقتول ظلمًا » قال ذلك وشرق بريقهِ فسكت برهة وحسن ينظر اليهِ ويعجب ثم عاد ابو سليمان الى الكلام فقال « كنت من النوابين الذين ندموا على تخلفهم عن الحسين رحمهُ الله حتى قتل ظلمًا في سهل كربلاء ولكنني لم اثبت على توبتي فانتظمت في خدمة الذين قتلوهُ . فلا ريب ان عملي لم يرض الحق سبحانهُ وتعالى فما عليَّ الآن تكفيرًا عن ذلك الاَّ تكريس ما بقي من حياتي لنصرة اعدائهم وقد بلغني انك صائر الى مكة فهل ترى في رفقتي نفعًا لك . والاَّ فاني هائمٌ على وجهي في هذه الصحراء . . . . . »

فقال حسن « اذا رافقتني فاني آنس بك واتخذك والدًا لي لان سليمان أخي ولكنني أرى ان .... » وسكت كأنه أراد التكلم واسكتته الحياء

فقال ابو سليمان « تكلم يا بنيَّ ولا تخف فاني بمنزلة ابيك بل أنا خادم لك ولا استنكف من أمر اجريه في خدمتك .. قل ما بدا لك »

قال حسن « اذا كنت ترى ان تتفضل عليَّ وتعاملني معاملة الوالد لولده فان لي عندك غرضًا استحيي ان اكلفك به »

قال « لا تستح يا بنيَّ ... قل »

قال « احب فتاة في هذه المدينة وقد خطبتها وانا مضطر للسفر قبل العقد عليها ولا يخفى عليك قلب مثلي في هذه الحال ... »

قال « نعم ... ماذا تريد مني هل تريد ان اوقف نفسي لخدمتها ؟ . »

قال « كلاَّ فانها في بيت والدها ولكنني ... قليل الثقة بمن هم حولها .. »

قال « من هي الفتاة ومن هو والدها انقول لي ؟ .. »

فوجم حسن برهة ثم قال « اذا لم يكن بد من معرفتك اسمه — ولا ارى بدًّا من ذلك — فاخبرك انها سمية ابنة عرفجة الثقفي »

فلم يتم حسن قوله حتى بهت ابو سليمان وامتقع لونه او زاد امتقاعًا وأطرق وصارت لحيته ترقص في صدره وكان حسن يلاحظه وقد أدرك ما جال في خاطره . وجعل ابو سليمان يهم بالتكلم ثم يمسك نفسه لانه كان يرى عرفجة يتردد الى مجلس طارق ويساره وعرفجة مشهور في المدينة بخيانته وسوء نيته

اما حسن فلم يمهله ريثما يتكلم فابتدره قائلاً « لا اكلفك باطلاعي على شيء تظنه سرًّا فقد فهمت وفهمتَ وهذا يكفي . أما الفتاة فانها خطيبتي والعهد بيننا شديد الوثاق لا يمكن ان يثنيها او يثنيني شيء . وانما اتقدم اليك ان تتوصل الى البحث عنها والاستفهام عن أحوالها وهذه وصيتي اليك فاذا قبلتها كان ذلك فوق ما اتمناه »

فقال ابو سليمان « انا على ما تريد واعلم اني اهتم بهذا الامر اهتمامي بولدي هذا ... كن في سكينة وراحة بال »

فلما فرغ حسن من امر سمية عاد الى التفكر في الكتاب والخادم فتبادر الى ذهنه انه ربما لقي خادمة في المدينة فيساعده على البحث عن الكتاب وعول اذا لم ير الخادم ان يسير بنفسه ويكتفي بالبلاغ الشفاهي لعبد الله بن الزبير ويرى ما يكون . فنهض

واعتذر بعزمه على السفر . فقال له ابو سليمان « اذا لم يكن بدٌّ من سفرك فاجعلهُ من غير الطريق الذي رحنا فيهِ بالامس — اخرج من باب آخر وانا أُرسل معك خادمي يهديك الى الطريق ويسوق جملك بدلاً من خادمك واقدم لك جملاً احسن من جملك فانعم بالاً وكن على ثقة اننا انا وسليمان في خدمتك حتى تبلغ مرامك .. »

ثم نادى « بلال » فجاء عبد خفيف السواد حسن الملامح كأنهُ مولَّد وما هو زنجي بحت لتناسب اعضاء وجههِ فقال لهُ هيِّئ الجمل الاشرم واملأ القرب ماء واعدد زاد السفر» فذهب بلال ثم عاد وقد أعدَّ كل شيء فقال ابو سليمان لحسن « اذا كان لا بدَّ من سفرك فسر على عجل ولا تقف او تسترح حتى تبعد عن المدينة ... »

فقطع حسن كلامهُ وقال « وقد فاتني ان اخبركم عن ابل البريد فقد رأيت ثلاثة منها دخلت المدينة في هذا الصباح واظنها قادمة من مكة .. »

قال ابو سليمان لا يبعد انهم جاؤا بطلب نجدة او مدد او خبر فتح او غير ذلك وعلى كل حال فاني سانتقل من هذا البيت الى سواه واختفي يومين او ثلاثة حتى لا يراني أحد لئلا يطلبوني للمسير معهم .. »

ثم ودعهم حسن وركب الجمل وسار بلال في ركابهِ وبود حسن لو يعيد النظر الى سمية قبل سفره ولكنهُ اراد العجلة وخاف الوقوع في ما هو اشر من ذلك

الفصل الرابع والثلاثون

سمية في منزل سكينة

فلنترك حسنًا سائرًا الى مكة مع بلال ولنعد الى المدينة لنرى ما كان من امر سمية بعد سفره فقد تركناها عائدة الى بيت سكينة ومعها عبدالله خادم حسن يسير في خدمتها . فلما وصلا الى باب البيت قالت لهُ سمية « قد وصلت الى مأمني فانصرف » وكانت قد استأنست بهِ لانهُ ثقفي مثل والدها . فلما ودعها للانصراف قالت لهُ « قد علمت يا عبد الله منزلة حسن مني فاحتفظ بهِ وكن صادقًا في خدمتهِ »

فقال « اني عبدك وعبده يا مولاتي ولا يهون عليَّ الاَّ ما يرضيكما ثقي اني افديكما

بروحي ... »

فاطمأنت سمية واشارت براسها اشارة الوداع فتحول عبد الله وسار مسرعاً يلتمس باب المدينة ليتبع سيده

اما سمية فانها اقبلت على باب سكينة وعند الدواب والخدم والناس لايزالون هناك حوالي العشاء فتظاهرت انها كانت في بعض جوانب المنزل وسارت الى مجلس سكينة وفيه ليلى وغيرها فرحبت سكينة بها وسألتها عن سبب تخلفها . فقالت لاني كنت منشغلة في بعض الغرف هنا فقالت لها ليلى « قد بحثنا عنك فلم نجدك الا تظني والدك يستبطئك »

قالت ربما استبطأني ولكنني هنا في مأمن من غضبه ومتى استبطأني بعث في اثري »

فلما سمعتها سكينة تقول ذلك امسكتها بيدها وجرتها الى جانبها حتى أقعدتها معها على الوسادة وضمتها وقبلتها وقالت لها « اهلاً بك يا سمية انك من اعز الاحباء » وكانت سكينة تستلطف سمية وتحبها وتغار عليها

فقالت سمية « لا حرمنا الله من محبتك يا بنت سبط الرسول ان اقامتك في هذه المدينة بركة وسعادة لنا جميعاً »

ثم جاء الخدم يدعون سكينة الى المائدة وقد مدت الاسمطة كجاري العادة فقاموا للعشاء . واما سمية فعادت الى هواجسها واستغربت سكوت والدها عنها الى ذلك الحين . ثم خطر لها انه غائب عن البيت وهو يحسبها فيه . فرأت ان تستاذن سكينة في من يوصلها الى البيت فاذنت لها وبعثت معها بعض الجواري

وصلت سمية الى باب البيت فقرعته قرعة يعرفها الخدم فاسرعت جارية الى فتحه واستقبلت سيدتها وهي تقول « لقد أبطأت علينا الليلة وشغلت بالنا » وكانت تلك الجارية حبشية الاصل اسمها امة الله وكانت تحب سمية كثيراً وسمية تستأنس بها وتكرمها فلما أبطأ قدومها في تلك الليلة انشغل بال الجارية كثيراً ولم تستطع رقاداً فلما طرقت سمية الباب كانت هي اول من سمعه

فلما دخلت سمية ترامت أمة الله عليها وقبلتها ورحبت بها فقالت لها سمية « الم يأت والدي ؟ »

قالت الجارية « جاء نحو الغروب ودخل الحجرة المعلومة واقفل الباب عليه وهو لا يزال هناك ولا يدري احد ماذا يعمل لانه انار السراج وحمله بيده الى الغرفة على جاري العادة

فدخلت سمية غرفتها وخففت ثيابها لتوهم والدها اذا رآها انها في البيت من مدة طويلة. ولم تستغرب مكثهُ في تلك الحجرة طويلاً لانهُ كثيرًا ما كان يفعل ذلك وأهل البيت يستغربون تكتمهُ ولا يعرفون ما في تلك المخبأة المخزونة هناك. ولولا خوفهم من غضبهِ واستبداده لتوصلوا الى فتحها ولكنهم كانوا يخافون سطوتهُ لعلمهم بظلمهِ وشدة وطأتهِ

فرأت سمية أن تلجأ الى الفراش وتنام قبل خروج والدها من مخبأهُ مخافة أن يراها ويسألها عن سبب غيابها وربما ساء الظن بها فجلست على فراشها واستدعت امة الله وطلبت اليها ان تمشط شعرها قبل النوم فجثت الجارية وراء ظهرها وجعلت تسرّح الشعر وتمشطهُ وسمية مستقبلة باحة الدار بوجهها وكانت سمية ترتاح الى محادثة امة الله ببعض الشؤون الخصوصية فقالت لها وهي تمشطها « هل شغل بالكم غيابي الليلة »

قالت « نعم يامولاتي وخصوصًا لانك قلما تطيلين الغياب وبالاخص بعد ان جاء عبدالله للسؤال عنك »

قالت « وأيّ عبدالله ؟ »

قالت « الرجل الذي جاء في صباح هذا اليوم . . . »

فعلمت سمية انهُ عبدالله خادم حسن فبغتت لعلمها انهُ فارقها مستعجلاً للحاق بسيدهِ فأدارت وجهها الى الجارية وقالت لها « متى جاء »

قالت « جاء قبل وصولكِ بقليل . . »

قالت « وهل جاء وحدهُ . . ؟ »

قالت « لم أرَ معهُ أحدًا »

ففكرت سمية في الامر فوجدت انهُ جاء بعد أن فارقها بساعة أو ساعتين فتبادر الى ذهنها انهُ لم يأت الاَّ لامر ذي بال — اما لغرض أرادهُ حسن منها واما لشرّ أصابهُ فتفاطرت عليها الهواجس واستغرقت في الافتكار وعادت الجارية الى تمشيطها وهي في غفلة عن كل ذلك

وفيما سمية غارقة في لجج الهموم لاحت منها التفاتة الى تلك الباحة فرأت فيها نورًا يتحرّك ثم سمعت صوت باب يُقفل فعلمت ان والدها خرج من تلك الحجرة السرّية. ثم رأت النور يختفي وسمعت تصفيقًا فعلمت ان والدها يدعو الخادم فخافت ان يكون عازمًا على استدعائها فتظاهرت بالميل الى الرقاد وقالت للجارية « لم يعد لي طاقة بالجلوس فقد اخذ مني النعاس مأخذًا عظيمًا فاتركيني لانام واذا سأل عني والدي قولي

لهُ اني نائمة من مدة طويلة » ففهمت الجارية غرضها فضحكت ضحكة مخفية لم تخرج صوتها وقالت لها « لا تهافي (اي لا تخافي) »

وتوسدت سمية وتظاهرت انها استغرقت في النوم وبعد قليل سمعت الخادم يسأل الجارية عنها وسمعتها تقول لهُ انها نائمة فانصرف

واصبحت في اليوم التالي وهي لا تزال مائلة الى النوم فظلت في الفراش . ونهضت في الضحى فجاءتها جاريتها بماء للغسل وطعام فسألتها عن والدها فقالت « أفقت قبيل الصبح على قرع الباب ثم علمت ان بعض الناس جاؤا يطلبون سيدي على عجل فخرج وهو لم يتم لف عمامتهِ فالظاهر انهُ طلب لامر مستعجل »

فأطرقت سمية وفكرت قليلاً فحدثتها نفسها ان هذه الدعوة علاقة بخطبيها . ولما تذكرت سوء قصد والدها وما سمعتهُ من قدوم عبدالله اليها بالامس تبادر الى ذهنها ان شرًّا عظيماً اصاب حسنًا — وذلك شأن المحب وهو بعيد عن حبيبهِ فانهُ يكاد لا يطمئن بالهُ عليهِ واذا سمع احدًا يذكرهُ لا يتبادر الى ذهنهِ الاَّ خبر السوء وقد يفسر الاشارات ويحل الرموز ويؤوّل الحوادث ولكنهُ قلما يؤوّلها الى الخير — فكيف بسمية وهي تعلم ما ينويهِ والدها لخطيبها . فلم تتناول من الطعام الاَّ قليلاً ومكثت جالسة تود البحث عن سبب ذهاب والدها وتخاف ان تسمع السبب لئلا يكون فيهِ ما يسوؤها

الفصل الخامس والثلاثون

لطفٌ مخيف

قضت معظم ذلك النهار في القلق والاضطراب وهي تارة تمشي في الدار وآونة تخرج الى البستان وهي تتوقع ان ترى عبدالله آتيًا أو تسمع خبرًا جديدًا . ثم سمعت اذان العصر فالتفتت الى صوت الآذان وهو من جهة باب البيت فرأت والدها داخلاً والبغتة بادية على وجههِ فخفق قلبها ولبثت تنتظر ما يبدو منهُ . فدنا منها وابتسم وناداها اليهِ فتبعتهُ وهي لا تزال في اضطراب ولكنها تظاهرت بالارتياح حتى اقبل على غرفة الجلوس فوقف بالباب وخاطب سمية وهو ينزع نعالهُ قائلاً « كيف قضيتُ يومك البارحة عند سكينة »

قالت وهي تتبعهُ الى وسادتهِ التي تعود الجلوس عليها « قضيتهُ براحة ولكنني عدت وانت منشغل في الحجرة فنمت ونهضت في هذا الصباح فقيل لي انك خرجت بدعوة مستعجلة فانشغل بالي »

فقطع كلامها مبتسماً ودعاها الى الجلوس بجانبهِ والابتسام لا يليق بذلك الوجه المملوء خبثاً وغشاً . فلما جلست قرّبها منهُ وضمها وقبلها فأحست ببرد شفتيهِ وانقشعرّ بدنها لاحتكاك شعر لحيتهِ بذقنها وعنقها لعظم ما كانت فيهِ من التهيج العصبي الناتج عن القلق ولكنها قبلت يدهُ فاذا هي ابرد من شفتيهِ على انها توقعت ان تسمع منهُ شيئاً بعد هذا التمليق فاذا هو يقول لها « اظنكِ انقبضتِ من طول المكث في هذه المدينة »

قالت « اذا كنت انت في خيرٍ وسعادة فكل حال ترضيني »

فأعجبهُ قولها وألقى يدهُ على كتفها وجعل يلاعب شعرها بين انامله ثم قال « بورك فيكِ من ابنةٍ مطيعة ان مثل هذا القول يجبر قلب الوالد . هذا هو البرّ الذي كنت ارجوهُ منكِ . فالحمد لله ان الفكر الذي كان يخامر ذهنكِ قد زال الآن وعدتِ الى ما هو جدير بأمثالك من الرجوع الى خواطر آبائهنّ في كل شيء »

فتوهمت سمية عند ذلك التعريض أن صخرة وقعت على رأسها ثم أسرع خفقان قلبها . ولو فقه والدها وهي مستلقية على صدره لسمع دقات قلبها او شعر بها او لأدرك اضطرابها على الاقل او لعلهُ ادرك وتجاهل خبثاً ورياء . ثم قال ولم يترك لها مجالاً للفكر « أتذهبين غداً لترويح النفس في العقيق فانهُ منتزهٌ جميل ؟ ... نأخذ طعامنا وشرابنا ونقضي يومنا هناك »

فعجبت سمية لذلك الاعتناء وان كان من والدٍ لان والدها يندر ان يخاطبها بالحسنى او يلاطفها الاَّ اذا اراد منها امراً حتى اصبحت لا تسمع منهُ ملاطفة الاَّ توقعت شرًّا ولكنها لم تكن تستطيع غير مداراتهِ فقالت « اشكرك يا ابي على هذه العناية ... »

فقطع كلامها وقال « لا حاجة بي الى شكركِ يا بنية فاني ابوك وهذا هو شأن الآباء فلنذهب غداً صباحاً وسأخبر الخدم ليعدوا لنا خياماً وطعاماً ويسيروا امامنا الى العقيق قبل الفجر ثم نركب انا وانتِ عند طلوع النهار نقضي يومنا في العقيق فقد مللنا المدينة واسواقها ونخيلها » قال ذلك بنغمة الاب الحنون فلم يسع سمية الاَّ مجاراتهُ على انها كانت اشد حاجة منهُ الى الفلاة وخطر لها ايضاً انها ربما استطاعت في اثناء مرورها بالشوارع والطرق ان ترى عبد الله او تستطلع خبرًا عنهُ او عن حسن » فاثنت

على والدها وقبلت يدهُ فقبلها . ثم ضفق فجاءهُ عبدٌ اسود كان عرفجة قد فوّض اليهِ ادارة شؤون منزلهِ وجعلهُ رقيباً على اهل بيتهِ . وكان ذلك العبد قبيح الخلقة عظيم الشفة السفلى افطس الانف يكاد الشرر يتطاير من عينيهِ . يندر ان يبتسم واذا فعل فانهُ يكشر عن انيابهِ تكشيرًا فلما وقف بين يدي عرفجة قال لهُ « يا قنبر اننا عازمون على الخروج في صباح الغد الى العقيق فاعدد ما يلزم لذلك من الخيم والاطعمة وهيئ الهودج لركوب سمية واذهب انت والخدم عند الفجر ونحن نلحق بكم عند طلوع النهار » .

قال « الامر لمولاي » وخرج

ثم نهض عرفجة ودخل الحجرة السرية وتحولت سمية الى غرفتها وطلبت من جاريتها امة الله ان تنهيأ لمرافقتها في صباح الغد في الهودج لانها تستأنس بها دون سواها

الفصل السادس والثلاثون

معسكر طارق

باتت سمية تلك الليلة فتوالت عليها الاحلام المزعجة فرأت حسنًا في خطر ورأت مناظر مخيفة فنهضت وهي في اضطراب شديد فاذا والدها قد خرج وتهيأ للرحيل وجاءتها الجارية فمشطتها والبستها ثيابها . وركبت سمية الهودج فوق الجمل والجارية معها وركب والدها بغلة وساروا وقد امسك بخطام الجمل غلام من خدمة المنزل

وجعلت سمية منذ خروجهم وهي تطل من خلال الستور الى الطرق تتفرس بالمارة فاستغربت امة الله ذلك منها لعلمها بحشمتها . وزاد استغرابها شدة ما يبدو في وجهها من القلق . فلما خرجوا من باب المدينة بالغت سمية في التطلع نحو الطريق الذي يؤدي الى مكة لعلها ترى أثرًا او تستطلع خبرًا . فرأت بجانب باب المدينة خيامًا ورايات وخيولاً وجمالاً وقد تفرق العبيد بين النخيل وحول المستنقعات يجمعون العيدان للوقود فاندهلت ولم تفهم أمر هذا المعسكر فلم تر بدًّا من استفهام والدها فنادتهُ فلم يجبها فاخرجت رأسها بين الستور لتبحث عنهُ فاذا هو قد أركض بغلتهُ نحو المعسكر فظنت انهُ ذهب لاستطلاع الخبر فامرت الغلام ان يظل في مسيره . فسار حتى بعدوا عن المعسكر

وسمية لا تزال تشرف على الطرق وتتطلع الى كل جهة والقلق باد في عينيها

وفيما هي تتطلع سمعت جعجعة جمل يتألم فالتفتت فرأت جمل حسن الذي ذكرنا أمره ولم تكن هي تعرفهُ لانها لم تره الاَّ في اثناء مقابلتها حسنًا في المساء. ولكن بالنظر الى هول تلك المقابلة انغرس في ذهنها كل شيء شاهدتهُ في تلك الليلة — وذلك طبيعي في الانسان فانهُ اذا جرى لهُ حادث اثر في عواطفهِ يتطبع الحادث وكل مارافقهُ من المشاهد والاحاديث في ذهنهِ — فاذا رأى شيئًا من تلك المشاهد او سمع حديثًا من تلك الاحاديث تذكر كل مارافقهُ . فلما رأت سمية الجمل خفق قلبها كانها تنسمت منهُ رائحة الحبيب فأوقفت الهودج عندهُ ونظرت اليهِ فرأت انهُ ان لم يكن جمل حسن فان يشبههُ كثيرًا . على ان هواجسها رجحت انهُ هو هو بعينهِ فنفضَ شعرها وجعلت تفكر في حالها وتصورت حسنًا مقتولاً وقد اخذ قاتلوهُ رحل الجمل وخطامهُ وتركوهُ . فلما تصورت ذلك تساقطت الدموع رغماً عنها وهي تحاول امساكها

وكانت امة الله تلاحظ قلق سيدتها ولكنها لم تجاسر على الاستفهام الاَّ لما رأت دموعها تتساقط فقالت لها بصوتها الناعم الرخيم مع ما فيهِ من صبغة العجمة « ما بالك ياسيدتي تبكين لا أراك الله سوءًا ... قولي ما بالك ؟ »

فلما سمعت سمية سؤال الجارية لم تتمالك عن البكاء حتى علا صوتها فأمسكتها امة الله وقبلت يدها وقالت لها « بالله كفي عني البكاء واخبريني ما سبب ذلك اطلعيني على سرك لعلي انفعك في شيء ... قولي لي »

فتنهدت سمية ومسحت دمعها بكمها من فوق الاساور والدمالج فذهب الكحل من عينيها ولو لم يكن لون ردائها قاتمًا لبان الكحل عليهِ . فلما انتهت نوبة البكاء وهدأ روع سمية التفتت الى خارج الهودج فلم تجد والدها عاد ولا رأت أحدًا يسمعها فقصت على جارينها الحديث مختصرًا واطلعتها على مكنون قلبها فأحست للحال ان المصيبة خفت عنها . فشاركتها الجارية بالبكاء ثم لامتها على مناساة كل ذلك لمجرد الظن . وقالت لها « لم تحققي ان هذا الجمل جملهُ ولكن هبي انهُ جملهُ فما ادرانا انهُ اصيب بسوء .. ؟ واما ما تظنينهُ من امر سيدي والدك فمع علمي بقساوتهِ فأرى ايقاعهُ بصهرهِ بعيدًا . ومع ذلك فلا يجوز الحكم بمجرد الظن . ولا أحسب هذا الجمل الاَّ لبعض أهل هذا المعسكر انكسر فتركوهُ .. »

فارتاح فكر سمية لهذا التعليل ولكنها عادت الى الافتكار بعبدالله ورجوعهِ الى منزلها في تلك الليلة فقالت « ولكن ماهو سبب رجوع الخادم الينا في تلك الليلة ... ؟ »

قالت الجارية « قد يكون انهُ جاءك برسالة من حسن فلم يجدك فعاد وسافر معهُ ولولا ذلك لرأيتهُ أمس . وقد مضى طول النهار وهانحن في ضحى اليوم الثاني ولم نرهُ »

فقطعت كلامها وقالت « انظنين اذا علم بسوء اصاب حبيبي ينقل ذلك الخبر اليّ . ؟ . »

وفيما هما في الحديث والجمل ماشٍ سمعتا وقع حوافر البغلة فعلمتا ان عرفجة عاد اليهما وبعد قليل وصل الى محاذاة الهودج فنادى سمية فأطلت وسلمت على أبيها فقال لها « العلي غبت عنك كثيرًا »

قالت « نعم يا سيدي وخصوصًا لاننا رأينا خيامًا وجمالاً وخيولاً فلم نفهم سبب هذه الحركة »

فأجابها وهو يحاول اصلاح الرسن في رأس البغل « ان هذا المعسكر معسكر طارق بن عمرو عامل المدينة وقد خرج برجالهِ وجندهِ قاصدًا مكة . . »

قالت « ولماذا ؟ . . »

قال « جاء بريد الحجاج بن يوسف بالامس يستنجد طارقًا و رجالهُ مددًا لهُ في حصار مكة وعما قليل يسافرون » قال ذلك وساق بغلتهُ وتظاهر انها ركضت من نفسها فانقطع الحديث . وسرّت سمية بانقطاعهِ لتعود الى الافتكار بحسن لعلها تلتمس تعليلاً يريح بالها عليهِ — والمرء ميالٌ الى التماس مثل ذلك التعليل والناس يتفاوتون في مقدرتهم على ذلك . فبعضهم اذا وقع في مصيبة هان عليهِ تطبيق عواطفهِ على تلك المصيبة فيجعل لنفسهِ مخرجًا من سوء عواقبها ومنهم من يزيده الافتكار قلقًا ولكنهُ لا يلبث وان طال قلقهُ ان يتصل الى حلّ يتوكأ عليهِ ريثما يرى ما يأتي بهِ القدر

وكانت الجارية قد رفعت استار الهودج منذ خرجوا من المدينة وبعدوا عن الناس وسمية تسرح نظرها في ماحولها من الهضاب والبطاح و برك الماء وغابات النخيل وهي كانها لا ترى شيئًا لاستغراقها في عالم الخيال . فلم تنتبه الاّ وقد شمت رائحة الشواء فالتفتت فاذا هي على مقربة من ثلاث خيام اثنتين قرب الماء وواحدة منفردة بظل نخلة كبيرة . فنظرت فرأت نفسها على غير ماء العقيق لانها كانت تعرفهُ فحوّلت نظرها الى ما حولها فاذا هي لاتزال على مقربة من المدينة وخيام المعسكر لاتزال ظاهرة . وتفرست في الخيام حولها ورأت الخدم فاذا هي خيامهم وخدمهم فاستغربت ذلك ولكنها لم تعلق عليهِ أهمية كبرى اذ لم يكن لها رغبة في العقيق ولا غيره

وجاء الخدم فاناخوا الهودج بقرب الخيمة المنفردة فنزلت سمية وجاريتها ودخلتا الخيمة أما عرفجة فرأته سمية واقفاً مع عبده على انفراد يتكلمان وكانت تكره ذلك العبد كرهاً شديداً لغلظ طباعه وفظاعة خلقته

الفصل السابع والثلاثون

حديث ذو شجون

فلما دخلت الخيمة عادت هواجسها اليها ففكرت في حسن والجمل وتصوّرت ماتخشاه من امره فازداد بلبالها . ثم خرجت امة الله لمساعدة سائر الخدم باعداد الاطعمة وظلت سمية في الخيمة وحدها

وفيما هي على تلك الحالة سمعت نحنحة أبيها ثم رأته قادماً والعبد معه وقد فرغا من المسارة ومشيا نحو خيمتها فاستعاذت بالله وخافت شر ذلك القدوم . ثم رأت العبد يبطىء بالمسير وينشاغل وابوها يسرع حتى وصل الخيمة فنهضت له فناداها قائلاً « كيف رأيت هذا النهار ؟ انه نهار جميل »

فتظاهرت بالابتسام وأرادت ان تحادثه فقالت « انه نهار جميل ولكني سمعتك تقول اننا ذاهبون الى العقيق وارانا لا نزال بباب المدينة .. »

قال « ان العقيق بعيد فاحببت الاستراحة هنا ثم اذا شئت المسير الى العقيق سرنا .. وانما غرضي ان تكوني مسرورة فرحة ولا أراك الاّ منقبضة النفس ومثلك يجب ان تكون مثال أهل السرور . . لان أباك يحبك حباً شديداً وقد انقطع عن العالم من اجلك . . ولا يترك وسيلة الاّ اتبعها في سبيل راحتك وسعادتك . . . »

فلما رأت ذلك التلطف منه خافت ما وراءه وظلت ساكتة فعاد هو الى اتمام حديثه فقال لها « ولقد سرني منك انصياعك الى مشورة أبيك بشأن ذلك الشاب وعدت الى ما هو جدير بامثالك . . ويسرّني ايضاً ان ابشرك بسعادة قد توفقتُ اليها لاجلك ويندر انْ تنالها فتاة من فتيات المدينة بل هن يتحسرن عليها كافة . . »

فازداد قلقها وتوسمت من وراء ذلك الكلام بشرى سوء تزيد اضطرابها فظلت

ساكتة وقلبها يخنق ومالت الى استطلاع مافي نفس والدها ولكنها خافت ان يكون في استطلاعه مايسوءها فلبثت صامتة لاتدري ما تقول . ووالدها ينظر الى وجهها خلسة وهو يتشاغل بلحيته بين اناملو . وكان يتوقع ان يسمع منها استفهاماً او جواباً فلما رآها صامتة دنا منها وهي متكئة الى عمود الخيمة ووقف امامها واسند يده الى العمود وجعل يده الاخرى على كتفها فاقشعر بدنها وارتعدت فرائصها لعظم قلقها ولم تعد تصبر عن استطلاع مافي نفس عرفجة فاذا هو يقول لها « لماذا لم تسأليني عن تلك السعادة ؟ لا أخالك اذا علمت بها الاَّ معجبة بما يبذله ابوك في سبيل راحتك . . . اتعلمين انك ستصيرين عما قليل سيدة نساء هذا الجيش ؟ . . . » قال ذلك واشار الى المعسكر

فلما سمعت قولهُ علمت انهُ يعرض بخطبتها لاحد كبار ذلك الجيش فتحققت سوء ما اضمرهُ لها في الامس وانها مقبلة على خطر شديد فارتبكت في امرها ولم تدر بماذا تجيب ولكن الاضطراب بدا على وجهها . ولو تفرس والدها في قرطيها لرآهما يرتعشان ارتعاشاً يحاكي خفقان قلبها ـ وما ارتعاشهما الا من رجع ذلك الخفقان ـ واحمرت وجنتاها بغتة فتشاغلت باصلاح دمالجها في معصمها وهي تنظر الى الدمالج ولكنها لم تكن ترى شيئاً لان الدمع غشى بصرها ثم تساقط تساقط اللؤلؤ على معصمها . فلما رأى والدها ذلك تحقق انها لاتزال عالقة القلب بحسن فأراد ان يقطع املها منهُ فقال لها « ما بالك لاتجيبين . . ؟ الم يعجبك ما دبرتهُ لك من اسباب السعادة . . ؟ ام انت لم تفهمي مغزى كلامي ـ ألم تفهمي ما اقولهُ لك ؟ . . . انك ستكونين سيدة نساء هذا الجند وجند بني امية المحاصرين لمكة الآن . . . واذا اشكل عليك فهم مرادي اقول لك انك ستزفين الى الحجاج بن يوسف كبير امراء مولانا الخليفة عبد الملك بن مروان وهو من ثقيف مثلنا ولهُ ما لا ازيدك بياناً عنهُ من علو الشأن . . . . »

فلما سمعت تصريحهُ لم تعد تملك عن البكاء . فغطت وجهها بكمها واسندت رأسها الى العمود وظلت صامتة وقد حبست نفسها عن البكاء او النهد حتى كادت تختنق وهي لاتدري بما ذا تجيب والدها لانها تخاف اذا ردت قولهُ ان يفتك بها فلم تر سبيلاً لفرج كربتها غير البكاء . فلما رآها عرفجة تبكي علم انها لاتزال تفكر في حسن وترجو قربهُ فامسك يدها وابعدها عن العمود بلطف فطاوعتهُ وهي تبالغ في الاطراق فقال لها « احسبُ صورة ذلك الغلام لاتزال تردد في ذهنك مع اعتقادك انهُ لاسبيل اليهِ . . . . فاذا كان في قلبك بقية امل بهِ انزعيها لانهُ قد مضى وقضي الامر . . . »

فاجفلت سمية ولم تتمالك ان رفعت رأسها ونظرت الى والدها وعيناها تقطران دمعاً كانها تتبين هزل قولهِ من جده فابتدرها قائلاً « صدقيني انهُ لم يعد لك سبيل الى حسن ولا هولهُ سبيل اليك لان امره قد انقضى ... والاموات لايقومون في هذه الدنيا ... »

الفصل الثامن والثلاثون

قنبر

فلما سمعت قولهُ صاحت صيحة سمعها كل من في الخيام ولطمت وجهها وقالت « حسن مات ؟ ... مات ؟ ..... لا لا حسن لم يمت .. انهُ حيٌّ ... » قالت ذلك واستغرقت في البكاء وجلست على برش من سعف النخل كانوا قد فرشوه في ارض تلك الخيمة وجعلت رأسها بين كفيها واطلقت لنفسها العنان ووالدها لا يزال واقفاً وقد بغت لما رآه من تمسكها على انهُ قال في نفسهِ انها لا تبرح ان تفرغ من البكاء فمتى تحققت موتهُ عادت الى رأيهِ . فصبر هنيهة وهو يظهر الاستخفاف بما بدا منها ثم عاد فقال لها « اراك تكذبين قولي وانت تعلمين يا سمية اني لم اكذبك قط .... صدقيني ان حسناً قُتل في اثناء خروجهِ من المدينة فلا سبيل الى رجوعهِ . انقتلين نفسك معهُ ؟ ... »

فصاحت « نعم اقتل نفسي ولا غرض لي في الحياة بعده ..... قتلتموه ظلماً وغدراً ؟ .... ويلك ياظالم .. كيف قتلتهُ .... اقتلني معهُ ... اقتلني ... » قالت ذلك وعادت الى الشهيق . فلما رأى عرفجة تصلبها عمد الى الملاينة فقال لها « أنا لم اقتلهُ ولكنهُ قتل بذنبهِ . ومع ذلك فما الفائدة من البكاء عليهِ واشكري الله انهُ مات قبل ان يقترن بك فانك حينئذٍ لاتنالين حظوة في عيني الحجاج ... »

فقطعت كلامهُ وقالت « واي الحجاج ... مالي وللحجاج اني لا اريد سواه ... لا اريد غير حسن ... حسن حبيبي .... هو وحده حبيبي حياً او ميتاً .... » ثم اجفلت وقالت « لا لا لم يمت حسن بل هو حيٌّ وايدي الظلمة اللئام تقصر عن ادراكهِ »

فقال عرفجة « ألا تزالين تنكرين قتلة حتى اريك جثتهُ ؟ ... » فوثبت سمية من مجلسها بالرغم عنها وصاحت « لا لا لاتريني اياه ميتاً ... ويلاه قتل حسن ... قتل ... اقتلني ياظالم ياخائن اقتلني وارح نفسك مني وارحني من هذه الحياة كما ارحت رجلاً انقذك وانقذ اهل بيتك من الموت فكافأتهُ بالقتل . ويل لك من مشهد يوم عظيم » قالت ذلك وقد أحست بقوة الرجال الاشداء و يئست من الحياة . فلما سمع عرفجة توبيخها صاح فيها « اقصري يا فاجرة ياعقوقة ايمثل هذا الكلام تخاطبين والدك ؟ ... والله لولا حرمة البنوة ولولا ان يقال اني قتلت فتاة لمزجت دمك بهذه المياه ... ولكني لا اعاملك الا معاملة صبية حمقاء ... وسأصبر عليك هنيهة واعرض عليك السعادة مرة أخرى فاذا ابيت الاَّ مابدا من وقاحتك قتلتك بهذا الخنجر ... » قال ذلك واستل من منطقتهِ خنجرًا لمع نصالهُ كالبرق . فلما رأت النصال تعرضت لوالدها وقد حسرت ثوبها عن صدرها وهي تقول « اضرب ... اغمد خنجرك في هذا القلب .... اطعن ... فكأنك تخوفني بالموت ... والموت احب الىَّ بعد ذهاب حبيبي وغاية املي .... » ثم تراجعت وقد غلب عليها الضعف النسائي فجلست وعادت الى البكاء.

فلما رأى منها ذلك العناد صاح فيها قائلاً « اهذه نتيجة التعب الذي تعتبهُ في تربيتك ياعقوقة يافاجرة .. نعم قد حل لي قتلك ولكنني لا الوث يدي بدمك وسترين قبل موتك جميع اصناف العذاب ... » ثم صاح « قنبر » فاقبل ذلك العبد باسرع من لمح البصر كأنهُ كان في جيب عرفجة واخرجهُ بيده ـ فقال قنبر « لبيك يامولاي » فقال لهُ « شد يدَي هذه الخائنة بالامراس وقيد رجليها بالحبال وسأُريها عاقبة العناد »

فتقدم قنبر . فلما رأتهُ سمية مقبلاً وثبت من مقعدها وصاحت فيهِ « اذهب ياعبد السوء ولا تدن مني ... ابعد عني قبح الله وجهك .. » قالت ذلك وهي لاتعي ماتقول

اما قنبر فاستخرج من جيبهِ حبلاً كان قد اعده هناك وهو لا يبالي بصياحها واقبل اليها فقبض على يدها وهي تحاول التخلص منهُ وقد اشتد ساعداها حتى صارت مثل اشد الرجال ونسيت حزنها ومرارة نفسها وعادت الى الدفاع وقنبر يحاول اخضاعها بلا عنف . فلما رآها تدافعهُ وتقاومهُ عول على استخدام العنف فصاح فيها صيحة دوت في ذلك البر دوياً عظيماً وجذبها من يدها فلطم رأسها بعمود الخيمة فوقعت مغشياً عليها كانها ماتت فأخذ ذلك عبد النحس في شد وثاقها وهو لا يبالي بحالها

الفصل التاسع والثلاثون

سر الامر

وكان الخدم قد سمعوا صياحها وصياح والدها فلم يجسر احد منهم على الاقتراب من الخيمة الاَّ امة الله فانها هرولت خلسة واستترت وراء نخلة حولها عشب العليق ولبثت تتسمع ما يدور بينهما . فلما رأت قبرًا وثب عليها علمت ان سيدتها عرضت نفسها للخطر ثم سمعت لطمة عقبها سكوت فخافت ان يكون قد اصاب سمية سوء فلم تر سبيلاً الى استبقائها الاَّ بالحيلة فاسرعت الى عرفجة وترامت على قدميهِ وقبلتهما وقالت « بالله الا أشفقت على سيدتي واغضبت عن جسارتها وانا اضمن لك كل ما تريد منها ... »

وكان عرفجة انما يعامل سمية بذلك العنف حتى يهون عليها القبول بالحجاج لانهُ يرجو من زواجها بهِ منفعة كبرى لنفسهِ ـ فقد ذكرنا مافطر عليهِ عرفجة من حب الذات والطمع مع سوء النية وقد بلغ منهُ الطمع حدًّا هوَّن عليهِ بذل ابنتهِ ضحية على مذبح اغراضهِ وقد مات ضميرهُ فلا يهمهُ مايرتكبهُ في سبيل انفاذ مقاصده . فكان يعلم ان الحجاج يحب الزواج بسمية وبذل لها مهرًا كبيرًا ولكنهُ كان يخاف ان تشكوهُ لعبد الملك بن مروان بواسطة سكينة بنت الحسين او غيرها من أهل الوجاهة والنسب في المدينة فلما اطمأن من مقتل حسن على زعمهِ اخبر طارق بن عمرو امير المدينة ان مثل ابنتهِ لا تليق بغير الحجاج ابن يوسف وانهُ يعلم برغبتهِ فيها . وكان طارق ايضًا مثل عرفجة قسوة وطمعًا ولهُ مطامع في مصالح الدولة ولا يتأتى لهُ ذلك الاَّ اذا تقرب من الحجاج بما يهمهُ فرأى ان يتقرب اليهِ بسمية فيخطبها لهُ ويحملها اليهِ . فرغَّب عرفجة بذلك وهو راغب من تلقاء نفسهِ وساعده على التخلص من حسن ودفع اليهِ بعض المال من أصل المهر على ان يقبض الباقي بعد وصولها الى الحجاج قرب مكة

وكان عرفجة من الجهة الاخرى يعلم بتعلق ابنتهِ بحسن ونفورها من الحجاج وغيره وكان يتوقع اباءها فهيأ الاسباب المساعدة على اقناعها بأي وسيلة كانت وتواعد هو وطارق ان يخرج بها الى قرب المعسكر ويحاول اقناعها بالحسنى فاذا لم تقنع عمد الى

العنف فيحملها الى الحجاج ولو موثقة ولم يكن هو ينوي الذهاب معها لغرض له في المدينة يتعلق بتلك التحفة السرية وأراد اقناعها خارج المدينة ثم ارسالها انوًا الى مكة مع طارق مخافة اذا فعل ذلك في المدينة ان تفرّ الى سكينة فتلتجىء اليها فأما ان تحميها عندها أو تساعدها في ابلاغ أمرها الى عبد الملك بن مروان قبل وصولها الى الحجاج . أما بعد ان تسير الى مكة ويتزوجها الحجاج فلا يعود لها سبيل للشكوى . وهب انهُ كان لها سبيل فذلك لا يهمهُ بعد ان ينال هو بغيتهُ ولذلك فانهُ أوصى طارقًا ان يكتب الحجاج كتابهُ عليها ويتزوجها حال وصولها حتى ينقطع لديها كل أمل في النجاة . وبناء على ما تقدم احتال عرفجة في اخراج سمية الى هناك . فلما رأى انكارها ما عرضهُ عليها من امر الحجاج امر عبده فنبرًا ان يشد وثاقها كما تقدم وخرج هو من الخيمة لا يلتفت اليها

فلما لقيتهُ امة الله وترامت على قدميهِ ووعدتهُ باقناعها نادى عبده فخرج وامر امة الله فدخلت الخيمة وحدها فرأت سيدتها مغمضة العينين وقد خرج ذلك الاسود ولم يهمهُ امرها فبادرت الى ركوة من جلد معلقة بعمود الخيمة وفيها ماء فرشت سمية حتى أفاقت واخذت في حل وثاقها . فالتفتت سمية فرأت جاريتها فوق رأسها وهي تقبلها وتحاول انعاشها فارتدت روحها اليها وجلست وهي تمسح الماء عن وجهها بكمها فقالت امة الله بصوت منخفض « ما ذا فعلت بنفسك يا سيدتي ما الذي أراه فيك »

فعادت سمية الى البكاء وقالت « أنسأ لينني يا امة الله عن سبب ما ترينهُ فيَّ وقد مات حسن ... حبيبي .... قتلوه قبح الله القوم الظالمين ..... »

فقطعت امة كلامها ووضعت يدها على فمها وهمست في اذنها ان أخفضي صوتك لتتدبر في هذا الامر بالحكمة لان العنف لا يجدينا نفعًا »

فقالت سمية « دعيني يا امة الله .... فاني لا أريد الحياة بعد مقتل حبيبي ومجرى نفسي ... منية فؤادي حسن ... قتلوك .. لعنهم الله ... لماذا لم يقتلوني عوضًا عنك ؟ . »

فتقطع قلب امة الله على سيدتها ولكنها كانت عاقلة وحكيمة وصاحبة دهاء فتبلدت وقالت « من قال لك انهم قتلوه ... »

الفصل الاربعون

امة الله

قالت انسألينني ؟ .. رأينا جملة مكسورًا مهجورًا فقلت لعلهُ غير جملهِ او ان وجود الجمل لا يدل على خطر ... والآن ماقولك وقد اخبرني هذا الظالم الخائن .. انهُ قُتل وقد عرض عليَّ ان يريني جثتهُ رأي العين فهل بعد ذلك من شك ؟ .. أتلومينني اذا ندبت حياتي ونحت على شبابي ... وهل ترين سبيلاً لراحتي غير الموت .... ؟ »

قالت الجارية « مهما بلغك من أمر القتل فلا يمكن ان تعدهُ في محل اليقين لعلمك برغبة والدك بتزويجك بالحجاج طمعًا بالمال فهو يظهر لك انهُ قتل لكي يحول قلبك عنهُ ومع ذلك فان قتلك نفسك أمر مستدرك ولا يجوز لك ذلك الا بعد ان تتيقني انهم قتلوا حبيبك . وأما الآن فاننا لا نزال في محل الظن وهبي انك تريدين الانتحار لتتخلصي من الحجاج فاصبري الى المنتهى فاذا لم يفتح الله عليك بابًا للفرج ورأيت الحجاج أوشك ان يبلغ مرامهُ منك فقبل وصولهِ اليك تجرعي سمًا واقتلي نفسك »

قالت « ومن أين آتي بالسم »

قالت انا اكون معك ... اشرطي على أبيك ان اكون انا في خدمتك وانا اهيئهُ لك السم ومتى تحققتُ وقوعك في اليأس اجرعك السم وأتجرعهُ انا أيضًا ... والآن دعي التصلب وتظاهري بالرضاء ولا يبعد ان يفتح الله علينا قبل وصولنا الى هذا المعسكر او قبل وصولنا الى مكة او لعلنا نجد حسنًا ونحن في الطريق فنذهبين اليهِ — فلا يليق بك ان تطلقي لنفسك العنان ... ماذا يكون شأنك اذا قتلت نفسك وحسن لا يزال حيًا وهو يعدُّ لك اسباب السعادة ؟ ... »

فلما سمعت سمية كلام أُمة الله احست بانشراح صدرها وارتاح بالها وعادت اليها الآمال — والانسان سريع الرجوع الى الامل لان طبيعة الوجود تبعدهُ عن اليأس وحب ذاتهِ يهون عليهِ الرجوع عن الانتحار حبًا في البقاء لان المرء مهما يكن من يأسهِ وتصميمهِ على الانتحار وهو في حال هياجهِ وغضبهِ لا يلبث اذا سكن هياجه ان يندم على ذلك التصميم ويندر ان يرتكب احدٌ جريمة الانتحار بعد اعمال الفكرة والتبصر

وكان لكلام أمة الله وقع شديد على قلب سمية واستحسنت رأيها في الصبر فقالت لها « افعلي ما بدا لك فانك تعرفين ما في قلبي فعسى ان يأتيني الفرج على يدك ... »

فسرت الجارية لنجاح مهمتها باستبقاء سيدتها ولكنها شعرت بهول الموقف وترجح عندها موت حسن . على انها عولت على الصبر وخرجت الى سيدها وكان واقفاً مع عبده تحت نخلة فلما رآها خرجت أوماً اليها ان تدنو منه . فمشت منحرفة عن موقفه ففهم انها تريد الاختلاء به . فمشى وحده حتى التقيا . فقالت « اني رأيت سمية مطيعة أمرك بكل ما تريد لكنها استوحشت من معاملة قنبر فلا تدعه يخاطبها او يكلمها . ولا يخفى على مولاي ان من كان في حال سمية لا يؤخذ بالعنف وقد خاطبتها الآن باللين فرأيتها لانت ولا بدّ من جلسة أخرى أتم بها المراد . فاذا كان لا بد من ارسالها الى معسكر طارق اليوم فامرها ان اكون انا في خدمتها حتى تأتي الحجاج ولك عليّ كل ما يسرك ... »

فاطمأن بال عرفجة وهان عليه ابعاد قنبر عنها واطاع امة الله في ارسالها معها وقال لها « لا بدّ من ذهابها الآن الى خيمة اعدّوها لها في معسكرهم ولا آمن ان تسير وحدها فاذهبي انت معها وأكدي لها اني لم افعل بها ما فعلته الاّ رغبة في راحتها ... »

فقبلت امة الله يده وقالت « بارك الله فيك ولكن سمية تحتاج الى استحضار ثيابها وادواتها ... »

فقطع عرفجة كلامها وقال « كل شيء معدّ لها في خيمتها بالمعسكر ولا تحتاج الاّ الى الرجوع اليه »

فقالت امة الله « ادخل الآن الى الخيمة وكلمها كلاماً يطمئن خاطرها .. » قالت ذلك ومشت فمشى عرفجة حتى دخل الخيمة فرأى سمية جالسة باكية فدنا منها وامسك يدها وقال « لقد ساءني ما الجأتني اليه من الكلام الجافي ولكن ظهر لي من امة الله انك فعلت ذلك بالرغم عنك فانهضي وسيري معها الى خيمتك في المعسكر وقد اوصيتها ان ترافقك وتخلص الخدمة لك ... »

فنهضت سمية وهي لا تزال مطرقة فأسرعت امة الله الى يد عرفجة وقدمتها الى سمية وهي تقول « قبلي يد والدك ليتم رضاؤه عنك » فقبلتها . فقبلها هو وكان المودج لا يزال معدًّا فاركبها وامة الله معها وركب هو بغلته وسار امامها حتى اوصلها الى المعسكر وسلم الجمل الى عريف الجند . فاستلم العريف خطام الجمل وسار معهم الى خيمة في بعض اطراف المعسكر

الفصل الحادي والاربعون

ثبوت القتل

وكانت سمية في اثناء الطريق غارقة في الهواجس وقد زال ما اثر فيها من كلام امة الله وخصوصاً لما مرت بالمكان الذي كان الجمل مكسوراً فيهِ فرأت بعض العبيد قد نحروا الجمل واشتغلوا بسلخ جلده فتصورت انهم كيف قتلوا حسناً ونحروا جملهُ وعظم عليها الامر ولكنها صبرت نفسها بالرغم عنها وامة الله تراقب حركاتها خلسة . وبعد هنيهة وصلوا الى المعسكر فتخلفت سمية انها وقعت في الشباك — والفتاة اذا زوجوها برجل تعرفهُ وترضاهُ لا بدَّ من استيحاشها في اوائل ايامها الاَّ اذا كان زواجها عن غرام متبادل — فكيف بسمية وقد قتلوا حبيبها (على زعمها) وباعها والدها لرجل لا تحبهُ والناس يتحدثون بقساوتهِ وشدتهِ . والرجل في تلك الايام اذا كان قاسياً كان اكثر ما يكون شدة على أهل بيتهِ لشيوع السلطة المطلقة بينهم فكيف بالحجاج وامرهِ نافذ لا مردَّ ولهُ

فلما وصل بعير سمية الى الخيمة المعدة لها أناخوهُ وانزلوها وامة الله في خدمتها فدخلتا الخيمة فرأت سمية صندوقها وفراشها وكل معداتها هناك فجلست على بساط كانوا قد فرشوهُ لها في ارض الخيمة فلم يغط الاَّ بعضها . وجلست امة الله الى جانبها تحادثها وتلاطفها وسمية تنظر الى خارج الخيمة وتتشاغل بما تراهُ من حركات الجند والعبيد والخيل والجمال وهي مستغرقة في الهموم . وكان في جملة ما شغل ذهنها كلبٌ رأتهُ ينهش خرقة سوداء ويلاعبها بين يديهِ فيقذفها ثم يعدو في اثرها عدوهُ الى فريسةٍ على عادة الكلاب اذا لم تكن جائعة . فاتفق ان الكلب قذف فريستهُ فوقعت بين يدي سمية وحالما وقع بصرها عليها أجفلت وخفق قلبها ومدت يدها ففر الكلب من امامها . فامسكت الخرقة بانملتين ورفعتها وتفرست فيها فاذا هي ملوثة بالدم . وما لبثت ان قلبتها حتى صاحت ويلاه هذا هو القباء ... هذا هو قباء والدي الذي قتل حسناً بهِ ... »

فتناولتهُ امة الله من يدها وقد عرفتهُ ولكنها جعلت تغالط سمية لتخفف عنها فقالت « كيف عرفتِ انهُ قباؤهُ والافعية قد تتشابه »

فقطعت سمية كلامها وقالت « قد عرفتهُ من هذا الوشي على هذا الكم فاني طرزتهُ بيدي

وانا اعلم الناس برسمو » قالت ذلك وشرقت بدموعها ولم تنتظر جواباً من امة الله واخذت تبكي وتقول « قتلوه ... لم يبق عندي شك بقتلو .... »

فقطعت امة الله كلامها وقالت « وما علاقة هذا القباء بقتلو ..؟ »

قالت « ألا تذكرين ان والدي اهداه اياها يوم عزمو على السفر والحّ عليو بلبسو للوقاية من البرد .... ويل لهُ من مشهد يوم عظيم .... أ لبسهُ اياه واوعز الى من يقتلهُ وكأنهُ اتخذ القباء دليلاً عليو فاصابوا غرضهم منهُ ..... وهذه هي بقية القباء وعليها الدم ... فهل من شك انهم قتلوه؟ فما العمل الآن ... كيف نسلم أننسنا الى الناس قتلوا حبيبي ؟ .... » قالت ذلك وغصت بريقها

فقالت امة الله « سلمي امرك الى الله ولا تيأسي من رحمة الله . واعلمي ان ما يقدره الله فهو كائن ... واصبري فان الله مع الصابرين »

فلم ترَ سمية غير الصبر فصبرت نفسها . والمرء قبل وقوع المصيبة يتوهم انها اذا وقعت يستحيل عليو احتمالها وقد يتوهم ذلك أيضاً أهلهُ وذووهُ ولكنهُ متى وقعت لا يعدم سبيلاً لاحتمالها والصبر عليها وامثال هذه الحوادث كثيرة نراها كل يوم . فلا غرو اذا صبرت سمية بعد ما تحققتهُ من مقتل حبيبها

وفي اصيل ذلك اليوم نودي في الجند — الخيل يا اربابها — فركبوا بعد ان قوضوا الخيام ومشت الفرسان الى الامام واصحاب الرايات بينهم وفيهم روَساء القبائل يحيطون بطارق بن عمرو وكلهم بلباس اهل البادية الاَّ هو فانهُ لبس درعاً فارسية كان قد جاء بها من العراق

اما سمية فانهم حملوها على هودج ومعها خادمتها ويقود خطام الجمل عبدٌ ويسوقهُ عبدٌ والى كل من الجانبين فارس على هجين . وكان طارق يتردد الى الهودج يتعهدهُ ويسأل اهلهُ هل يحتاجون الى شيء ثم يركض فرسهُ الى اطراف الجند يتفقدهُ ويدبر شؤونهُ

الفصل الثاني والاربعون

عبد الله

فلنترك سمية في هودجها تفكر في مصير امرها ولنرجع الى المدينة للبحث عن عبدالله

خادم حسن فقد تركناه راجعاً من بيت سكينة بعد ان اوصل سمية اليه . ثم سمعنا امة الله تخبر سمية انهُ جاء منزل والدها للسؤال عنها فلم يجدها فرجع على اعقابه ثم لم نعد نعلم ما اصابهُ . وتحرير الخبر ان عبدالله لما رجع من بيت سكينة اسرع للاقاة سيده خارج باب المدينة وقد اشتغل بالهُ بسمية وما سمعهُ من حديثها مع حسن في تلك الليلة وهو واقف بالجمل على حدة . وتصوَّر ما يحدق بسيده من الاخطار فضلاً عن شواغل البال . فسار مدة وهو غارق في هذه الهواجس وقد نسي نفسهُ فأخطأ الطريق وخرج من باب غير الذي خرج منهُ حسن وسار من طريق آخر يؤدي الى جهة اخرى . وكثيرًا ما يتفق ذلك في مثل هذه الحال فيتجه الرجل شرقًا وهو يعتقد انهُ يسير غربًا . وبعد مسير ساعة وهو لا يرى راكبًا ولا يسمع صوتًا وقد اشتد الظلام وقف ونظر الى ما يحدق بهِ فاذا هو بين النخيل لا يرى الطريق ولا يدري اين هو . ولم يكن يعرف الاستدلال بالكواكب فحوَّل سيره الى جهة اخرى فلم يصب المكان . وكان كلما بعد عن المدينة استدل اليها ببعض ما يبدو فيها من الانوار فيرجع الى جوارها . وحدثتهُ نفسهُ بدخولها ولكنهُ خاف ان يكون سيدهُ في انتظاره ببعض ضواحيها . ثم خطر لهُ بغتة ان سيدهُ ربما عاد الى بيت حبيبتهِ لسبب من الاسباب فرجع عبدالله الى المدينة وجاء منزل عرفجة فلم يجد سمية هناك كما تقدم . فعاد الى خارج المدينة وقضى ليلتهُ في هذا الاضطراب

وقبل الفجر سمع جعجعة جمل يتألم فأقبل الى جهة الصوت وقد استأنس بهِ لانهُ يشبهُ صوت جمل سيده . فناداه بما تعوَّد ان ينادي بهِ من الاصوات فازداد الجمل جعجعة وهو باق مكانهُ فأقبل اليهِ فاذا هو الجمل بعينهِ ولكنهُ لا يستطيع النهوض فأدرك انهُ معقور فغاص عبدالله في الماء حتى دنا منهُ فأدار الجمل رأسهُ اليهِ كأنهُ يحييهِ و يستنجده

فلما تحقق انهُ معقور ولم يجد حسنًا عنده اضطرب وانشغل بالهُ فاسرع الى الرحل فنزعهُ عنهُ ووقف مدة وهو يفكر في ماذا عسى ان يكون من امر حسن . واشتد بهِ الاضطراب والقلق ولم يخطر لهُ ان يسأل عنهُ في بيت عرفجة لانهُ لم يجدهُ هناك بالامس وخاف اذا سأل سمية عنهُ ان يزيد بلبالها بلا طائل . فخطر لهُ ان يسأل عنهُ في المكان الذي باتا فيهِ ليلة وصولها المدينة مع ليلى الاخيلية فسار ومرَّ في أثناء مسيره بمنزل عرفجة فتنسم الاخبار فلم ير اثرًا لحسن ولم يشأ ان يسأل سمية للاسباب التي قدمناها فواصل السير حتى اتى البيت فلم يجد احدًا فجلس وقد اخذ التعب منهُ مأخذًا عظيمًا ووضع الرحل بين يديهِ وجعل يفتش فيهِ فوجد في جيبهِ اسطوانة مختومة وعليها اسم عبدالله

ابن الزبير فعلم انها الرسالة التي يحملها حسن الى مكة . فلما رآها زاد قلقهُ وقال في نفسهِ لو ان حسنًا ترك الجمل باختياره لحمل هذا الكتاب معهُ لانهُ انما جاء هذه الديار من اجلهِ . فترجح لديهِ انهُ قتل او اصيب بشرٍّ عظيم فقضى نهارهُ وهو لم يذق طعامًا — تارة يندب مولاه وطورًا يعلل نفسهُ بلقياه . ولم يغادر سوقًا ولا دربًا من دروب المدينة الاَّ مرَّ بها وهو يتفرَّس في وجوه الناس ويتسمع الاخبار فلم يرَ الاَّ انهماك الناس باعداد النجدة للحجاج عملاً بما حملهُ البريد اليهم . وبات تلك الليلة في المدينة وهو يفكر في ماذا يعمل فقرَّر رأيهُ اخيرًا ان يحمل كتاب خالد الى عبد الله ابن الزبير في مكة فيتم المهمة التي جاء حسن من اجلها على ان يبحث في اثناء ذلك عن سيدهِ

الفصل الثالث والاربعون

عبد الله بن الزبير

هو عبد الله بن الزبير بن العوام أحد كبار الصحابة . وكان لما توفي معاوية وبويع لابنهِ يزيد قد أنكر ابن الزبير بيعتهُ كما انكرها الحسين بن علي . وخرجا من المدينة الى مكة ودعا كل منهما بالبيعة لنفسهِ . ولكن عبد الله لم يكن يتظاهر بذلك والحسين في مكة لعلمهِ انهُ أولى منهُ بها . حتى اذا كان ما كان من شخوص الحسين الى الكوفة ومقتلهِ في كربلاء خلا الجو لابن الزبير في الحجاز فبايعهُ الناس واستفحل امرهُ وجعل عاصمتهُ مكة وبايعهُ اهل الحجاز واليمن . فعظم امرهُ على بني امية فحاربوهُ مرارًا فلم يفلحوا فلما كانت خلافة عبد الملك بن مروان حاربهُ ايضًا ولم يبلغ منهُ وطرًا

وكان الحجاج يومئذٍ اميرًا من امراء عبد الملك ولعبد الملك ثقة في شجاعتهِ وكان الحجاج راغبًا في الخروج على عبد الله فاحتال على عبد الملك برؤيا قال انهُ رأى نفسهُ فيها قد اخذ ابن الزبير وسلخهُ . وطلب من عبد الملك ان يشخصهُ اليهِ فاشخصهُ في ثلاثة آلاف من اهل الشام . واعطاه كتاب امان الى من الزبير ومن معهُ ان اطاعوا واوصاه ان يرفق بالكعبة

فسار الحجاج سنة ٧٢ هـ وحارب ابن الزبير في مناوشات لم يتم الفوز فيها لاحد الجانبين فمل الحجاج من المطاولة فبعث الى عبد الملك يستأذنه في دخول الحرم وحصر ابن الزبير فاذن له وانجده بخمسة آلاف آخرين فاشتد ازر الحجاج فحصر الكعبة ورماها بالمنجنيق . فعظم ذلك على المسلمين وانبوه عليه . ولكنه لم يكن يرى سبيلاً الى الفوز الا به وطال الحصار على اهل مكة حتى قل زادهم واصابهم جوع شديد . وكانت مكة يومئذٍ قليلة الابنية ليس فيها غير المسجد وفي وسطه الكعبة وبعض الابنية . وكانت الكعبة قد تهدمت في حصارها قبل مجيء الحجاج فاعاد ابن الزبير بناءها على اوسع مما كانت عليه . ونصب الحجاج المنجنيق على جبل ابي قبيس المشرف على مكة من جهة الشمال والشرق

وكان ابن الزبير مقيماً مع اهله في المسجد الحرام ومعه جماعة من رجاله قد بايعوه الى الموت وهو صابر صبر الرجال . واما الحجاج فكان من جملة مساعيه في تضييق الحصار على عبدالله انه بعث سراياه يطوفون حول مكة يمنعون الدخول اليها والخروج منها . ولما طال امد الحصار على الحجاج ولم يسلم المحاصرون استنجد طارقاً أمير المدينة كما تقدم

الفصل الرابع والاربعون

محمد بن الحنفية والمختار

فلنرجع الى حسن بعد ان تركناه وقد خرج من المدينة على جمل اهداه اياه ابو سليمان ومعه العبد بلال . فبعد مسيرة ايام اشرفا على مكة نحو الغروب فراوها محاطة بشراذم من الفرسان يطوفون حولها . فقال بلال « اني أرى الطلائع الاموية حول مكة ولا امن اذا واصلنا السير ان يمنعونا وهم كثار فهل تأذن لي بالخروج اليهم والاستفهام عن حالهم ثم اعود اليك ؟ »

قال « حسن سر ولا تبطئ فاني انتظر رجوعك على عجل بجانب هذا الحائط »

فمشى بلال وتحول حسن بجمله الى حائط بعيد عن الطريق العام كأنه اثر بناء قديم وترجل وعقل جمله وراء الحائط واتكا الى جانبه بحيث لا يراه احد من المارة . ولبث مدة وقد طاب له الاتكاء لما قاساه من الجهد في أثناء ركوبه الطويل من المدينة الى

مكة فاحس براحه لذيذة ولكنه مالبث ان رأى الشمس تغرب والاظلال تتقلص و بلال لم يرجع . فلما آن العشاء استبطأه وحسب لتاخره غير حساب ووقف ثم تسلق الحائط وجعل ينظر الى الافق لعله يراه قادماً

وفيما هو يفكر في امره سمع نخنخة بلال فالتفت فرآه قادماً يعدو عدو الغزال والارض رملية لا يسمع وقع الخطى عليها . فلما وصل بلال استطلعه حسن الخبر فقال لا سبيل لنا الى مكة الليلة لان رجال الحجاج مضيتون عليها من كل ناحية حتى لا يدخلها احد ولا يخرج منها احد »

قال حسن « وما الحيلة ؟ ... لا بد من دخولنا »

قال « الحيلة يا مولاي ان نصبر الى الغد لابحث عن سبيل لدخولنا ... »

فقال « انبقى وراء هذا الحائط الى الغد ؟ .. »

قال « كلاَّ يا مولاي ... فقد دبرت وسيلة اظنها تريحك وتسهل عليك الدخول ... »

قال « وما هي »

قال « اتعرف محمد بن الحنفية ؟ »

قال حسن « اليس هو ابن الامام علي من احدى سبايا بني حنيفة [1] واخا الحسن والحسين من ابيهما ... ؟ كيف لا اعرفه ... »

قال « ان لهذا الرجل حرمة عند الحجاج وعند ابن الزبير فلعلنا اذا وسطناه ادخلنا مكة على أهون سبيل »

قال « كيف تكون له هذه الحرمة وهو عدوٌ لابن الزبير ولعبد الملك جميعاً لانه يسابق الاول على الخلافة في الحجاز و يسابق الآخر على الخلافة في الشام ... الم تسمع بحديث المختار ؟ ... »

فقال بلال « كيف لم اسمع به ..... »

فقال حسن ولم ينتظر اتمام جوابه « الم يكن المختار مطالباً بالخلافة لمحمد بن الحنفية ثم قتله مصعب اخو عبد الله بن الزبير واستخلص العراق منه لاخيه عبدالله المحصور في هذا الحرم الآن حتى جاء عبد الملك بن مروان بنفسه وحارب مصعباً وقتله واخذ العراق منه ؟ ... »

---

(١) ابن خلكان ج ١

قال « صدقت يامولاي اني لا اخالفك بهذا الامر ولكن المختار طلب البيعة لابن الحنفية هذا وهو لم يكلفه ذلك ولا أراده وانما أراد المختار الالتجاء الى ولد الامام علي للاستقلال بالامر لنفسه ... فحمل ذلك الكرسي المشهور امره عند الناس كافة وقال انه كرسي الامام علي وادعى ما يشبه النبوة حتى كرهه الناس ونفروا منه .. »

فقال حسن « هل رأيت ذلك الكرسي وهل تعرف اصله ... ؟ »

قال «ان سرّ هذا الكرسي عندي وطالما جلست عليه قبل ان اصبح مقدساً كما ادعى المختار ... »

قال « وكيف ذلك يابلال ؟ .. يظهر لي انك واسع الاطلاع .. »

قال « ان الذي يعيش طويلاً يامولاي يرى كثيرًا .. فقد اتفق لي منذ بضع سنين وانا في المدينة اني اصطحبت رجلاً اسمه الطفيل بن جعدة بن هبيرة . وكان بجانب بيته رجل زيات كان يتردد الطفيل اليه واتردد انا اليه احياناً فاتفق ان الطفيل اصيب بضيق ولم يبق معه ما ينفق على نفسه . وكان المختار يومئذٍ قد قام لمحاربة قتلة الحسين فاراد الطفيل ان يحتال حيلة يكسب بها مالاً وكانت جدته ام جعدة اخت علي بن ابي طالب وكان عند جاره الزيات كرسي قديم قد ركبه الوسخ فاخذه من الزيات وغسله فخرج عود نضار قد شرب الدهن وهو يلمع . ثم ذهب الى المختار وقال له (اني كنت اكتمك شيئًا وقد بدا لي ان اذكره لك . ان ابي جعدة كان يجلس على كرسي عندنا ويروى ان فيه اثرًا من علي) . فقال له المختار (سبحان الله لماذا اخرته الى هذا الوقت ابعث به) فبعث به اليه وقد غشاه بملاءة فدفع له اثني عشر الف درهم . فأخذها الطفيل وانصرف [1] فاخذ المختار الكرسي فغشاه بالديباج وزينه بأنواع الزينة ودعا الناس الى المسجد . وبعد الصلاة قال (ان هذا الكرسي من ذخائر أمير المؤمنين علي عليه السلام وهو عندنا بمنزلة التابوت لبني اسرائيل) فصدقوه وصار اذا حارب خصومه يضع الكرسي في براح الصف ويقول (قاتلوا ولكم الظفر والنصرة وهذا الكرسي محله فيكم محل تابوت بني اسرائيل وفيه السكينة والبقية والملائكة من فوقكم ينزلون مددًا لكم) [2] ولكن هل تظن يامولاي ان محمدًا كان يصدقه ويريد ان يدعو باسمه ... ؟ والذي يعرف ابن الحنفية بحاله عن ان يقبل بتلك الدعوة .. »

فقطع حسن كلامه وقال « العلك تعرفه يابلال معرفة جيدة ؟ .. »

---

(١) ابن الاثير ج ٤ (٢) الملل والنحل ج ١

قال نعم يا مولاي ... وقد شهدت منهُ كثيرًا مما يتنافله الناس من احاديث قوتهِ البدنية. واذكر اني رأيته في حياة والده الامام علي وكنت غلامًا وفي يد ابيهِ درع طويلة فاراد ان ينقص بعض حلقاتها فدفعها الى محمد هذا وامره ان ينقص منها كذا وكذا حلقة فقبض محمد باحدى يديه على ذيلها وبالاخرى على فضلها ثم جذبها فقطعها من الموضع الذي حدهُ ابوه [1] وقد شاهدنهُ مرارًا وهو يعرفني ايضًا ..»

فقال حسن «وهب انك تعرفهُ او يعرفك فما الغرض من ذلك؟ ..»

قال «الغرض من ذلك انهُ مقيم الآن في الشعب بجوار مكة [2] فاذا شئت نزلنا عنده الليلة ثم نرى ما يكون في الغد»

فقال «وهل تعرف الطريق اليهِ؟ ..»

قال «عرفتهُ في اثناء غيابي عنك الآن لاني عاهدت نفسي ان لا ارجع قبل ان ادبر هذا الامر لكي تكون في راحة فقد اوصاني مولاي سليمان فيك خيرًا واراك اهلاً لذلك ... فانا خادمك حتى تصل مأمنك ... وتفرغ حاجتك مني»

فقال حسن «بورك فيك ...» واخذ يهيء رحلهُ للركوب وبلال يساعده ويقول «اني ارى مكة في ضيق شديد واخاف على ابن الزبير من عاقبة هذا الصبر فان الامويين سيغلبون على ما ارى»

فتذكر حسن ما هو قادم من اجله وخاف الفشل ولكنهُ صبر نفسهُ ريثما يدخل مكة في الغد

الفصل الخامس والاربعون

شعب علي

ثم ركب حسن وسارا ومكة الى يسارهما حتى اتيا ارضًا صخرية مشيا بين شقوقها ثم صعدا تلالاً وبلال الدليل وحسن لا يعرف الى اين يسير ولكنهُ ما لبث ان رأى نارًا فعلم انهُ اشرف على الشعب والنار نار القري على جاري العادة عند العرب . وهمَّ ان يسأل بلالاً

(١) ابن خلكان ج ١ (٢) ابن الاثير ج ٤

عن ذلك فاذا هو يقول لهُ « اننا على مقربة من الشعب وعما قليل تبدو لنا الخيام ونسمع صهيل الخيل . فهل تريد ان ننزل في دار الاضياف رأساً ام نقصد خيمة الامير نستأذنه ونخاطبه في امر دخولنا مكة »

قال اخشى ان يكون في مسيرنا الى خيمته ما يزعجهُ والاليق بنا ان نصابحهُ في الغد »

قال « فلنذهب اذاً الى دار الضيافة فانهم لا يسألون القادم اليها عن سبب قدومه ومتى اصبحنا نرى ما يكون . وربما خرجتُ انا الليلة لادبر الامر وانت مستريح »

فاثنى حسن على غيرته . وبعد قليل بانت لهم الخيام وهي عديدة منصوبة على غير نظام في نحو منتصفها فسطاط كبير عرفا من اتساعه ووقوف بعض الخدم ببابه انهُ فسطاط محمد ابن الحنفية فوقف بلال برهة وهو يتفرس في الخيام من خلال ذلك الظلام حتى تبين خيام الاضياف وقد عرفها من انفرادها عن سواها وقربها من النار . فتحوَّل وحوَّل الجمل حتى دنوا من الخيم فسمعا لغطاً وكلاماً فعلما ان الناس غير نيام . فترجل حسن وسبقهُ بلال الى اقرب الخيم فلقيهُ رجل رحب بهِ وساله عن جهة مسيره وطلب اليه ان ينتسب فانتسب وقال اننا اضياف غرباء . فازلهما على الرحب والسعة وادخلهما خيمة ليس فيها احد . فدخل حسن وظل بلال خارجاً يهتم بالجمل فتناوله منه احد الخدم واخذه الى المعالف وعاد بلال الى حسن فاذا هم قد اعدوا لهُ طعاماً فاكل ثم توسد للاستراحة فاستأذنه بلال بالخروج على ان يعود بعد قليل و ينام بباب الخيمة

وتوسد حسن على فراش من جلد فرشوه له وكان التعب قد اخذ منه مأخذاً عظيماً فغلب النعاس عليه فنام سريعاً وكأن هواجسه لم تنم معهُ فتحولت الى احلام مزعجة فتصوَّر المهمة التي جاء بها وانهُ دخل مكة وقد دخلها الحجاج وقبض عليه وحبسهُ واغله بالحديد . فشق ذلك عليه فانزعج وافاق من نومه مذعوراً فشكر الله لان ذلك كان في الحلم . ولكنه تشاءم منهُ وغلب عليه الارق فجعل يتقلب والنوم لا ياتيه . فاراد استدعاء بلال لعله يقص عليه خبراً يتسلى به ربثما يطلع النهار وتذكر انهُ نام بباب الخيمة فناداه فلم يجب فظنهُ مستغرقاً في النوم فنهض حتى اتى الباب ورفع السجف فلم يجد احداً فالتفت الى السماء وتفرس في النجوم فعلم انهُ في الهزيع الثالث من الليل فاشتغل باله على بلال . فالتف بردائه الى فوق رأسه التماساً للدفء وخرج ليبحث عنه بجوار الخيمة

الفصل السادس والاربعون

قادم غريب

وهو يدور حولها سمع جعجعة جمل قادم نحو الخيم فالتفت فاذا هناك جملان على احدهما راكبٌ والثاني عليه شبه هودج يقوده رجل ماش . ولم يستطع حسن تبين الوجوه لاشتداد الظلام فتبادر الى ذهنه ان رجلاً وامرأته وخادمه قادمون للمبيت هناك الى الصباح ولكنهُ استغرب مسيرهم في اواخر الليل بجوار مكة وهي في حال الحصار الشديد . فتحوّل حسن الى خيمته فدخلها وفي نفسه ان يطلع على حقيقة القادمين — وحبُّ الاطلاع في مثل هذه الحال طبيعي قلَّ ان يصبر عنه الانسان . فجعل حسن يتطلع من شقوق في الخيمة تطل على القادمين فرأى ان الجملين حال وصولها الى المضيف انيخا ونزل الراكب وهو رجل قصير القامة قد تلثم بعمامته والتف بعباءته . وحالما ترجل جاء الرجل الذي كان ماشياً يقود الجمل فاذا هو عبد كبير الجثة سريع الحركة فاستلم العبد الجمل وعقله بجانب الجمل الآخر وهو يقول « أترى يا مولاي ان ابقى انا هنا مع الجملين ام اسير في خدمتك ؟ »

فقال له بصوت منخفض « امكث انت هنا واحتفظ بما على هـذا الجمل فانه اعز شيء عندي كما لا يخفى عليك »

قال « هل اسير في خدمتك الى خيمة الاضياف ... »

قال « لست ذاهباً الى المبيت .... امكث انت هنا ربثما اعود اليك .. واذا شئت المبيت فلا بأس لكن احترس على هذا الجمل وما عليه ... » قال ذلك ومشى

وكان حسن يسمع الكلام ويرى الاشباح ولكنه لم يعرف احداً على انه ما زال يعتقد انهم رجل وامرأة وخادمها وتوقع ان يرى امرأة نازلة من الهودج فحول نظره بعد ذهاب الرجل الى الهودج فرآه لا يزال مجللاً بغطائه ثم رأى العبد عاد الى الجمل الذي يحمل الهودج وجلس بظله واتكا على بطن الجمل ولم يكد يسند رأسه حتى سمع شخيره وقد نام نوماً عميقاً فاستغرب حسن ما رآه وكان قد تعب من الوقوف والتشوف فعاد الى فراشه وفكره مضطرب كان قلبه دله على امر يهمه . وبعد ان جلس على الفراش عاد الى باب الخيمة للبحث عن بلال وقد اشتغل باله لغيابه فاطل رأسه من الباب وتلفت يمنة و يسرة

فلم يجد احداً وحال الظلام وبينهُ وبين الاشباح البعيدة فعاد الى فراشه وقد غلب الارق عليه واحدقت الهواجس به فحدثتهُ نفسه ان يخرج الى ذلك العبد ويستفهم منهُ عن امرهم فخاف ان يسمع منهُ ما يخجلهُ فقال في نفسه « لو كان بلال هنا لكلفناه بهذه المهمة وكلاهما عبدان يسهل التفاهم بينهما »

الفصل السابع والاربعون

كشف المعمى

وهو في تلك الهواجس سمع وقع اقدام خارج الخيمة من جهة الباب فعلم ان بلالا قادم ولكنهُ لم يشأ ان يناديه لئلا ينتبه العبد النائم بجانب الجمل . فوقف ومشى الى الباب ونظر فاذا هو بلال بعينه وقد اتكا فناداه فلما سمع بلال صوت حسن وقف حالاً وقال « ما الذي ايقظك في أواخر هذا الليل يا مولاي »

قال وهو يشير اليه ان يخفض صوته « قد استيقظت من مدة طويلة واشتغل بالي ببابك ثم رأيت بعض الناس انزلوا جمالهم وراء خيمتنا وظهر لي من امرهم ما أقلقني ولا يفرج كربتي سواك »

قال « لبيك يامولاى ... ما الذي تبغيه مني اني أطوع من بنانك .. »

قال « هل مررت من وراء هذه الخيمة ؟ »

قال « كلا وانما جئت من هنا .. »

قال « تعال » وامسكه بيده وجره الى داخل الخيمة واراه الجملين والعبد نائم تحت الهودج وقص عليه ما كان من امرهم الى ان قال « فاذا استطعت مخاطبة هذا العبد والاستفهام منه عن غرضهم من هذا القدوم افعل فاني اشعر بقلق حتى اعرف ذلك »

قال « ذلك اهون ما يكون علي » قال ذلك وخرج من باب الخيمة ودار حتى دنا من الجملين وحسن يتشوف عليه من شق الخيمة فرآه يقترب من العبد رويداً رويداً حتى دنا منه وتفرس في وجهه والعبد نائم ثم انكفأ بلال راجعاً وهو يهرول مسرعا حتى دخل الخيمة فلاقاه حسن وهو يعجب من رجوعه عاجلا فقال له « لماذا لم تخاطبه »

قال « لاني عرفته وعرفت حكايته بدون سؤال »

قال « وكيف ذلك ؟ »

قال « اجلس لاقص عليك سبب غيابي وفيه ما يغنيك عن كثرة البحث .... نمت في اول هذا بباب هذه الخيمة ولكنني ما لبثت ان استيقظت واشتغلت بالتفكر في مصيرنا واننا اذا لم نستطع غداً مقابلة الامير طال مكثنا . وخفت من الجهة الاخرى ان يكون علينا بأس اذا عرفوا مدخلنا ومخرجنا وغرضنا فرأيت ان امهد هذه العقبات في هذا الليل وانت نائم فنهضت وسرت الى رجل من المقربين الى الامير وقد عرفته من ايام المدينة ولي عليه دالة فلقيت الرجل في خيمته بقرب خيمة ابن الحنفية وبينهما طريق مفتوح وقد زاد صاحبي تقرباً وكرامة عنده حتى صار يدخل عليه من باب خاص دون سائر الناس . فلما اتيته رحب بي واكرمني وسالني عن أمري فقلت له اننا جئنا نلتمس من الامير وسيلة ندخل بها مكة . فوعدني خيراً ثم اجلسني وجعل يسالني عن حوادث مرت بنا قديمة وامور يهمه الاطلاع عليها وكلما هممت بالنهوض اقعدني حتى طال بي الجلوس . وأنا اهم بالنهوض سمعنا وقع اقدام خارج الخيمة على غير انتظار فاقعدني صاحبي وخرج وهو يقول (من الرجل) فاجابه (انا عرفجه) وانا اعرف رجلا اسمه عرفجة كان يتردد على عامل المدينة وكنت اذا ذهبت الى دار الامارة رأيته . فخرجت لاتحقق ظني فرايت الرجل ملثما ولكنني تحققته من صوته وقامته ..»

ولما بلغ بلال الى هنا انتبه حسن الى الصوت الذي سمعه من الرجل لما اناخ الجملين فتذكر انه يشبه صوت عمه عرفجه فبغت واستغرب مجيئه في هذا الليل وتبادر الى ذهنه انه ربما علم بقدومه فجاء للوشاية به لدي ابن الحنفية . ولكنه استبعد ذلك لعلمه انه ليس على وجه البسيطة رجل عرف بخروجه من المدينة غير سليمان وابيه وخادمه بلال وهو معه . ثم هب ان عرفجه عرف بمسيره الى مكة فمن اخبره انه في هذه الشعب — فاستبعد حسن ان يكون قد جاء المكان لاجله . ولكنه عاد الى التفكير بالهودج وقال في نفسه لا يبعد ان تكون سمية فيه لان عرفجة غير متزوج وليس عنده من النساء الا ابنته . ولما تصور سمية في ذلك الهودج خفق قلبه وتصاعد الدم الى وجهه .. كل ذلك وبلال واقف بين يديه ينتظر اشارته لاتمام حديثه

فقال حسن « وهل عرفت الغرض من قدوم هذا الرجل في هذا الليل ؟ »

قال « كلا يامولاي لاني رايته يخاطب صاحبي همساً فشعرت انه قد آن ذهابي فرجعت

ولما رآني صاحبي راجعاً ناداني اليه وقال (موعدنا غداً ان شاء الله) فعلمت انه لايزال على وعده فأتيت على ان انام بالباب ولا تشعر انت بي الى الصباح ..»

فقال « وما الذي رأيته في هذا النائم بجانب الجمل »

قال « حالما دنوت منه عرفت انه قنبر خادم عرفجة وهو عبدسمح الخلق فط الطبع فريعه اهل المدينة بذلك »

قال حسن « وما ظنك بمن في الهودج »

قال « لا اظنه هودجاً وانما هو محفة . ولا يبعد ان يكون فيها بعض النساء او ربما كانت فيه ابنته سمية لانه ليس له سواها ... »

الفصل الثامن والاربعون

حديث

فلما سمع حسن اسم حبيبته تجددت اشجانه وتذكر ان بلالاً لايعلم شيئا من امره مع سمية فضاقت نفسه عن كتمان سره ولكنه تجلد وقال « اتظنه يحمل ابنته معه الى هذه البلاد في هذه الاحوال ؟ »

قال « لا اخاله يفعل ذلك .. ثم هب انه حملها فلا اظنه كان يستبقيها محبوسة فيه ولا نسمع لها صوتاً واذا فرضنا انها نائمة فالمحفة لاتكفي للنوم لصغرها . »

فاطمأن بال حسن من قبيل سمية ولكنه ما زال مشتغل الخاطر في امر المحفة فاراد ان يعود الي الاستفهام فاذا بلال قد ابتدره بغتة وقال « لا ليس في هذه المحفة فتاة ولا امراة .. قد تذكرت الآن ان لهذه الرجل محفة قد احتفظ بها في منزله لايطلع احداً على مافي باطنها فلعلها هي تلك المحفة واهل المدينة مشتاقون لمعرفة سرها »

فازداد حسن قلقاً لمعرفة سر هذه المحفة ولكن هذا القلق ضاع في قلقه على سبب مجيء عمه في هذا الليل . قال حسن « اي متى نذهب الى ابن علي »

قال « عند طلوع الشمس »

فتحول حسن الى الفراش ورجع بلال الى منامه . وقضى ما بقي من الليل بين نوم

وتقلب وهو اجس ولما طلع النهار نهضا وخرجا الى الخيام فالتفت حسن اولا الى الجملين وراء خيمته فلم يجد لهما اثراً فظن عرفجة سافر فمشيا وتاملا في تلك الخيام فاذا هي على مرتفع من الارض متشعب وللخيل مرابط وللجمال مسارح والمكان اشبه ببلد صغير وقد خرجت الخدم لتسريح الجمال وعلفها وعلف الخيول

فسارا حتى انيا خيمة الامير فاذا هي من الادم ولكنها واسعة حتى تسع عشرات من الناس قائمة على عمد عديدة . ورايا باب الخيمة مسدلاً فعلما ان محمداً في شاغل سري فتحولا الى خيمة صاحب بلال وهي ملتصقة بتلك . فلما دخلا عليه رحب بهما وادخلهما وهو يشير اليهما ان لا يتكلما . فدخل حسن ونظر من كوة في تلك الخيمة تطل على خيمة الامير فراي محمداً جالسا على بساط وبين يديه رجل قصير القامة عرف حسن حالا انه عرفجة . فقال في نفسه هذه فرصة لا ينبغي ان نضيعها بل يجب ان نطلع على سر هذه المقابلة . وتفرس حسن بمحمد فاذا هو كبير الوجه وقد بانت فيه ملامح الشيخوخة وهو لا يزال كهلا ولكنه كان يخضب لحيته بالحناء والتم [1] فلا يظهر فيها الشيب على ان دلائل القوة لا تزال ظاهرة في كتفيه ووجهه وعينيه

وخاف حسن ان يكون في مكثهما هناك ما يعاب به صاحب بلال فاراد ان يعتذر منه فتظاهر بالرغبة في الخروج فقال له « تفضل يا مولاي واجلس فاني احب الاطلاع على غرض هذا الرجل من هذه المقابلة السرية التي يزعم انها ذات بال ولقد ساءني بخشونته حتى صرت لا ابالي بكتمان سره »

ففرح حسن لاستياء صاحب الخيمة لانه سينال به بكيته ولكنه تظاهر بعدم اكتراثه بالاطلاع على السر وجلس بحيث يرى ولا يرى فراى عرفجة جالسا بين يدي ابن الحنيفة جلوس الاحترام وهو يخاطبه ومحمد مصغ لما يقوله . فكان في جملة ما سمعوه من قول عرفجة « انت تعلم ايها الامام انك اولى الناس بهذا الامر بعد الحسن والحسين سيدي شباب اهل الجنة . ان الخلافة بعدهما لك فانت وحدك ولي هذا الامر وليس بنو امية الا مختلسين ... »

وظل محمد صامتاً لا يتكلم فظنه عرفجة راضياً بما يقول فاستانف الكلام قائلاً « وانت تعلم يا مولاي ان المختار رحمه الله قد قام بدعوتك ولكنه لم يثبت في عهده فلم يوفقه الله الى امره . وان السر الذي كان هو يقوم به لجدير ان يقوم به واحد تنتدبه انت لئلا يبقى الناس على ضلال من دنياهم فيخسرون آخرتهم »

---

(١) ابن خلكان ج ١

الفصل التاسع والاربعون

السر

وظل محمد صامتاً يطرق في البساط كانه يفكر في أمر آخر وظل عرفجة في حديثه فقال « ولا يخفى على مولاي الامام ان بني امية الآن منشغلون بعبد الله بن الزبير واكثر جندهم عاملون في حصاره والعراق خال ممن يدعو أهله الى الحق فاذا انتدبت احداوسيرته الى العراق يدعو الناس اليك كان ذلك من سداد الرأي .. »

فرفع محمد راسه وقال « ان الفشل لم يأتنا الا من العراق فان في العراق قتل ابي واخي غدرًا وخيانة »

فزحزح عرفجة نفسه باحتشام على البساط وقال « ان السبب في ذلك الفشل لم يبق منه شيء الآن . واني اري السيل قد تمهدت والوقت دنا لظهور الحق »

فقال محمد « ومن ترى من يليق لهذه الدعوة »

قال « الذي تنتدبه انت هو الرجل لانك ستضع سرك بين يديه وتعهد اليه النداء بصوت الله ... »

قال « ومن تشير عليّ بانتدابه »

فسكت عرفجة واطرق وهو يخاف ان يسرع بالتصريح ان يكون هو المنتدب لهذه المهمة لئلا يسيء الظن به فلبث برهة صامتاً ثم قال « ان هذا الانتداب لايكون الا بالهام من الله سبحانه وتعالى . فالذي يلهمك الله به فهو الذي تنتدبه »

قال « واذا فرضنا ان الله لم يلهمني .. ؟ » فارتبك عرفجة في امره وتهيب من التصريح له بغرضه . وكان غرضه الاول من هذا الامر كسب المال فباع ابنته للحجاج وجاء لنصرة عدوة

وكان محمد بن الحنفية يومئذ على الحياد وقد طلب الحجاج منه ان يبايع لعبد الملك وطلب منه ابن الزبير ان يبايع له فابى البيعتين ولبث في انتظار مايكون من امر مكة وحصارها فاذا لم يكن بد من بيعة فانه يبايع الغالب

وكان محمد عاقلا لايجهل عجزه عن القيام بدعوة جديدة بعد ذلك الفشل ولكنه كان يباسط عرفجة بالكلام وهو لاينوي غير الحياد

اما عرفجة فلم يرد امن الاجابة فقال « اذا لم تشعر بالهام فانتدب صاحب الكرسي »
فقال محمد « واي كرسي »

فنهض عرفجة للحال وتحوّل الى باب الخيمة ونادى « قنبر » ورجع
وبعد هنيهة دخل قنبر وعلى كتفهِ المحفة وعليها الاستار حتى وضعها بين يدي محمد وخرج . فقال محمد « وما هذا »

قال « هذا تابوت العهد . . . » قال ذلك واستخرج من جيبهِ مفتاحاً ورفع الستار عن المحفة وجعل يعالجها بالمفتاح حتى فتحت فرفع سقفها وحسن ينظر ويتطاول بعنقهِ وهو يعجب من غدر هذا الرجل وخبثهِ . ثم ما لبث ان رآه مد يده الى داخل المحفة واستخرج شيئاً مغشى بالديباج فرفع الديباج عنهُ فاذا هو كرسي خشبهُ يلمع كالمرآة

وتقدم عرفجة بالكرسي حتى وضعهُ بين يدي محمد وهو يقول « اليس هذا كرسي الامام علي الذي انتصر بهِ المختار . . ؟ »

فابتسم محمد وقال « ولكنهُ فشل بعدئذٍ »

قال « فشل لانهُ لم يخلص النية في سعيهِ »

فقال محمد « وهل اذا انتدبناك لذلك تخلص النية ؟ »

قال وقد بان السرور في اسرة وجههِ « كيف لا ؟ وهذه بغيتي واكون قد نصرت الحق واهلهُ »

الفصل الخمسون

الفشل

فعجب حسن لقبول محمد بهذا الامر مع علمهِ بسوء نية عرفجة وحديث ذلك الكرسي ولكنهُ ما لبث ان سمع محمداً يقول لهُ « ولكن دعوة اهل العراق تحتاج الى المال لان بني امية انما غلبوا اخويَّ بالمال وسيغلبون اللائذ بالكعبة بالمال ايضاً فان ديارهم غنية وعندهم المال كثير ينفقونهُ في ابتياع الاحزاب فاذا كنت صاحب مال فاني ارجو لك النجاح »

فلما سمع عرفجة كلام محمد اسقط في يده وخاب ما املهُ ولم يدر بماذا يجيب ولكن محمداً لم ينتظر جوابهُ فقال لهُ « ثم اتيتني بهذا الكرسي الذي تزعم انهُ كرسي والدي وهو لبعض الزيانين . وتزعم اني انتدبت المختار ليدعو لي وهو وهمٌ باطل لان ذلك الثقفي انما انتدب نفسهُ ليشبع بطنهُ . واذا كنت انت جائعاً فالتمس باباً للرزق غير هذا ... » قال ذلك وقد ظهر الغضب والجد في وجههِ

فارتبك عرفجة في امرهِ وتحقق فشل مهمتهِ وقد قضى بضعة اعوام في تمهيد ذلك الكرسي وصقلهِ وشغل بال اهل المدينة بكتمان ذلك السر اعواماً وهو لا يشك اذا عرض هذا الأمر على محمد بن الحنفية ان يؤانس منهُ قبولاً صريحاً فيبتز منهُ المال ليشبع مطامعهُ وشرههُ ويضيف ذلك المال الى ما قبضهُ ويقبضهُ مهراً لابنتهِ من الحجاج — ومن الناس من لا يقف في سبيل مطامعهِ عِرضٌ ولا ذمام فلا يبالون بما قد يضحون في سبيل الكسب وهم في الغالب اصحاب الاحساس الاصم والعواطف المائتة . ومن كان هذا طبعهُ وكان ذا دهاء وسياسة لا يعسر عليهِ عمل مهما كان خطيراً . ولكن منهم من تموت عواطفهم ويصم احساسهم ويكونون مع ذلك ضعاف الرأي فهؤلاء يندر ان يتوفقوا في سعي كبير ويغلب الفشل في مساعيهم كما حدث لعرفجة في امر الكرسي

فلما تبين عرفجة الغضب في عيني محمد عمد الى الخديعة فوقف بين يديهِ وهو يظهر الاستغراب مما شاهدهُ وقال « لقد عجلتَ يامولاي بالحكم عليَّ وانا انما ادعوك الى امر عائدتهُ لك ولأهل بيتك لا التمس على ذلك أجراً ولا شكوراً ... »

فقطع محمد كلامهُ وهو ينظر اليهِ شزراً وقال « اتظن أمرك يخفى عليَّ والعاقل يقرأ المكر والخديعة في عينيك . ولولا حرمة الجوار لا لحقنك بالمختار والحقت بك سائر بني ثقيف ... ويكفي ما قد بدا ... » ثم نادى « سعيد »

فنهض صاحب بلال وهو يكاد يطير من الفرح واسرع حتى دخل على محمد وحسن وبلال ينظران وكلاهما مسرور

الفصل الحادي والخمسون

الرجوع

فلما وقف سعيد بين يدي محمد قال له « القِ هذا الكرسي في النار حالاً ... واخرج هذا الثقفي من خيمتي وليقم حيثما شاء واذا رحل فزوده بما شاء »

فلما سمع عرفجة ذلك خرج من تلقاء نفسه وهو يظهر الاسف لانه نصح محمداً ولم يثمر نصحه فيه وتبعه سعيد حتى خرج من الفسطاط فجعل يبحث عن عبده قنبر فلم يجده فسأله سعيد عما يبغيه فقال « اني راحل الى بلدي وقد اسفت لان الامام محمداً لم يفهم مرادي » قال ذلك وهو يبدي اللطف خوفاً على حياته . فوجد سعيد فرقاً عظيماً بين مقابلته الخشنة ساعة وصوله في مساء الامس و بين ما يبديه من التزلف ـ وذلك هو شأن امثال هذا الرجل فان الذين يظهرون الكبرياء و يستبدون باصاغر الناس يغلب اذا لاقوا ضغطاً من كبيران يستولي عليهم الذل وصغر النفس . لان ما كان يبدو من كبريائهم واستبدادهم لم ينجم عن نفس كبيرة وانما هي خفة وضعف رأي . واما كبير النفس فلا يسوم الناس اهانة مخافة ان يجاب بمثلها ونفسه تأبى ذلك

فلما رأى سعيد تزلف عرفجة رقّ له فعرض عليه النزول في دار الاضياف فاعتذر برغبته في الرجوع ونادى قنبراً وكان قد عاد الى الموقف الذي انتقلوا اليه في ذلك الصباح فجاء وقد ذلّ كما ذلّ سيده فركب عرفجة جملاً وقنبر الجمل الآخر وخرجا من الشعب يلتمسان معسكر الحجاج

فلما بعدا عن الخيام اخذ عرفجة يتوعد محمداً بالسوء عند الحجاج ويذكره بكل قبيح من الشتم والسباب ليستر مابدا لعبده من فشله . ولو خاف بلوغ ذلك السباب اليه ماقاله

اما سعيد فانه عاد الى فسطاط محمد وتناول الكرسي والقاه في النار وعاد الى حسن وبلال وكانا لايزالان في خيمته وقد ابرقت اسرة حسن من الفرح . فلما دخل سعيد واخبرها بخروج عرفجة من الخيام عاد حسن الى التفكر في الذهاب الى مكة فسأل سعيداً عن ذلك فقال « أظنني اذا سألت مولاي الامام عن هذا الشان امر بذهابي معكما لاني تعودت الذهاب في ذلك من قبل واكثر الطلائع يعرفونني » قال ذلك ودخل على محمد يستاذنه في الذهاب معهما فاذن له

فعاد سعيد اليهما واخبرهما فخرجا الى دار الاضياف ليتأهبا للسفر . وبعد قليل جاءهما سعيد على جواد فركبوا وساروا يلتمسون مكة من طريق يعرفهُ سعيد وكانت الشمس قد تكبدت السماء

الفصل الثاني والخمسون

يا شوقي والحبيب قريب

وفيما هم يسيرون وحسن يفكر في مهمتهِ وكيف يدخل على عبد الله بن الزبير بدون كتاب خالد رأوا غباراً يتصاعد في عرض الافق من جهة طريق المدينة ثم انقشع الغبار عن اعلام تخفق وخيول تركض وجمال تجعجع . فلما اقترب الركب تفرس حسن بالاعلام وبالناس فعلم انهم من انصار بني أُميـة وعلم من جهة مسيرهم انهم قادمون من المدينة وتذكر البريد الذي جاء المدينة يوم خروجهِ منها فترجح عندهُ انها نجدة الحجاج

ولكنهُ استغرب وصولها في ذلك اليوم مع انهُ اقلع قبلها والسيارة كلما زاد عددهم ثقلت خطواتهم فظن نفسهُ مخطئاً في حكمهِ عليهم فاعاد النظر الى الرايات والملابس فتحقق انها لاهل المدينة والقبائل القاطنة بجوارها فاعتبر بذلك مقدار السرعة التي مشت فيها تلك الحملة مما يدلُّ على شدة اضطرار الحجاج اليها . فترجل حسن ورفيقاهُ والتجأوا الى مكان بروز الركب منهُ ولا يراهم احد وجعل حسن يتفرس في وجوه الناس

فمرَّ الفرسان وحملة الرايات اولاً ثم الرجالة ثم احمال الزاد والمؤونة واخيراً رأى هودجاً يقودهُ عبدٌ ويسوقهُ عبد والى كل من جانبيهِ فارس . ولم ير في تلك الحملة هودجاً غيرهُ وكانت عادة العرب في الجاهلية واوائل الاسلام اذا خرجوا الى حرب يغلب ان يحملوا معهم النساء والاولاد فلما تمصروا قلت هذه العادة عندهم . فاستغرب حسن امر هذا الهودج وتبين من الاحتفاء بامرهِ انهُ لبعض الامراء — وما درى انهُ يقلُّ حبيبتهُ التي سلبت لبهُ ولانهم يحملونها الى سواه . ولو درى ذلك لطارت نفسهُ شعاعاً اليها . ولو صح ما يتغزل بهِ الشعراء من شعائر الحب وتواصل القلوب عن بعد لاضطرب حسن وخفق قلبهُ ودلهُ فكرهُ على ساكنة الهودج ولكن الشعراء يقولون ما لا يفعلون . او لعل سيال الحب لا يخترق جدار الهودج والكهربائية والحرارة وسائر القوى الطبيعية تخترقهُ !!

وظلوا وقوفًا يراقبون مسير تلك الحملة حتى رأوها تحوّلت الى جبل ابي قبيس فتحققوا انها تجدّ المدينة الى الحجاج لعلمهم ان الحجاج مخيم من تلك الانحاء

الفصل الثالث والخمسون

الكعبة والمنجنيق

ومشوا حتى اقبلوا على مكة وسعيد يركض جواده الى الامام وحسن وبلال يسيران وراءهُ فلما اشرفوا على مكة رأوا الطلائع من الفرسان والهجانة تجول حولها وقد اقترب اليهم بعضهم فتقدم سعيد حتى استقبلهم وقال لهم انهم ذاهبون لغرض يخص محمد ابن الحنفية فاذنوا لهم وقد عرفوه . فدخلوا مكة وحسن ينظر عن بعد الى جبل ابي قبيس فرأى فيهِ خيامًا وحولها الناس وقد صغرت اشباحهم لبعد المسافة . وبعد قليل وصلوا الى تل وفيهِ بعض المدافن فقال سعيد « ها اننا في الحجون » فوقف حسن على مرتفع ونظر الى مكة فاذا هو قد أشرف على المسجد الحرام والكعبة في وسطهِ . وكان قد زار مكة من قبل ورأى الكعبة لكنهُ رآها في ذلك اليوم اكبر مما يعهدها فيهِ ورأى على سطحها اشياء غريبة كالفرش والاثاث فوقف هنيهة وسعيد واقف معهُ فلما رأى ذلك قال « اني أرى الكعبة على غير ما أعهدها فيهِ كأنها كبيرة وكأن عليها فرشًا واثاثًا وكأني أرى في أرض المسجد خيامًا .. »

فقال سعيد « لقد صدق ظنك اما الكعبة فانها الآن اكبر مما تعهدها لانها احترقت في الحصار الماضي على عهد يزيد بن معاوية فاعاد ابن الزبير بناءها ووسعها الى ما كانت عليهِ في الزمن الاول قبلما بنتها قريش [1] واما ما تراه على سطحها فهو الواحُ الساج وضعها عبد الله هناك ووضع فوقها الفرش والقطائف وقاية لها من حجارة المنجنيق [2] لان الحجاج نصب المنجنيقات على جبل ابي قبيس وجعل يرمي الكعبة بالحجارة نكاية بابن الزبير .... »

فقطع حسن كلامهُ وقال « اعوذ بالله من ذلك .. يرمون بيت الله بالحجارة ... ؟ »

---

(١) مقدمة ابن خلدون (٢) ابن الاثير ج ٤

فقال « هذا عمل الحجاج فانهُ رجل عاتٍ لا يبالي بما يقف في سبيل مقاصده فقد رأيناه يرمي الكعبة بالمنجنيق والناس يطوفون حولها . واتفق في الحجة الماضية ان عبدالله بن عمر حج وكان مولاي الامام محمد في جملة الحجاج فكنا نطوف والحجارة تتساقط علينا فبعث بن عمر الى الحجاج يقول لهُ « اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس فانك في شهر حرام وبلد حرام وقد قدمت وفود الله من اقطار الارض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرًا وان المنجنيق قد منعهم عن الطواف فاكفف عن الرمي حتى يقضوا ما يجب عليهم بمكة » فبطل الرمي حتى عاد الناس من عرفات وطافوا وسعوا ولم يمنع ابن الزبير الحاج من الطواف والسعي . فلما فرغوا من طواف الزيارة نادى منادي الحجاج « انصرفوا الى بلادكم فانا نعود الى الحجارة على ابن الزبير الملحد » . وبلغني انهُ اول ما رمى بالمنجنيق الى الكعبة ارعدت السماء وابرقت وتلاصوت الرعد على الحجارة فاعظم ذلك رجالهُ وامسكوا ايديهم . فاخذ الحجاج حجارة المنجنيق بيدهِ فوضعها فيهِ ورمى بها معهم . فلما اصبحوا جاءت الصواعق فقتلت من اصحابهِ اثنى عشر رجلاً فقال الحجاج لرجالهِ « يا اهل الشام لا تنكروا هذا فاني ابن تهامة وهذه صواعقها وهذا الفتح قد حضر فابشروا » فلما كان الغد جاءت الصاعقة فاصابت من اصحاب ابن الزبير عدة فقال الحجاج « ألا ترون انهم يصابون وانتم على الطاعة وهم على خلافها »

الفصل الرابع والخمسون

الجوع والضيق

فعجب حسن لدهاء الحجاج وعتوّه وساق جملهُ حتى نزلوا اسواق مكة فقال حسن لسعيد « لقد وصلنا مأمننا فاذا رايت الرجوع فارجع جزاك الله خيرًا »

فقال « بل اوصلكما الى المسجد فاطوف طوفة واعود »

ولما دنوا من المسجد سمعوا صدمة قوية فقال سعيد « هذا صوت حجر من حجارة المنجنيق وقع على جدار الكعبة . . . أنظر الى حمام الحرم كيف يتطاير اجنالاً من صوت وقوعهِ »

واحسَّ حسن بالجوع لانهم خرجوا من الشعب ولم يأكلوا فقال لسعيد « بالله الا

اخذتنا الى احد باعة الاطعمة فناكل شيئًا » فضحك سعيد وقال « ان الاطعمة قليلة في مكة والناس في ضنك شديد من الجوع فقد بيعت الدجاجة بعشرة دراهم والمد الذرة بعشرين درهماً وقد سمعت ان ابن الزبير اضطر لما اصاب رجاله من المجاعة ان يذبح فرسه ويقسم لحمها فيهم [1] » قال ذلك وادنى فمه من اذن حسن وقال بصوت منخفض « ولكنني اعلم علم اليقين ان بيوت ابن الزبير مملوءة قمحًا وشعيرًا وذرة وتمرًا اختزنها خوف المجاعة ولولا ذلك لما استطاع الصبر على هذا الحصار والحجاج ورجاله ينتظرون فراغ ما عنده من المؤونة حتى يسلم اليهم » [1]

فقال حسن « لا بأس من ابتياع شيء ناكله ولو كان غاليًا .. » واشار الى بلال فانصرف الى السوق وعاد بشيء من خبز الشعير والسويق فاكلوا على عجل وساروا حتى اتوا المسجد الحرام وبلال يقود الجمل وراءهم . ودخل حسن وسعيد الى المسجد يتظاهران بالرغبة في الطواف . ثم سأل حسن عن ابن الزبير فقيل له انه يصلي بجانب الكعبة فسأل عن مصيره بعد الصلاة فقالوا انه يصير الى بيته . فدله سعيد على بيته بأصبعه وودعه وعاد الى الشعب

فرأى حسن ان يصلي ركعتين ويطلب الى الله ان يرشده الى الصواب فصلى ثم جلس في بعض اطراف المسجد ينتظر الفراغ من صلاة عبد الله وجعل يفكر في امره والمهمة التي جاء من اجلها في ذلك الوقت وما هو وقت خطبة ولا زواج . ثم جرته هواجسه الى ما كان من امر سمية وانتظارها رجوعه ليقترنا . ثم انتقل الى الافتكار بعرفجة وما كان من امره في ذلك الصباح وخيل له ان الفشل الذي اصابه سيكون وسيلة للتقريب بينه وبينها . وفكر في مصير عرفجة بعد خروجه من عند ابن الحنفية فظنه عاد الى المدينة لانه لا يستطيع الغياب عنها طويلاً وليس في البيت عند سمية احد

وكان حسن وهو في تلك الهواجس لا يرى الناس يدخلون المسجد الاّ قليلاً ثم ما لبث ان سمع قرقعة واحس كأن شيئًا هوى بالقرب منه وسمع رفرفة اطيار فالتفت فراى حجرًا كبيرًا اصاب الكعبة وسقط على الارض فعلم انه من احجار المنجنيق وقد اجفل حمام الحرم من وقعه فتطاير ثم عاد فوقع على الكعبة وعلى جدران المسجد . ولم يرَ الناس يهتمون بتلك الحجارة لانهم تعودوها لكثرتها

فتذكر حسن للحال ان عبد الله يصلي بجوار الكعبة فاستغرب تعريضه نفسه لحجارة

(١) ابن الاثير ج ٤

المنجنيق وخاف ان يكون ذلك الحجر قد أصابهُ واضرَّ بهِ حتى لم يعد يستطيع النهوض وخصوصاً بعد ان طال وقت صلاتهِ فانشغل خاطره عليهِ فنهض ومشى في فناء المسجد يلتمس الكعبة حتى مرَّ بالحطيم وحجر اسماعيل ودار نحو بئر زمزم فرأى وراء الكعبة من الجهة الأُخرى بضعة رجال وقوفاً . فأقبل عليهم ليسألهم عن عبد الله فلما دنا منهم رأى بجانب الكعبة رجلاً ساجداً وقد استقبل الارض بوجههِ ورأى على ظهره حمامتين من حمام المسجد كانهما واقفتان على حائط والرجل لا يتحرك . فخيل لهُ انهُ مائت فاستغرب وقوف الناس هناك ولا يهتم بهِ أحد . فتقدم الى احدهم فحياهُ واشار اشارة يستدل منها على استغرابهِ أمر ذلك الساجد فابتسم الرجل وقال لهُ « يظهر انك لا تعرف من هو الساجد »

قال « كلاَّ »

قال « هو أمير المؤمنين »

ففهم حسن انهم يريدون عبد الله بن الزبير وزاد استغراباً وقال « وما بالي أرى الحمام يقع على ظهره وهو لا يتحرك »

قال « يظهر انك غريب في مكة . . فاعلم ان مولانا امير المؤمنين اكثر الناس صلاة وسجوداً وكثيراً ما رأينا العصافير تقع على ظهره في اثناء الصلاة تظنهُ حائطاً لسكونهِ وطول سجوده [1] ولهذا السبب ترى الحمام يقع عليهِ »

فقال حسن « انهُ سجود طويل »

فتقدم رجل آخر كان واقفاً هناك وقال « يظهر انكم لا تعلمون من تقوى أمير المؤمنين الاَّ قليلاً . واما انا فقد صحبتهُ طويلاً فرأيتهُ يقضي ليالية بثلاث حالات ليلة يقضيها قائماً الى الصباح وليلة راكعاً وليلة ساجداً . ناهيك بصومهِ فانهُ صائم الدهر كلهُ الاَّ ثلاثة أيام يفطرها في كل شهر »

فاندهش حسن لهذه التقوى وقال في نفسهِ « يجدر بمن كان مثل هذا ان يكتب لهُ النصر »

وفيما هم وقوف سمعوا رعداً علموا انهُ صوت المنجنيق فتنافروا ووقع الحجر على حائط الكعبة وسقط الى الارض بجانب ابن الزبير فنفر الحمام عنهُ وهو لا يزال ساكناً لا يتحرك فاندهل حسن وقال لصاحبهِ « الا تخافون على حياة أمير المؤمنين . . . ؟ »

فقال « لقد طالما انتهاهُ الى ذلك وكثيراً ما وقع لهُ مثل ما تراهُ وهو لا يبالي »

---

(١) ابن الاثير ج ٤

فقال حسن « أرجو ان يحرسهُ الله »

فقال الرجل « ان الله حارسهُ لفرط نقواه وكثرة عبادتهِ فانهُ لا يعجزه باب من ابواب العبادة فقد حدث في العام الماضي سيل طبق البيت ومنع الناس من الطواف فطاف أمير المؤمنين سابحًا »[1]

الفصل الخامس والخمسون

عبدالله بن الزبير

فتأمل حسن في وجه مخاطبهِ فاذا هو يتكلم وملامح الاهتمام بادية في وجههِ لا يدري بماذا يعبر عن منزلة ابن الزبير عندهُ ولا مقدار حبهِ لهُ ورآه موجهًا نفسهُ اليهِ يتوقع سؤالاً يسألهُ اياه عن ابن الزبير ليشرح لهُ ما يعلمهُ من نقواه وشجاعتهِ وصدق دعوتهِ — قرأ حسن كل ذلك في عيني ذلك الرجل وتحقق من تلك الظواهر انهُ من أشد انصار ابن الزبير غيرة عليهِ وتبين لهُ من قيافتهِ وهندامهِ انهُ من وجهائهم . وزاد اعتقادًا في وجاهتهِ لما آنسهُ من لطفهِ ودعتهِ لان الانسان يزداد لطفًا وداعة بازدياد منزلتهِ رفعة فاذا رأيت جفاء وكبرياء من احد الناس وانت لا تعرفهُ فاعلم انهُ دنيء الطبع ولا عبرة بما قد يكسوه من اللباس الفاخر او ما في خزائنهِ من الاموال الطائلة فان دناءة الطبع تظهر في جفائهِ وكبريائهِ

وفيما حسن يفكر في ذلك ومخاطبهُ واقف الى جانبهِ ينتظر أمره سمعا عبدالله ينادي « ابن صفوان » ثم رأى الرجل الذي كان يخاطبهُ بغت واسرع الى عبدالله وهو يقول « لبيك يا أمير المؤمنين »

ففهم حسن انهُ عبدالله بن صفوان الجمحي وكان قد سمع عن حبهِ لابن الزبير واستهلاكهِ في نصرتهِ . وهو رجل في نحو الستين من عمره عريض الجبهة خشن الملامح عريض المنكبين مما يدل على الثبات والقوة اصلع الجبهة . ثم التفت حسن الى ابن الزبير وتهيأ للسلام عليهِ اذا مرَّ بجانبهِ فاذا هو طويل القامة عريض الكتفين لحيتهُ غزيرة في اسفل ذقنهِ خفيفة في

(١) ابن الاثير ج ٤

عارضيهِ [١] وهو ما يعبرون عنهُ بالكوسج . وتفرس فيهِ وهو يصلح عمامتهُ عند نهوضهِ من الصلاة فرأى شعره جمة مفروقة طويلة [٢] وتأمل في وجههِ فرأى الهرم قد بدا في ملامحهِ لفرط ما قاساه من أمر ذلك الحصار وشدة ما أحاط بهِ من الضيق وهو في الثالثة والسبعين من عمره لانهُ اول مولود ولد للمسلمين بعد الهجرة

وتهيأ حسن للسلام عليهِ وتقبيل يدهِ ثم رآه تحوَّل من جهة أُخرى ولم يلتفت الى احد من الوقوف ومشى مشية ثابتة تدل على جلال ووقار وسار ابن صفوان في اثرهِ وهو يراعيهِ بعينيهِ وكل عواطفهِ . فلما مشى ابن صفوان لحظ حسن في مشيتهِ عرجاً [٣] . . وعلم انهما سائران الى البيت فاقتفى اثرهما وهو يفكر في مخاطبة عبدالله بالامر الذي جاء من اجلهِ لكنهُ تهيب واستحيى لما رآه فيهِ من الاضطراب والضيق . على انهُ عوَّل على اغتنام الفرصة ومخاطبتهِ في خلوة

فخرج عبدالله من المسجد وابن صفوان يتبعهُ وحسن في اثرهما . والناس حيثما لقوهُ وقفوا لهُ وحيوهُ حتى اشرفوا على دار واسعة قد غصت بالوقوف من الناس وخارجها مرابط الخيول والمعالف . فلما أقبل عبدالله على الدار توجهت ابصار الناس اليهِ ووسعوا لهُ فاخترق الصفوف وهو مطرق حتى اشرف على مقعد في صدر القاعة فجلس عليهِ الاربعاء وجلس الى جانبهِ شاب كثير الشبه بهِ ظنهُ ابنهُ ولكنهُ لم يعرف اي اولاده ثم جاء شابان آخران جلسا الى جانبهِ الآخر وجلس الناس بين يديهِ لا ينبهُ احد بكلمة لفرط ما احاط بهم من الامر العظيم . ولبثوا هنيهة كأن على رؤوسهم الطير . اما حسن فرأى نفسهُ غريباً بين هذه الجموع فأحب الخروج فرأى ابن صفوان يشير اليهِ من بعض جوانب القاعة ان « اقبل » فمشى اليهِ وجلس الى جانبهِ وقال لهُ « يسرني اني عرفت شخصك اليوم وقد طالما سمعت باسمك »

فقال ابن صفوان « فهل تنتسب لاعرفك انا ايضاً »

قال « سأُطلعك على امري فيما بعد اذا لا غنى لي عن معونتك »

وكانا يتكلمان همساً والناس سكوت وربما اضطر احدهم للسعال فامسك نفسهُ . فالتفت حسن الى ابن صفوان وقال لهُ « اي ابناء امير المؤمنين هؤلاء »

قال « ان الذي تراهُ الى يمينهِ هو اخوهُ عروة بن الزبير . والاثنان الجالسان الى يسارهِ ولداهُ حمزة وخبيب وترى على مسافة منهما شاباً مطرقاً في الارض فهو ولدهُ الثالث واسمهُ

---

١ اسد الغابة ج ٣ ٢ ابن الاثير ج ٤ ٣ العقد الفريد ج ٢

مثل اسم جده . . ان هذا الشاب جدير بأن يكون ابن امير المؤمنين » قال ذلك واستأذنه قائلاً « لابدّ لي من مفارقتك لأمرٍ يدعوني الى ذلك فاننا في مجلس ذي بال اليوم وستسمع وترى فان هؤلاء كلهم من قريش وهم رؤساء القبائل » ثم تحوّل حتى وقف على مقربة من عبدالله فأشار اليه عبدالله ان يقعد

الفصل السادس والخمسون

تضعضع الحال

ثم وقف احد الجلوس وخاطب عبدالله قائلاً « يا امير المؤمنين اننا بحمدالله نعتقد صدق دعوتك وانك على الحق . وقد قاتلنا معك حتى لانجد مقيلاً ولئن صبرنا معك ما نزيد على ان نموت . وانما هي احدى خصلتين اما ان تأذن لنا فنأخذ الامان لانفسنا واما ان تأذن لنا فنخرج »

فلما سمع حسن ذلك الكلام تحقق ضعف القوم وعلم انهم صائرون الى الفشل . ثم سمع ابن الزبير يقول « ألم تبايعوني على انفسكم واموالكم ؟ . . »

قال « بلى ولكننا نرجو ان نقيلنا بيعتنا اذ لانرى فائدة من البقاء على البيعة »

فقال عبدالله « لقد كنت عاهدت الله ان لا يبايعني احدٌ فأقيله بيعته الاّ ابن صفوان »

فالتفت حسن الى ابن صفوان فرآه قد وقف بغتةً والحمية والغيرة تنبعثان من عينيه وقد ظهر التأثر في وجهه وقال « اما انا فاني أقاتل معك حتى اموت بموتك وانها لتأخذني الحفيظة ان أُسلمك في مثل هذه الحالة »

ولم يتم ابن صفوان قوله حتى علت الاصوات وضجّ الناس وانقسموا الى حزبين واكثرهم لا يرون رأي ابن صفوان . فشق ذلك على حسن ودبت الحمية في عروقه فوقف وارتجل قائلاً « بورك فيك يا ابن صفوان بورك برجل بايع وثبت في بيعته ان امير المؤمنين كما تعلمون اولى الناس بهذا الامر . لأن عثمان رحمه الله استخلفه على الدار يوم مقتله فهو ولي عهده من ذلك اليوم[1] ومثلكم يفهم معنى الخلافة ولا تغره بهارج الدنيا . ألا ترون

(١) العقد الفريد ج ٣

عبدالملك بن مروان كيف يستعين على هذا الامر بالمال والرجال .. ؟ وامير المؤمنين انما يستعين بالصوم والصلاة . تلك هي خلافة الراشدين رحمهم الله اجمعين . الم تسمعوا ماذا فعل عبد الملك يوم جاءهُ الخبر بالبيعة بعد موت ابيهِ مروان ؟ .... انتم تعلمون ان عبدالملك كان من فقهاء المدينة ولكثرة ما كان يظهر من التدين والتقوى سموهُ حمامة المسجد . فلما مات ابوهُ وبشر بالخلافة كان المصحف في يدهِ فأطبقهُ وقال « هذا فراق بيني وبينك » (١) ابن هذا من سجود امير المؤمنين وصلاتهِ وصيامهِ مما لا يخفى على احد منكم . وفوق ذلك ان لأمير المؤمنين بيعة في اعناقكم وانتم جماعة قريش اهل الحماسة فكيف تغادرون امير المؤمنين وهو في هذه الحال اما لكم اسوة بابن صفوان ؟ .. »

وكان حسن يتكلم والعرق ينصبب من جبينهِ وقد امتقع لونهُ وهو يعتقد مع ذلك ان الوفاق اصبح عبثًا ولكنهُ لم يستطع غير الانتصار للضعيف . وكانت الابصار شاخصة اليهِ لانهُ غريب ولم يعرفهُ احد منهم . وكان عبدالله بن الزبير ينظر اليهِ ويعجب بغيرتهِ . فلما فرغ من الكلام زادت الغوغاء فوقف رجل آخر وقال « لقد نطقت بالصواب وان البيعة في اعناقنا لا ننكرها وما نحن خارجون من بين يديهِ الاَّ بأمرهِ . ولكننا نرى القتال عبثًا ومعنا من الرجال عشرة آلاف رجل وقد جعنا جميعًا وعطشنا وقلّت مؤونتنا وذخيرتنا . وهذه منجنيقات الحجاج ترمينا من فوق الكعبة لا يبالي بحرمة هذا البيت . وقد نصب لنا الحجاج الآن راية الامان فمن خرج اليها سلم فما بالنا لا نختار الطريق الاسلم » ثم التفت الرجل الى عبدالله بن الزبير وقال « اكتب الى عبدالملك بن مروان لنرى رأيهُ فلعلكما تنتهيان الى امر فيهِ صلاح الحال » (٢)

فلما سمع عبدالله اسم عبدالملك بن مروان اجفل وتغير وجههُ وقال « كيف اكتب اليهِ ؟ .. أبدأ بنفسي او ابدأ بهِ ؟ أأكتب من عبدالله امير المؤمنين الى عبدالملك ابن مروان .. ؟ فوالله لا يقبل هذا ابدًا . ام اكتب لعبدالملك بن مروان امير المؤمنين من عبدالله بن الزبير .. ؟ فوالله لأن تقع الخضراء على الغبراء احب اليَّ من ذلك » (٣) قال ذلك وسكت وهو يحك ذقنهُ حيث لا ترعاهُ . وسكت الناس ينتظرون رأيًا جديدًا فاذا بعروة بن الزبير اخي عبدالله التفت الى اخيهِ وهو جالس بجانبهِ على المقعد وقال لهُ « يا امير المؤمنين قد جعل الله لك اسوة »

فقال عبدالله وقد ظهر الغضب في جبينهِ « من هو ؟ .. »

---

(١) الفخري (٢) ابن الاثير ج ٤ (٣) العقد الفريد ج ٢

قال عروة « حسن بن علي فانه خلع نفسه وبايع معاوية » ولم يتم عروة قوله حتى رفع عبدالله رجله وضربه بها حتى القاه عن المقعد . فاجفل الناس من سقوط عروة واعظموا غضب عبدالله فنهبوا ثم سمعوه يقول له « يا عروة . . قلبي اذاً مثل قلبك ! والله لو قبلت ما يقولون ماعشت الا قليلاً وقد اخذت الدنية . وان ضربة بسيف في عزٍّ خيرٌ من لطمة في ذل » ثم وقف والتفت الى الجموع ولحيته ترقص في وجهه من شدة التأثر وقال لهم « أنتم مخيرون فافعلوا ما تشاؤون وان رجلاً يجرُّ الى الحرب بجبل لا يحارب وان الله ولي ونعم النصير » قال ذلك واراد الفحول فوقف ولداه عن يساره وهما حمزة وخبيب وقالا « وهل نحن مخيرون ايضاً »

فعجب حسن لما سمعه وقال في نفسه حتى اولاده تخلوا عنه والتفت الى عبدالله فرآه ينظر اليهما وعيناه تلمعان بما يتجلى فيهما من الدمع ثم قال « نعم ياولداه وانتما ايضاً في حل امضيا واطلبا الحياة ولا تموتا » ثم اخنق صوته فسكت ريثما ابتلع ريقه ونظر الى ابنه الثالث الزبير وقال له « وانت يا بنيّ اطلب لنفسك اماناً مع اخويك فوالله اني لأحب بقاءكم »

فوثب الزبير من مجلسه وقال ولم يبد على وجهه شيء من الخوف « حاشا لله ان اتخلى عنك فما كنتُ لارغب بنفسي عنك » (١)

الفصل السابع والخمسون

خالد وعبدالملك

ثم دخل عبد الله من باب في آخر القاعة الى دار النساء وظل حسن واقفاً في جملة الوقوف وهو يسمع ما يدور بينهم . فعلم انهم أجمعوا على الخروج الى الحجاج يلتمسون امانه . وادرك ان اشد ما ابعدهم عن ابن الزبير بخله بجانب سخاء عبدالملك وبذل بني امية الاموال لاحزابهم . حتى قد يقال ان دولة بني امية قامت بالمال . فساءه ذلك مع اعتقاده ان هؤلاء انما ارادوا الخروج رغبة في العطاء وان صبر ابن الزبير قد لا يفيده شيئاً ولكن الانسان لا يعيش في هذه الدنيا عمر بن وانما هي مونة فلا كانت عيشة تشرى

(١) ابن الاثير ج ٤

بالشرف والمروءة

وما احسّ حسن بعد هنيهة الاّ ويدٌ امسكته فالتفت فاذا هو ابن صفوان يدعوه اليه فتبعه حتى دخلا حجرة بجانب تلك الدار وابن صفوان يقول «ان امير المؤمنين يدعوك وقد احب ان يراك» قال ذلك وتركه هناك وخرج

فسرّ حسن لتلك الدعوة لانه سيغتنم الفرصة للكلام بالمهمة التي جاء من اجلها ولو كان الكلام فيها لا يجدي نفعاً

وبعد هنيهة عاد ابن صفوان واشار الى حسن فتبعه حتى دخلا حجرة رأيا عبد الله يتمشى فيها وحده وقد اخذ منه الغضب مأخذاً عظيماً وهو تارة يمسح جبهته وطوراً يحك لحيته وآونة يشمر عن ساعده او يرسل كمه مما يدلّ على عظم البلبال . وتأمل حسن في تلك الحجرة فاذا هي لا شيء فيها من الاثاث غير حصير ومقعد . فلما اقبلا عليه تقدم حسن اليه وسلم عليه بالخلافة فرحب به ودعاه الى الجلوس على المقعد فلم يجلس وابن الزبير واقف فالح عليه بالجلوس وقال «دعني واقفاً وسأجلس بعد هنيهة»

فجلس حسن وابو صفوان لا يزال واقفاً يراعي عبدالله ويراقب حركاته وسكناته ولا يتكلم

ثم التفت عبد الله الى حسن وقال له «من ابن قدمت ؟»

قال «من الشام»

فبغت عبدالله عند سماع اسم الشام لان فيها اعداءه ومناظريه والتفت الى ابن صفوان كأنه يطلب مشاركته في الاستغراب فرآه لا يقلّ عنه استغراباً فقال عبدالله «وما الذي جاء بك الينا ونحن في هذه الحال ... العلك جاسوس .. ؟»

قال «معاذ الله يا مولاي كيف اكون جاسوساً واصبر على الظهور بما فعلته اليوم ؟»

فجلس عبدالله على جانب المقعد وامر ابن صفوان بالجلوس فجلس . ثم قال عبد الله «لا غرابة في ما ظهر منك وان كنت جاسوساً لان الجواسيس يتلونون تلون الحرباء . على اني لا أبالي مهما يكن من امرك فما انا ممن يستعينون بالجواسيس ولا انا اخافهم وانما استعين بالحق والعدل»

فوقف حسن وهو يقول «العفو يا مولاي اني اجلّ نفسي عن الجاسوسية في هذا السبيل وانما أنا رسول اليك في مهمة لا أرى مسوغاً للكلام فيها الآن ..»

قال « وماذا تعني .. ؟ وكيف لا مسوغ لها ؟ .. قل ... لا باس مما تراه من الاحوال . من ارسلك الينا من الشام .. ؟ العلك قادم من عبدالملك بنصيحة ؟ .. »

قال « كلا يامولاي بل انا قادم من عند خالد بن يزيد بن معاوية .. »

قال « وهو ايضاً اموي وشأنهُ عندنا مثل شان عبد الملك وان يكن اعرف منهُ بالكيمياء والشعر ونحو ذلك .. »

فقال حسن « ما كنت احسب الحقيقة تخفى على مولاي امير المؤمنين . فانها عكس ذلك على خط مستقيم »

قال « كيف يكون هذا وكلاهما امويان وقد اتحدا علينا وقاما لحربنا .. ؟ »

قال « اما الحرب فقد نصبها عبد الملك وليس خالد . ولو عرفت ما بينهما من الدخائل السرية لتحققت ان خالداً ارغب في بيعة امير المؤمنين من آل العوام انفسهم .. »

فقال عبدالله وهو يبتسم ابتسامة الاستخفاف يغتصبها اغتصاباً « وكيف يكون ذلك وهو ابن يزيد الذي امر بحصار هذا البيت وقاتلنا حتى هدم الكعبة بمنجنيقاتهِ ثم احترقت واعدنا بناءها .. ؟ »

فقال حسن « صدقت يا مولاي انهُ ابن يزيد بن معاوية ولكن لا يخفى عليك انهُ لما مات يزيد كان الحصين بن النمير لا يزال محاصراً البيت الحرام وانتم فيهِ وهو لا يعلم بموت خليفتهِ يزيد وبلغني انكم عرفتم بموتهِ قبلهُ واذا صح ما سمعتهُ عما دار بينكم وبينهُ بشأن الخلافة ... »

فقطع عبدالله كلامهُ وقال « اظنك تعني انهُ عرض عليَّ البيعة بعد موت يزيد ؟ »

قال حسن « نعم يا مولاي ذلك الذي اعنيهِ لانك لو اجبتهُ الى هذه البيعة لما كان على منصة الخلافة سواك »

فتقطب حاجبا عبدالله بغتة كأنهُ تذكر امراً بؤلمهُ ذكرهُ وقال « ولكنهُ اراد ان اذهب معهُ الى الشام وانهُ لا ببايعني الاَّ هناك »

قال « وما يمنع ذهابك .. ؟ ولا اشك انك لو خرجت معهُ الى الشام وقربتهُ منك لم يخالف عليك احد منهم ... »

فاسرع عبدالله في قطع الكلام لانهُ لا يحب ان يتذكر الخطأ الذي ارتكبهُ في ذلك ولولاهُ لكان بنو العوام خلفاء الاسلام بدل بني أُمية لشدة اضطراب حال بني امية في

ذلك الحين — فقال عبدالله « ثم ماذا ؟ .. اوصلنا الى حديث خالد »

قال « لما مات يزيد بايع اهل الشام ابنهُ معاوية (الثاني) كما تعلمون وهذا لم يكن يرى لبني امية حقاً بالخلافة كما صرح جهاراً في خطابهِ بعد ان تولاها باربعين يوماً فانهُ أمر فنودي « الصلاة جامعة » فاجتمع الناس فحمد الله واثنى عليهِ ثم قال « اما بعد فاني ضعفت عن امركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفهُ ابو بكر فلم اجد فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم اجدهم فانتم اولى بامركم فاختاروا . ما كنت لأتزودها ميتاً وما استمتعت بهِ حياً » ثم دخل دارهُ وتغيب حتى مات . فلما مات معاوية هذا اختلف الناس في من يولونهُ واضطربت الاحوال كما هو معلوم حتى آل الامر الى مبايعة مروان بن الحكم لانهُ اكبر بني امية سناً . وكلنا يعلم شأن هذا الرجل في امر عثمان وكيف انهُ اوقد جذوة تلك الفتنة التي لم تخلص من عواقبها الى اليوم . فتولاها مروان دون خالد بن يزيد وخالد احق بها منهُ بالنظر لما وضعهُ جدهُ معاوية من امر الوراثة في الحكم . ولكن بني سفيان لم يرضوا ببيعتهِ حتى عاهدهم انهُ يجعل الخلافة بعدهُ لخالد . فلما تولاها مروان حدثتهُ نفسهُ ان يخرجها من نسل معاوية الى نسلهِ فتزوج ام خالد حتى تصغر نفس خالد عن طلب الخلافة [1]

« واتفق بعد بضعة اشهر ان مروان ناظر خالداً في شأن وشتمهُ واهان امهُ فخرج خالد الى امهِ واطلعها على ما كان فقالت لهُ: دعهُ فانهُ لا يقولها لك بعد اليوم . وفي ذلك المساء جاءها مروان وسألها هل اخبرها خالد بما جرى بينهما . فقالت يا امير المؤمنين خالد اشد تعظيماً لك من ان يذكر لي خبراً جرى بينك وبينهُ . فلما امسى المساء وضعت مرفقة على وجههِ وقعدت عليها هي وجواريها حتى مات ولم يتم السنة في خلافتهِ والناس يظنونهُ مات حتف انفهِ فخلفهُ ابنهُ عبدالملك وهو يعلم بالامر فخاف اذا انتقم لابيهِ ان ينتضح امرهُ ويقال ان امرأة قتلتهُ . ولكنهُ ظل حاقداً على خالد وخالد ينظر الى عبد الملك نظرهُ الى مختلس . ولهذا السبب قلت لمولاي امير المؤمنين ان خالداً أرغب من آل العوام في خلافتك »

(١) ابن الاثير ج ٤ ٢ الاغاني ج ١٦

الفصل الثامن والخمسون

الخطبة

فلما فرغ حسن من كلامهِ أطرق عبدالله طويلاً وقد استغرق في الافكار وحسن وابن صفوان صامتان وقد أحسَّ كلٌّ منهما بما يجول في خاطر عبدالله اثناء ذلك الصمت الطويل . ثم رفع عبدالله رأسهُ بغتة ونظر الى حسن وهو يقول « لقد فات الوقت وجاء هذا العلم بعد اوانهِ ولكن ما يقدرهُ الله فهو كائن . ومع ذلك فلا أظن خالدًا يرضى بخروج هذا الامر من بني أعمامهِ الى رجل حاربهُ أبوهُ عليهِ . ولا أرى ثمت مسوغًا لذلك . . . » وكأنهُ انتبه للموضوع الاصلي الذي جرَّ كل هذه الحواشي فنظر الى حسن بغتة وقال « وما هو الامر الذي جئت من أجلهِ »

قال « انهُ امرٌ لا يستحسن الخوض فيهِ في هذه الاحوال »

قال « لا بأس قل . . »

قال « انتدبني خالد لآتي الى أمير المؤمنين خاطبًا »

قال « مَن ولمن ؟ »

قال « مولاتي رملة اخت امير المؤمنين الى مولاي خالد بن يزيد وقد كتب بذلك كتابًا ضاع مني في المدينة لسبب يطول شرحهُ »

فوقع ذلك الطلب موقع الاستغراب عند عبدالله لاعتقاده بالتباعد بين القبيلتين على انهُ لما تذكر ما سمعهُ في هذا الشأن هان عليهِ تصديق الامر . ولكنهُ ما زال مرتابًا في ذلك الرسول فقال لهُ « اذا كان خالد كما وصفت فاني اسرُّ بمصاهرتهِ ولكنني اودُّ الاطلاع على كتابهِ . ومع ذلك فان الحال تدعو الى التريث برهة لنرى ما يقضيهِ الله بيننا وبين هذا الطاغية الذي يرمي بمنجنيقاتهِ على بيت الله ولا يخاف عقابًا »

فقال حسن « ذلك هو السبب الذي دعاني الى التردد في تبليغ الرسالة لاني رأيت الحال حرجة كما ذكرت ولكن يكفيني ما سمعتهُ من الرضى وقد شعرت بضعف ساعدي في هذا الامر لاني لا احمل كتابًا من خالد ولا أرى الحال تساعد على القطع فساكتب اليهِ اطمئنهُ بالقبول بعد ان يصل كتابهُ بهذا الشأن . ثم انني اعرض على مولاي ان اكون في خدمتهِ لعلي استطيع امرًا يكون فيهِ مصلحة لهُ . فهل ترى ان اذهب الى الحجاج

فأخاطبه بأمر الهدنة او الصلح او نحو ذلك فربما كان لكلامي وقع عنده لاني اعتبر من اتباع بني امية فلا يستغشني .. »

فقطع عبدالله كلامه وقال « لا .. لا .. دعهم وما يفعلون اني لا اريد وساطة وخصوصاً لدى عبد ثقيف » قال ذلك ووقف فوقف حسن وابن صفوان واحسّ حسن انه ينبغي له ان ينصرف فحياه مودعاً وخرج من باب غير الباب الذي دخل فيه وقد سدل الليل نقابه فتبعه ابن صفوان وهو يقول له « رويدك يا أخا العرب »

فوقف حسن حتى اقترب ابن صفوان منه فاذا هو امسك بيده وادنى فمه من اذنه وقال همساً « تعالَ معي »

فمشى معه حتى دخلا داراً بجانب دار ابن الزبير فأدخله غرفة خلا به فيها ثم قال ابن صفوان « سمعتك تعرض على امير المؤمنين التوسط لدى الحجاج في المهادنة أو نحوها واميرالمؤمنين لم يقبل ذلك انفة منه . ولكنني اعلم ما نحن فيه من الضنك وان المهادنة تفيدنا في لم شعثنا لاننا قد تشتتنا .. لا أقول ذلك خوفاً من الموت فاننا لا رغبة لنا في هذه الحياة الدنيا وانما نحن نطلب الآخرة وبنو امية يريدون هذه الحياة الفانية ويسفكون الدماء من أجلها ... فاذا رأيت لك قدرة على شيء من ذلك افعل .. »

قال « لا أدري ما تكون قدرتي عليه وانما أسعى في ذلك جهدي لعلي أتوفق الى شيء منه .. »

فقال ابن صفوان « فانزل الآن في دار الاضياف او انزل في داري اذا شئت »

فقال حسن « بل انزل في دار الاضياف ريثما ادبر الامر »

قال « ولكن الليل قد اظلم فامكث عندنا الليلة فاذا أصبحنا خرجت الى حيث تريد »

فتذكر حسن بلالاً والجمل وكان قد تركهما بباب المسجد فقال « ولكن خادمي ينتظرني بباب المسجد والجمل معه واخاف اذا استبطأني ان يظن بي سوءا »

قال ابن صفوان « لا بأس عليه لانه اذا استبطأك نام هناك وفي الغد تراه فاننا في بيت الله الحرام ولا يضيع فيه ضائع »

فأطاعه حسن وبات تلك الليلة عنده . وقضى معظم الليل وهو يفكر في امر عبدالله وفي مسيره الى الحجاج . ولما استغرق في النوم رأى في منامه انه لقي الحجاج

وجادلهُ في امر الكعبة وكيف يرميها بالمنجنيق فسمع من الحجاج كلاماً قبيحاً فأفاق في الصباح وهو منقبض النفس بسبب ذلك الحلم

ثم جاءهُ ابن صفوان بالطعام فاكل وعرض عليهِ أن يسير الى بيت الاضياف فقال حسن « أرى أن أبحث عن الخادم والجمل »

فقال لا بأس عليها وعلى كل حال ها اني سائر معك الى دار الاضياف حتى تعرفها فانها بجانب بيت امير المؤمنين ثم اذهب حيث شئت

الفصل التاسع والخمسون

ذات النطاقين

فمشيا حتى اقبلا على دار الاضياف فتحول ابن صفوان الى بيت عبدالله ودخل حسن الى الدار فرأى فيها أُناساً لم يعرف احداً منهم فجعل يتفرّس في الوجوه لعلهُ يرى خادمهُ بينهم فلم يجدهُ فهمَّ بالخروج الى مواقف الدواب للبحث عن جملهِ اذ قد يكون بلال مع الجمل هناك ولم يكد يمر ذلك في ذهنهِ حتى رأى بلالاً مقبلاً على الدار والبغتة بادية في وجههِ وعيناهُ شائعتان كأنهُ يفتش عن ضائع ثم ما لبث ان وقع نظرهُ على حسن حتى اسرع اليهِ فناداهُ حسن « ما وراءك » قال « ما ورائي الاَّ الخير .. ان سيدي أبا سليمان يبحث عنك »

فبغت حسن لذكر أبي سليمان لعلمهِ انهُ فارقهُ في المدينة وقد عهد اليهِ تنسم اخبار سمية فانشغل خاطرهُ لمجيئهِ ونهض وقال « أين هو »

قال « تركتهُ في المسجد وجئت للبحث عنك فهل ادعوهُ اليك .. »

قال « لا بل انا اذهب اليهِ » قال ذلك وتحوَّل يريد الخروج فرأى اهل الدار في هرج ومرج يزاحم بعضهم بعضاً كأنهم يوسعون الطريق لقادم عظيم فوقف في جملة الواقفين وسأل احدهم عن سبب هذه الحركة فقال لهُ « ان ذات النطاقين قادمة الى دار الاضياف »

فعلم انها اسماء بنت ابي بكر والدة عبد الله بن الزبير ولكنهُ كان يحسبها ماتت لكبر سنها لانها ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة . فهي يومئذ قد بلغت السنة المائة من

عمرها . وكانت مشهورة بكبر العقل وسعة الصدر وصحة الدين [1] فاحب ان يراها فجعل ينطال حتى اقبلت فاذا هي قد احدودب ظهرها وجاءت تتوكأ على عكاز وبجانبها رجل يسندها ويرشدها على الطريق لانها عمياء . ثم رأى الناس يدنون منها ويقبلون اطراف ثوبها تبركا بها حتى اذا اقبلت على موقف خدم الدار قالت لهم « خافوا من الله ولا تبخلوا على عباده بالطعام وان كان قليلاً في الاسواق فان الله كفيل بطعام الغد »

فعجب حسن لاهتمام ام الخليفة بأمر الاضياف على عجزها وضعفها ولكنه تذكر ما يقال عن بخل ابنها عبدالله فظنها جاءت تستحث الخدم على اكرام الضيوف لاعتقادها ان ذلك يدفع البلاء عن اهلها . ومهما يكن من حرص الامهات على الدرهم فاذا وقع اولادهن في خطر هان عليهن البذل دفعاً للبلاء عنهم . وكانت اسماء في غاية القلق على ابنها عبدالله لعلمها بما يتهدده من الخطر العظيم فلم تر سبيلاً لاستمطار الرحمة غير المبرات

أما حسن فما صدق ان مر موكب ذات النطاقين حتى خرج ومعه بلال فلما اقبلا على المسجد أسرع حسن حتى اقبل على سليمان ودلائل الاسفار بادية على وجهه وحالما وقع بصره عليه صاح فيه « ما وراءك يا عماه »

قال « ان ما ورائي ذو بال يا بني »

فبغت حسن وقال « وما هو .. ؟ قل ... هل اصاب سمية سوء .. ؟ »

قال « لم يصبها سوء ولكنها جاءت الى مكة .. »

قال حسن « جاءت الى هنا . ؟ اين هي ؟ »

قال « اصبر ريثما نجلس في بعض جوانب المسجد على انفراد واقص عليك الواقع » وكان المسجد خالياً من الناس خوفاً من حجارة المنجنيق فجلسا في ناحية وحسن في قلق شديد وهو يخاف ان يلح في استطلاع الخبر ليلاً يكون فيه ما يكدره ولكنه لم يستطع صبراً عن السؤال فلما جلسا قال « قل يا عماه اين هي سمية الآن فقد نفد صبري .. كيف تقول انها جاءت مكة .. »

قال « صدقني انها جاءت مكة ولكنها في خارجها »

فانتبه حسن وقال « العلها عند الحجاج ؟ .. »

قال « نعم يا بني انها عنده »

---

(١) اسد الغابه ج ٥

فصاح حسن وهو لا يعي ما يقول وما في المسجد من يسمعه غير ابي سليمان « اخذها ... ! وكيف اخذها .. ؟ افصح اخبرني .. »

قال « اخذها امرأة له لان اباها عرفجة زفها اليه في يوم سفرك وخرجت من المدينة مع الحملة التي بعث الحجاج يطلبها من طارق بن عمرو عامل المدينة .. »

فلما سمع حسن ذلك « اطرق كأنه اصيب بجمود وتذكر للحال انه شاهد تلك الحملة بالامس مارة قرب مكة ومعها هودج بحرسه فارسان فارتعدت فرائصه وهزّ رأسه وقال « اعوذ بالله أأرى سمية تساق الى الحجاج وانا واقف انظر الى هودجها ولا انصرها ... كيف انصرها وانا لم اعرفها ؟ ... ولكن لا بدّ من تخليصها من يدي ذلك الظالم .. بل من يدي ايها الخائن الغادر قبحه الله . .. هل سيقت الى الحجاج برضاها .. ؟ »

قال ابو سليمان « ما اظنها سيقت الاّ بالرغم عنها . فقد علمتُ ان اباها احتال في اخراجها من المنزل الى ضواحي المدينة وسلمها للجند المعسكرين هناك »

قال حسن « اذًا هي الآن امامنا في هذه الخيام بجانب جبل ابي قبيس .. لا بدّ لي من الذهاب اليها ... فاما ان انقذها او اموت في سبيل ذلك لكي اعذر فيها »

فقال ابو سليمان « اعلم يا بنيّ اني رهين اشارتك وقد قلت لك اني ناذر عمري في خدمتك فاذا رأيت ان تبعثني في امر يتعلق بها افعل .. »

الفصل الستون

كتاب خالد

فصمت حسن وهو يفكر برهة ثم قال « احتاج اليك يا عمّاه في رسالة بعيدة الشقة فهل لك في انفاذها ؟ »

قال « ولو الى السند »

قال « لا بل هي الى الشام الى خالد بن يزيد هل تسير .. ؟ »

قال « افعل ان شاء الله واي متى .. ؟ وما هي الرسالة ؟ »

قال « هي كتاب اكتبه اليه يتعلق بالمهمة التي جئت من اجلها »

قال « اكتب وانا بين يديك »

فاستخرج حسن من جيبه منديلاً من القباطي (نسيج مصري) وكان قد اعد دواة وقلمًا في جيبه لمثل هذه الغاية وجلس على حجر بجانب عضادة من عضادات المسجد يكتب واختصر في الكتابة على جاري عادتهم في تلك الايام وخلاصة ما كتبهُ قولهُ :

« الى خالد بن يزيد من حسن . . . . اما بعد فقد جئت البيت الحرام بعد ان مررت بالمدينة واضعت فيها كتابك الى ابن الزبير في حديث ساقصهُ عند الاجتماع . ومع ذلك فقد خاطبت ابن الزبير شفاهًا بالامر على حين انشغالهِ بالحصار وضيق ما حولهُ فاجاب بالرضاء ولكنني رأيتهُ يسأل عن كتاب منك في هذا الشان فاذا شئت فاكتب اليهِ وابعث الكتاب مع حامل هذا فانهُ ثقة . واما باقي هذا الامر يهمني كثيرًا والسلام عليك ورحمة الله »

ثم سلم الكتاب الى ابي سليمان وقال لهُ « امض بأسرع ما يمكن واحذر ان يعترضك الخفر حول مكة »

قال « لقد دخلت ولم يتناولوني مأربًا فكيف بخروجي وها اني تارك بلال في خدمتك لعلك تحتاج اليهِ في شيء »

فاثنى عليهِ وودعهُ وعاد الى التفكر في سمية فرأى ان يذهب الى معسكر الحجاج يبحث عنها لعلهُ يستطلع خبرها فيقف على حقيقة الواقع . . . وكلما فكر في الامر تعاظم لديهِ ولما يتصور انها زفت الى الحجاج يهبُّ بدنهُ كأنهُ أُغرق في ماء غالٍ

قضى برهة في مثل هذه الهواجس حتى لم يعد يستطيع صبرًا فعوَّل على الذهاب الى معسكر الحجاج بحجة انهُ مندوب من قبل ابن الزبير للمخابرة بشأن هذه الحرب ولكنهُ لم يرَ بدًّا من استشارة ابن صفوان لئلاَّ يغضب ابن الزبير اذا خابر الحجاج بشأنهِ وهو لا يريد . فنهض لساعتهِ واسرع الى بيت ابن صفوان فلم يجدهُ في البيت فالتمسهُ في دار ابن الزبير فدخل القاعة التي كان الاجتماع فيها بالامس فلم يجد احدًا . وفيما هو عائد مرَّ بمرابط الخيل والجمال وبينها الخدم والجمالة فوقع نظرهُ على رجل يعهد انهُ مع ليلى الاخيلية فتوسم فيهِ الخير فناداهُ فأسرع اليهِ فقال لهُ « وما الذي جاء بك الى هذا المكان »

قال « جئت مع مولاتي »

قال « وهل ليلى هنا الآن وابن هي ؟ »

قال « هي عند امير المؤمنين في بيته وأظنها في حجرة والدته ذات النطاقين »

وقال « من أين اتيتم ؟ »

قال « من معسكر الحجاج »

فاستبشر حسن بذلك الخبر لعلمه ان ليلى لا بد انها اطلعت على كنه الامر وربما رأت سمية وسمعت منها شيئاً فلم يعد يصبر عن لقائها فجعل يتمشى خارج البيت وهو كلما سمع حركة او صوتاً ظنها خارجة حتى ملّ الانتظار فعاد الى الخادم فقال له « هل اقمتم في معسكر الحجاج طويلاً »

« قال اقمنا « يوماً وليلة ثم رأيت مولاتي اسرعت الى مكة وأرسل الحجاج معنا من اوصلنا الى مكة لئلا يعترضنا الخفر المحيط بها »

فأدرك حسن انها جاءت باشارة الحجاج فزادت رغبته في مقابلتها واستطلاع حقيقة الامر . وفيما هو يفكر في ذلك رأى ابن صفوان خارجاً من الدار مهرولاً . ولما تلاقت الابصار أقبل ابن صفوان وهو يقول « احمد الله اني رأيتك هنا فقد كنت ذاهباً لتفتيش عنك مخافة ان تكون قد مضيت في الامر الذي انتدبت نفسك له بالامس »

قال حسن « وماذا تعني ؟ »

قال « اعني مخاوة الحجاج »

قال « وما الذي حدث ؟ »

قال « جاءت ليلى الاخيلية لمثل ذلك الغرض وقد سمعت من أمير المؤمنين جواباً اكد لي انه لا يرجو صلحاً ولا هدنة . لان الحجاج لا يقبل بغير التسليم وهذا أمرٌ مستحيل عندنا والموت اهون منه علينا »

فقال حسن « واين هي ليلى الآن ؟ »

قال « هي في دار النساء وقد نزلت عند مولاتي ذات النطاقين ورملة بنت الزبير عندها ايضاً »

قال « هل من سبيل لي اليها فاني اطلب مقابلتها »

قال « ذلك هين . هل اخبرها بأنك تطلب رؤيتها ؟ »

قال « افعل »

الفصل الحادي والستون

وعند جهينة الخبر اليقين

فدخل ابن صفوان ثم عاد وهو يشير اليه ان يتبعه فدخل غرفة رأى فيها ليلى وحدها في انتظاره فلما اقبل عليها صاحت فيه « هل انت حسن حقيقة »

قال « ولماذا هذا الاستفهام — وانت تعرفينني »

قالت « لاني سمعت انك ضائع وأكدوا لي انك قتلت »

قال « كدت اقتل ولكنني حيٌّ الآن فاخبريني قبل كل شيء هل كنت في معسكر الحجاج »

قالت « نعم »

قال « وهل رأيت سمية هناك »

قالت « نعم رأيتها »

فخفق قلبه عند سماع ذلك الجواب الصريح ولم يصدقه فقال « هل رأيتها حقيقة ؟ »

قالت « نعم رأيتها ورأتني وكلمتها وكلمتني »

قال « بالله قولي لي كيف حالها وما الذي جرى لها وكيف تمّ بامرها »

قال « العلك غائب عن الدنيا ؟ ألم تعلم انها حملت الى الحجاج ليكتب كتابة عليها ؟ »

فلما سمع ذكر الكتاب قفّ شعره وصعد الدم الى وجهه وقال وهو يتجلد « نعم علمت فهل كتب كتابة .. ؟ »

قالت « نعم كتبوه منذ يومين وهي الآن في داره مع نسائه »

قال « في داره مع نسائه .. مع نسائه .. ؟ »

قالت « نعم مع نسائه »

قال « وهل ذكرتماني في حديثكما »

قالت « ذكرناك وبكينا عليك وهي التي اخبرتني بموتك واكدت لي ذلك بدلائل حسية »

قال « وهل هي آسفة على موتي »

قالت « اما قلبها فهو معك فلا تفتر عن ذكرك لحظة ومع يأسها من لقائك لا يهنأ لها عيش بدونك »

فأبرقت اسرة حسن عند سماعه ذلك وقال « اذا كان الحجاج كتب كتابة عليها كما تقولين وهي يئسة من لقائي فكيف أرجو اللقاء ؟ »

قالت « الحب كله رجاء ياحسن » قالت ذلك وتنهدت « ان الحب يضع الرجاء في موضع اليأس »

قال « هي باقية على حبي اذاً ؟ »

قالت « نعم وهي مع ذلك لا ترجو لقائك فكيف اذا علمت انك حيٌّ ... فهل أنت تحبها مثل حبها لك ؟ »

قال « كيف لا » وهاجت اشجانه ولم يعد يستطيع صبراً عن الذهاب اليها واحس انه مقصر في سعيه نحوها الاّ اذا القى نفسه للقتل لاجلها . ولكنه لما تصور انها زفت الى الحجاج عظم الامر عليه وكادت الغيرة تحرقه فاطرق برهة ثم قال « وهل زفت الى الحجاج حقيقة ؟ »

قالت « قلت لك انها زفت اليه وهي في داره مع سائر نسائه »

قال « اعوذ بالله من ذلك .. لا اصدق انها في بيته مثل احدى نسائه وكيف هو .. هل يحبها . ؟ »

قالت « يحبها حباً شديداً ولم يكن يحلم انه يحصل عليها لانها لا تريده ولكن التقادير ساعدته فحملوها اليه قسراً »

فاقشعرّ بدنه وجمد الدم في عروقه وقال « اني اطير اليها واختطفها من وسط بيته ومن بين مخالبه .. »

فقطعت ليلى كلامه وقالت « تبصر يا حسن ان دون الوصول اليها عقبات لا يستطاع تجاوزها الاّ بالحكمة »

قال « واية حكمة ؟ كيف يسمها الحجاج وانا حيٌّ .. ليس في الحب حكمة . الحب شيء والحكمة شيء آخر . ان الرجل اذا احب اصبح تحت قوانين الحب وشرائطه وما في الحب حكمة ولا سياسة ولا مداهنة ولا رياء ... »

فلما رأت ليلى شدة هياجه خافت عليه الموت لعلمها بما يعنور الوصول الى سمية من الاخطار وخصوصاً لما تعلمه من ظلم الحجاج وعتوه فاذا وقع حسن بين يديه لا عفاب

له غير الموت فقالت له « اسلم معك ان الحب لا سياسة فيه ولا حكمة ولكن المحب حريص على حياته من اجل حبيبه فبدلاً من ان تستبقي حياتك لتفرح سمية بك تعرضها للخطر عمدًا ؟ .. تبصر في الامر وانا في خدمتك حتى تبلغ ما تريدهُ فاني اعرف قيمة الحب و يسوئني ان ارى حبيبين لا يجتمعان وانقم على من يسعى في التفريق بينهما . . » قالت ذلك وتنهدت وابرق الدمع في عينيها

فشعر حسن انها تنطق عن احساس حقيقي لانها اصيبت بحب توبة ومنعوها منهُ فقال « بورك فيك يا ليلى والله انك خففت عني نصف المصاب بهذه المشاركة فاشيري عليَّ »

الفصل الثاني والستون

سمية في بيت الحجاج

قالت « لا أُخفي عنك اني جئت معسكر الحجاج وافدة على عادتي في الوفود على الامراء والملوك فرحب الحجاج بي وانزلني في دار احدى نسائه ومن اعزهن اليه واسمها هند بنت النعمان وهي جميلة ذات حسب ونسب ولكنها لا تحبهُ ولا تحترمهُ فلقيت سمية عندها فلما عرفتها دار الحديث بذكرك فلما سمعتُ بضياعك شق ذلك عليَّ وقلت لعليُّ اذا جئت مكة استطلع خبرًا عنك فعرضت على الحجاج ان آتي مكة واحرض ابن الزبير على التسليم وانا اعلم ان تسليمهُ امر مستحيل ولكنني فعلت ذلك حتى آتي تحت حمايته . ولما جئت سألت عنك فاخبروني انك جئت بالامس وخطبت رملة لخالد فأجابك بالرضى ولكنهُ استمهلك ريثما تنقضي هذه الحرب فسررت سرورًا مزدوجًا اولاً لانك حيٌّ وثانيًا لانك نجحت في المهمة التي جئت من اجلها . فالرأي الآن ان اعود الى معسكر الحجاج واجعلك راوية (لان لكل شاعر عند العرب راويًا برافقهُ فيحفظ اشعاره ويرويها عنهُ) والحجاج لا يعرفك ولا يخطر له انك مناظر على سمية فمتى وصلنا المعسكر واقمنا فيه آمنين نحتال في امر سمية على ما يتوفق لنا »

فاستحسن حسن رأيها وقال « نذهب اذًا معًا هلم بنا الآن فاني لا اصبر على

هذه الحال »

قالت « اسبقني الى المسجد وانا أودع ذات النطاقين والحق بك »

قال « لقد انساني حديث سلمى استطلاع مادار بينك وبين ابن الزبير من أمر الصلح او التسليم .. »

قالت « كنت على يقين قبل فتح الحديث معهُ بهذا الشأن انهُ لايقبل ولكنني رأيت امهُ اسماء ذات الطاقين اكثر تعلقاً منهُ بذلك .. اني أعجب بهذه العجوز وصبرها على المكاره فقد رأيتها مع يأسها من نجاح ابنها تشجعهُ وتحرضهُ على الثبات في دعوتهِ .... ولكنني لا أرى فائدة من ثباتهِ وقد رأيت معسكر الحجاج ورأيت معسكر هذا والفرق بينهما واضح من حيث العدد والعدد وكل شيء »

فابتدرها حسن قائلاً « وقد رأيت بام عيني اصحاب ابن الزبير واخوتهُ واهلهُ يتخلون عنهُ وقد نفدت قواتهُ واقواتهُ فالامر خارج من يديهِ لا محالة .. »

قالت « القوة هي الغالبة يا حسن والخلافة صائرة الى بني أمية .. لان عندهم الرجال والاموال وقد ساعدتهم الاقدار في كل سبيل ... ونحن لايهمنا من أمر هؤلاء ... »

فقطع حسن كلامها وقال « لايهمني الآن الا أمر سلمى فها اني سابقك الى المسجد انتهياً للسفر » قال ذلك وتركها واسرع الى المسجد فوجد بلالاً جالساً بجوار الصفا بباب حانوت رجل فارسي كان يبيع فيهِ الاقمشة فتبعهُ بلال حتى دخلا المسجد فقص حسن عليهِ عزمهُ على معسكر الحجاج واسر اليهِ الغرض من ذلك

فقال بلال « اكون أنا في خدمتك يامولاي »

قال « بورك فيك ... ولكنني ذاهب في مهمة لاتخلو من الخطر فاذا انكشف امري فيها لم ينفعني الرجل والرجلان واذا توفقت فاني وحدي قادر على استقبال ذلك التوفيق . وانما أرجو منك ان تبقى هنا بضعة أيام فاذا استبطأتني اطلبني في معسكر هذا الطاغية ... »

الفصل الثالث والستون

معسكر الحجاج

ثم بدل حسن ثيابه بحيث لا ينتبه له عارفوه الاّ بالتأمل وحمل جراباً فيه ادراج من الرق عليها بعض القصائد ومكث ينتظر ليلى حتى عادت وقد تلثمت وركبت الجمل كبعض الرجال وفي ركابها خادم . فركب هو جمله وسارا والخادم يمشي وراءهما حتى مروا ببيت ابن صفوان وكان ابن صفوان واقفاً بالباب فرأى ليلى فعرفها وتفرس في رفيقها فعرفه فحياه حسن فقال ابن صفوان « والى أين » قال « عولت على السعي لعلي اجد سبيلاً للتوفيق »

قال « لا أظنك ملاقياً نجاحا »

وما لبث حسن وليلى ان ابتعدا عن بيت ابن صفوان وخرجا من مكة حتى لاقاهما رجال الحجاج حولها فعرفوا ليلى فلم يعترضوها . وما زالا سائرين حتى أقبلا على معسكر الحجاج

فنظر حسن الى ذلك المعسكر والاعلام تخفق فوقه والخيام ممتدة على مسافة بعيدة فعظم امر الحجاج في عينيه وقال « يا ليلى ان الامر صائر الى هذا العاتي لا محالة .. واني ليتقطّر قلبي كلما تصوّرت مصير عبدالله بن الزبير ... اتظنينه مغروراً بنفسه ؟ »

قالت « كلاّ ولكنه يعتقد نفسه على هدى وهو صائر الى الموت . »

قال « ما الذي اراه على هذا الجبل »

قالت « الم ترَ وقوع الاحجار على الكعبة ؟ فعلى هذا الجبل (جبل ابي قبيس) نصب الحجاج منجنيقاته وهو يرمي الحجارة منها على الكعبة . ومع المنجنيقات فصيلة من الجند .. »

قال « وابن خيام النساء من هذا المعسكر حيث يقيم نساء الحجاج ومعهم سمية » ولما ذكر اسمها اقشعرّ بدنه لانها من جملة نساء الحجاج وناهيك بما يمرّ في ذهنه من عوامل الغيرة وخصوصاً لما يتصوّر الحجاج الى جانبها في خلوة ليس عليها فيها رقيب

فأدركت ليلى عظم ما في نفس حسن فقالت « نحن سائرون الآن الى خيمة الحجاج وهي الكبيرة القائمة في وسط هذه الخيام فادخل انا فأجيبه على مهمته بما يحضرني من

الكلام ثم اخرج واسير بك الى مكان اعرفهُ واذهب الى منزل هند بنت النعمان وارى سمية هناك فأقص عليها خبرك ونضرب موعدًا نخرجان بهِ من هذا المعسكر بالتي هي احسن »

فسرَّ حسن بذلك الامل ولو كان بعيدًا . وكانا قد وصلا المعسكر والخفر لا يعترضونهما لانهم علموا بذهاب ليلى باذن الحجاج وما زالا حتى اقبلا على خيمة كبيرة قائمة على بضعة عشر عمودًا امامها اناس بالحراب وآخرون بالسيوف اشبه بالخفر عند الروم — وكان بنو امية قد اقتبسوا ذلك منهم ثم توخاهُ عمالهم ارهابًا للناس لان دولتهم انما كانت دولة ارهاب واستطاع . وقبل وصولهما الى الباب اناخا الجمال ونزلا فمشت ليلى والناس يوسعون لها وحسن يسير في اثرها حتى وقفت بباب الخيمة فدخل احد الوقوف يستأذن لها ثم عاد وهو يدعوها فدخلت وظل حسن في جملة الوقوف وهو في شوق شديد لرؤية الحجاج وقد طالما سمع بهِ وبعظيم اعمالهِ فوقف بحيث يستطيع رؤيتهُ من باب الخيمة . فاذا هو جالس في صدرها على سجادة ثمينة وقد تربع ووضع السيف على فخذيهِ تحت مطرف من خز ثمين القاهُ على كتفيهِ وادارهُ على جنبهِ . ورآهُ لما دخلت ليلى رحب بها بصوت ارق مما كان يتوقع ان يكون لان الحجاج كان رقيق الصوت الاَّ اذا استفاض في الخطابة فيرتفع كثيرًا[1] وتفرس حسن فيهِ وهو يخاطب ليلى فاذا هو اخنس العينين مقطب الوجه لا يرى في وجههِ قبولاً للابتسام او الضحك . وفي الواقع قلما كان يرى ضاحكًا

الفصل الرابع والستون

الانتظار صعب

وفيما هو ينظر اليهِ لاحت منهُ التفاتة الى من في مجلسهِ فرأى بينهم رجلاً لم يقع بصرهُ عليهِ حتى اضطربت كل جوارحهِ واستعاذ بالله من رؤيتهِ كيف لا وهو عرفجة فقد رآهُ جالسًا بجانب الحجاج كجلوسهِ في اهلهِ يقضي ويمضي ولهُ الحول والطول . فلم يتمالك حسن عن الارتعاش لشدة التأثر وخصوصًا لما علم ان عرفجة لم ينل ذلك المنصب الاَّ بتضحية ابنتهِ سمية فهاجت عواطفهُ حتى حدثتهُ نفسهُ ان ينتك بهِ وينتقم منهُ . ولكنهُ ما

(١) العقد الفريد

لبث ان عاد الى رشده وعلم ما يحيط به من الاخطار اذا انكشف امره فتجاهل وحول وجهه الى خارج المعسكر لئلا يلحظ احدٌ منه شيئًا . وخاف ان يراه عرفجة فيعرفه ويدبر له مكيدة اخرى فمشى وهو يتظاهر انه يسير بغير انتباه حتى بعد عن خيمة الحجاج

وبعد برهة سمع ليلى تناديه فسار في اثرها والجراب معلق في كتفه ولا يشك الذين برونه سائرًا بجانبها انه راويتها . وبعد ان قطعت مسافة في المعسكر قالت « انظر الى هذه الخيمة بجانب هذه الراية انها خيمة القادمين من الشعراء وغيرهم وستقيم فيها ريثما آتيك او ابعث اليك »

قال « وسمية .. ؟ الا استطيع رؤيتها الآن .. ؟ خذيني معك اجعليني خادمًا لك او تابعًا او اي شيء واذني لي ان أرى سمية .. »

فاشفقت ليلى لتعرفه وقالت له « سر في اثري حتى ندخل مضرب خيام النساء واجعل انك تحمل لي هذا الجراب حتى نضعه في الخيمة التي نحن سائرون اليها ومتى وصلنا ادبر لك حيلة في مشاهدتها ومخاطبتها »

فرقص قلبه فرحًا ونسي كل خطر في سبيل شوقه لرؤية حبيبته . وبعد هنيهة وصلا الى خباء له عدة ابواب وحوله خيام اخرى صغيرة فعلم انه خباء اهل الحجاج . فقالت له ليلى امكث تحت هذه النخلة ومتى دعوتك ادخل . وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب فجلس حسن هناك وقلبه يدق وعيناه شاخصتان

اما ليلى فانها دخلت الخباء وهو اقسام لكل امرأة قسم على عادة العرب في بناء الاخبية فدخلت القسم الذي فارقت هندًا فيه فرأت هندًا متكئة وسمية متكئة الى جانبها لا تتكلمان . فلما رأتا ليلى رحبتا بها واستقبلتاها فآنست ليلى في وجه هند انقباضًا وكأن سمية تعزيها وتخفف عنها فقالت « ما بالي ارى هندًا غضبى . »

قالت سمية « من يقترب من هذا الظالم العاتي ولا يكون منقبضًا انه لا يترك وسيلة لا يثقل بها على نسائه واهل بيته .. »

وكانت ليلى تعلم ببغض هند للحجاج فلم تستغرب ذلك ولكنها اغتنمت الفرصة واجابت سمية قائلة اراك تشكين من الحجاج وقساوته وانت لم تعرفيه الاَّ بالامس وهو مغرم بك ولم يصدق انه حصل عليك .... »

فقطعت كلامها وقالت « لم يحصل على شيء ولن يحصل عليه ان شاء الله »

فقالت « عجبًا لما تقولين وانت في داره وبين يديه ليلاً ونهارًا »

فأشارت بعينيها انها تكتم امرًا لا تريد ان تبوح به امام هند . فاستغربت ليلى قولها وتظاهرت انها تريد مخاطبتها في شأن فدخلت بها الى خيمتها الخاصة فاستقبلتهما امة الله خادمتها الحبشية وكانت تهيئ طعامًا لسمية فلما دخلتا خرجت الى اصلاح بعض الشؤون . فلما خلتا قالت ليلى « رأيتك تتوعدين الحجاج وتتبرئين منهُ وهو زوجك الشرعي فضلاً عما لهُ من السلطان النافذ عليك فكيف تقولين انهُ لم يحصل على شيء »

وكانت سمية قد جلست على برش من سعف النخل بأرض الخيمة وبين يديها وسادة تتشاغل باصلاح ثنياتها وهي تسمع كلام ليلى . فلما فرغت ليلى من سؤالها بدت البغتة على وجه سمية ثم امتقع لون وجهها امتقاعًا شديدًا وهي لا تزال تنظر الى الارض وليلى تتدبر ذلك وتستغربهُ ولا تعلم سبب هذا الانفعال فقالت « ما بالي ارى سمية ساكتة لا تجيبني على سؤالي ؟ .. كيف تقولين انهُ لم يحصل عليك وانت بين يديهِ »

الفصل الخامس والستون

السمُّ الزعاف

فرفعت سمية رأسها وقد بدأ التأثر في عينيها وشفتيها وقالت « صدقي يا ليلى انهُ لم يحصل عليَّ ولو كتب الكتاب وعقد العقد . ولم يكن ذلك تفضلاً منهُ ولكنهُ مجبور على ذلك بحلف سبق لسانهُ اليهِ . واما كونهُ لن يحصل عليَّ فقد اعددت وسيلة انجو بها منهُ الى حبيبي ... » قالت ذلك وشرقت بريقها فاختنق صوتها فارسلت دموعها وهي صامتة لا تشهق ولا تتكلم فازدادت ليلى مشاركة لها في ذلك الامر ولكنها استغربت قولها انها اعدت وسيلة للنجاة الى حبيبها فقالت « واي وسيلة اعددتِ .. ؟ واين هو حسن الآن .. »

فلما سمعت سمية اسم حسن لم تعد تتمالك عن البكاء فكان جوابها الشهيق والنحيب وليلى تهم ان تطمئنها عن حسن وتخاف ان يصيبها سوء من البغتة .. فعولت على استطلاع سر الامر فقالت « اذا كنت تحبينني لا تخفي عني سر هذا الامر فقد رأيتِ مني كل مساعدة ومشاركة وانا خادمة لك الى آخر نسمة من حياتي .. قولي .. لا تخفي عني شيئًا .. »

فقالت وهي تمسح دموعها « اما سبب كونه لم يحصل عليّ فلأنه اراد ان يطوف بالكعبة في آخر الحجة الماضية فمنعه ابن الزبير من ذلك فاقسم انه لا ينزع السلاح عنه ولا يقرب النساء ولا الطيب حتى يقتله »[1]

فتذكرت ليلى انها كانت لا ترى الحجاج الاّ بسلاحهم حيثما كان ليلاً ونهاراً وسرّت من اجل حسن لعلمها ان ذلك الخبر يشرح صدره ثم ارادت ان تستطلع كيفية نجاتها فقالت وكيف تقولين انك دبرت وسيلة للنجاة »

فمدت سمية يدها الى جيبها فاستخرجت منه صرة صغيرة حلت عقدتها فاذا في داخلها قطعة رق ملفوفة لفّاً بشكل درج فتبـادر الى ذهن ليلى انها كتاب لانهم تعودوا ان يلفوا الكتب على هذه الصورة . ثم رأت سمية تناولت ذلك الرق بين اصابعها وقالت « ان الفرج يأتيني من هذا الدواء .. »

فقالت ليلى « وما ذلك ؟ .. »

فقالت « هو سمٌ احتفظت به حتى اذا تحققت وقوع الخطر تناولته فيذهب بي الى مكان ارجو ان الاقي حسناً فيه »

فرأت ليلى ان تبيح لها بالسر فقالت « وما قولك اذا لا قيت حبيبك وانت حية »

فتفرست سمية في وجه ليلى وهي تحسبها تمازحها وقالت « لا تحببي الحياة اليّ فان لقائي اياهُ في العالم الآخر خيرٌ وابقى . اما هنا فلا امل لي بذلك »

قالت « لا تقطعي الامل يا سمية .. »

فأجابت وهي تحسبها تخلف عنها « لا ابالي قطعت الامل ام لم اقطعه فان مدة عذابي في هذا العالم اصبحت قصيرة ولا بدّ من انقضاء هذه الحرب فاذا ظلّ هذا الطاغية حياً كان دوائي في هذه الصرة واذا مات ... ولكن ما الفائدة من بقائي حية وحدي .. ؟ »

فقطعت ليلى كلامها وقالت والجدّ في غنة صوتها « اذا بقيت حية فانك لا تكونين وحدك لان حسناً حيٌّ »

فلما سمعت سمية ذلك بغتت وعادت الى التفرّس في وجه ليلى فرأت الجدّ بادياً في عينيها فوثبت من مجلسها وقالت « بالله اعيدي ذكرهُ وعليني ببقائه ... قولي انه حيٌّ فان ذكرهُ يحييني ... » قالت ذلك واختنق صوتها فبكت ثم قالت « ولكن ما الفائدة من التعلل بالاحلام .. »

---

١ ابن الاثير ج ٤

فقالت « لسنا في حلم وانما نحن في يقظة وقد آن لك ان تري حسناً فانهُ في انتظارك على مقربة من هذا الخباء وسأدعوهُ اليك لتتلاقيا » ثم خفتت صوتها وقالت « وتواعدا على وقت تفرّان بهِ من هذا المعسكر ولا خوف من مجيء الحجاج اليكما الليلة بسبب القسم الذي اقسمهُ فهو طبعاً لا يأتي خيم نسائهِ »

الفصل السادس والستون

ضاع ثانية

وكانت سمية تسمع قول ليلى ولا تصدقهُ ولكنها لم ترَ بدًّا من تصديقهِ وخصوصاً لما سمعت ان حسناً بقرب خبائها فهرولت الى شق في الخباء ونظرت الى الخارج وكان الليل قد سدل نقابهُ فلم ترَ احداً فنادت امة الله فأسرعت اليها وقد انارت السراج ودخلت حتى وضعتهُ على المسرجة فقالت لها سمية « هل رأيت احداً جالساً حول هذا الخباء ؟ »

قالت « كلاَّ يا مولاتي ولكنني رأيت رجلين مرًّا معاً وخرجا من المعسكر »

فقالت ليلى « وهل رايت على احدهما جراباً ؟ »

قالت « اظنني رايت احدهما يحمل جراباً »

فأسرعت ليلى وسمية في اثرها واطلتا من باب الخباء فلم تريا احداً فتحوّلت ليلى نحو المكان الذي اجلسته فيهِ فلم ترَ لهُ اثرًا فأسقط في يدها واعملت الفكرة في سبب ذهابهِ ومن هو الرجل الذي سار بهِ فلم تهتدِ الى حل

اما سمية فحارها شك في قول ليلى ولكنها تحققت صدقها لما بدا في عينيها من دلائل الاهتمام وما غشي جبينها من امارات الانقباض فقالت لها « ماذا عسى ان يكون سبب هذا الذهاب ... والى اين ؟ »

قالت ليلى « لا يخلوان يكون ذهابهُ لامر ذي بال فقد جاء معي وهو لا يصدق انهُ يحظى برؤيتك ولا اظنهُ تحوّل من هذا المكان الاَّ بالرغم عنهُ .... ولعلهُ يعود الليلة فلنترقب رجوعهُ ... ولكن من هو ذلك الرفيق ؟ .. فان حسناً غريب في هذا المعسكر وقد جاء اليهِ متنكرًا فكيف عرفوه ... ؟ »

ثم دخلنا الخباء ومكثت سمية وهي مطرقة واستغرقت في الهواجس وقد اصاخت بسمعها فاذا هبّ النسيم ظنت حسناً قادماً فيضطرب قلبها . وخرجت لبلى الى خباء هند وهي تكتم مافي نفسها لعلها تستطلع شيئاً جديداً

اما سمية فنادت امة الله وكانت هي انيستها في وحشتها ومعزيتها في احزانها وهي وحدها تعرف مكنونات قلبها . فلما نادتها لم تسمع جوابها ولا جاءتها . فأعادت الصوت فلم يجبها احد فاستعاذت بالله من تلك الليلة وخرجت الى حيث تتوقع ان تراها فرأت من خلال الظلام شبحين امة الله احدهما والثاني بلباس الرجال فخفق قلبها لانها توسمت ان يكون الشبح الآخر حبيبها حسناً فلم تعد تصبر عن المناداة فقالت « امة الله ! .. »

فقالت « لبيك يا مولاتي اني قادمة على عجل .. » قالت ذلك وظلت واقفة مع الرجل فانشغل بال سمية ولم تعد تستطيع صبراً وهمت بالمسير نحوهما فرأتهما قادمين نحوها فتنهدت حتى وقفت بباب الخباء ووسعت حتى يقع نور السراج على القادمين لتتعارف الوجوه . فتقدمت اولاً امة الله وحدها وظل الرجل واقفاً على بضع خطوات من الخباء ولكنها تبينت قيافته فاذا هو بلباس حرس الحجاج فتشاءمت منه ودخلت الخباء مسرعة وامة الله في اثرها . وكانت امة الله قد ادركت اضطراب سيدتها من منظر ذلك الرجل فابتدرتها قائلة « لا تخافي يا مولاتي ان الرجل رسول خير »

قالت « ممن »

قالت وقد خفتت صوتها « من حسن »

فدت البغتة في وجهها وقالت « ليدخل ... .. »

الفصل السابع والستون

يا شوقي والحبيب قريب

فخرجت امة الله وعادت والرجل معها وعليه لباس الحرس — ولم يكن لباس الجند قد تميز يومئذٍ عن ألبسة سائر الناس تميزاً تاماً واما حرس الامراء فقد كان له لباس خاص لان معاوية اقتبس الحرس من الروم وميزهم بعلامات خاصة . فوقفت سمية لاستقبال الرجل وركبتاها تصطكان لعظم اضطرابها من منظره

اما هو فلما دخل حيـاها باحترام وقال لها بصوت منخفض « لا يزعجك امري يا مولاتي ولا يخيفنك هذا اللباس فاني خادم لك ولمولاي حسن .. »

فلما سمعت صوته تفرست في وجهه فانتبهت حالاً انهُ عبد الله خادم حسن فصاحت فيهِ « عبد الله .. ؟ »

قال « نعم يا مولاتي اني خادمك عبد الله »

قالت « وما الذي جاء بك الى هذا المعسكر وابن حسن ... هل هو حيٌّ كما يقولون ؟ .. » قالت ذلك وشرقت بدموعها

فقال « نعم يا سيدتي انهُ في قيد الحياة ولم اكن اعرف ذلك الاَّ في هـذه الساعة وكنت قد يئست من حياتهِ مثلك ولكن الله انعم عليَّ بهِ .. فالحمد لله »

قالت « وابن هو .... »

قال « هو مختبيء على مقربة من هذا المكان حيث لا يراه احد لانهُ جاء متنكرًا ولم ينتبه لهُ الاَّ أبوك فدس الى الامير ان يأمر بالقبض عليهِ وقد اطلعت أنا على هـذا العزم فاسرعت اليهِ وانبأته بالمكيدة وخرجت بهِ الى مختبأ بقرب هذا المعسكر وجئت لانبئك بذلك حتى نتساعد في استنباط حيلة تخرجان بها الى حيث تشاءان وانا في خدمتكما »

فقالت « سامح الله والدي ... لا لا .. لا سامحهُ الله على ما يسومنا اياه من البلاء ... لقد اصبحت اكره اسم عرفجة واكره ان أراه من اجل هذه المعاملة ... آه يا ربي ما العمل ما الحيلة ... عبد الله .. قل لي هل حسن في مأمن ؟ »

قال « نعم يا مولاتي انهُ في مكان امين لا بأس عليهِ ... »

فقالت « وكيف ادخلت نفسك في زمرة الحرس وكيف انطلى امرك على الحجاج وعلى والدي .. »

قال « ان حكايتي طويلة وخلاصتها اني لما يئست من لقاء مولاي حسن في المدينة وكنت قد عثرت على خرجه وفيهِ كتاب من خالد بن يزيد الى عبـد الله بن الزبير والكتاب سريٌّ ولا بد من ايصالهِ الى صاحبهِ — لم أر خيرًا من القدوم الى مكة فاذا كان مولاي حسن قد سبقني اليها لقيتهُ وسلمت اليهِ الكتاب ليعطيهُ الى ابن الزبير واذا لم اجده اوصلت الكتاب انا. فركبت من المدينة حتى اذا دنوت من مكة علمت ان رجال الحجاج محيطون بها من كل جانب ولا يستطيع احد الدخول اليها وخصوصًا انا ومعي ذلك

الكتاب فلاح لي ان احتال في دخول معسكر الحجاج لعلي اتنسم خبرًا عن سيدي . ودخولي فيهم هين لاني من ثقيف والحجاج من ثقيف وهو كثير الثقة في قبيلته و يعرفني من قبل ولكنني اعلم ان الحجاج رجل شديد داهية فربما اشتبه في امري فيأمر بقتلي فعوّلت على ان اتقرب بذلك الكتاب اليه وانا لا أرى نفعًا منه بعد ضياع مولاي وربما تمكنت باقترابي من الحجاج من استطلاع خبر او لعلي اتوفق الى معرفة امر مولاي فتظاهرت باني قادم على الحجاج بامر ذي بال يهمه وجئت معسكره وطلبت ان اخلو به سرًّا فأذن لي فلما عرفته بنفسي عرفني . ثم اني استخرجت له ذلك الكتاب وأنا عالم ان ليس فيه ذكر لمولاي حسن وانما هو خطاب من خالد بن يزيد الى عبد الله بن الزبير في امر خطبة او نحوها فتظاهرت اني عثرت على هذا الكتاب مع رجل قادم من الشام ولما رأيت عليه اسم عبد الله بن الزبير اشتبهت بامره فقتلت حاملهُ وجئت بالكتاب اليه

فلما سمع الحجاج ذلك مني وهو يعلم أني من قبيلته احسن الظن بي وقربني منه وجعلني من حرسه كما ترين . وفي مساء ذلك اليوم قدم والدك عرفجة على الحجاج فاطلعهُ على ذلك وانا واقف ببابه . فلما اطلع ابوك على الكتاب ناداني فدخلت الفسطاط فقال « من اين اتيت بهذا الكتاب » فقصصت عليه الخبر كما ذكرته فقال « ان صاحب هذا الكتاب عدوٌّ لنا عرفناه في المدينة وحاولنا قتلهُ والظاهر اننا لم نفلح لان الذي ذهب لاغتياله لم يعد الينا فهل قتلتهُ انت » فلما سمعت قولهُ اطمأنيت على حياة مولاي وعولت على اتمام الحيلة فقلت « لا اعلم اذا كان هو الذي قتلتهُ ولكنني قتلت شابًا بلباس كذا » وذكرت لهُ ما يقرب من صفات مولاي فقال « لعلك اصبت مرادي وعلى اي حال فقد فعلت حسنًا » وادناني ابوك منه ومكثت في جملة الحرس وانا اتفقد الاحوال واستطلع الاخبار حتى جاءنا مولاي في هذا النهار مع ليلى الاخيلية وقد تنكر فعرفتهُ ولم ينتبه لي ولا أنا أردت ان يعرفني لئلا ينكشف أمرنا . فتجاهلت حتى دخلت ليلى على الحجاج وخرجت . وكان والدك مع الحجاج في الفسطاط فلما خرجت ليلى رأيت في وجه والدك الغدر وسمعتهُ يخاطب الحجاج فاصغيت فاذا هو يشير باصبعه الى ليلى و يقول ان راويتها جاسوس متنكر واشار بالقبض عليه . فعلمت ان والدك عرفهُ وتحققت انهُ اذا ظفر به قتلهُ لا محالة . فاحتلت في الخروج اليه حتى جئتهُ وهو جالس بقرب هذا الخباء وعرفتهُ بنفسي فاخبرني انك هنا وانهُ جاء من اجلك فخرجت به الى خرابة وراء هذا المعسكر لا يهتدي اليها احدٌ ووعدته ان آتي اليك واطلعك على امره لندبر حيلة في الفرار من هذا السجن »

الفصل الثامن والستون

ليلى وعرفجة

وكان عبد الله يتكلم وسمية تتطاول بعنقها وتصيخ بسمعها وعيناها شاخصتان فيه. فلما جاء على آخر الحديث واطأن بالها على حبيبها انبسطت نفسها وقالت « بورك فيك ياعبدالله انك نعم الرجل انت واذا اتيح لنا النجاة على يدك جعلنا لك حظاً من سعادتنا والاّ فلا حول ولا ... »

فقال « ان النجاة قريبة ان شاء الله ولكن لا بد من الصبر فاذني لي بالانصراف الآن لاعود الى موقفي لئلا يشتبهوا في امري فاذا حدث شيء او احتجت اليّ في شيء فاني رهين اشارتك واذا حدث عندي شيء جئتك به » قال ذلك وهم بالخروج فاستوقفته وقالت له « الى اين ... وكيف نترك حسناً وحده في تلك الخربة ومن ابن ياكل وابن ينام ... »

فقال « هل تظنين اني تركته ولم اعد اليه ... ؟ كوني براحة تامة فاني افتقده وادبر له كل ما يحتاج اليه »

فاثنت على شهامته وحالما خرج عادت الى هواجسها وقد سرها وثوقها من بقاء حسن حياً ورغبته فيها وقربه منها وتوسمت في مساعي عبد الله خيرًا . ولكنها تذكرت ليلى فنادت امة الله وكانت قد تبعت عبد الله لتكرر الوصاية بشأن حسن فلما سمعت سيدتها تناديها عادت مسرعة فقالت لها سمية « ابن هي ليلى ؟ .. اتيني بها »

قالت « هي في خباء هند » وخرجت ثم عادت وهي تقول « لم اجد في الخباء احدًا . »

فاستغربت ذلك وقالت « الم تسأل الخدم عنها ؟ »

قالت « سألت الخادمة فقالت لي انها خرجت عند الغروب للتمشي بين الاخبية ثم جاءت ليلى للسؤال عنها فلما لم تجدها اقتفت اثرها ولم تعودا من ذلك الحين »

فقالت « وابن تذهبان في هذا الليل ... ؟ اخاف ان يكون الحجاج بعث للقبض على ليلى لانها واطأت حسناً على الفكر » وخافت سمية اذا بالغت في البحث عنها ان تزداد

الشبهة عليها فدخلت خباءها وجلست تفكر بما مرّ بها تلك الليلة من الغرائب وكلما تصوّرت انها نجت بحبيبها وخرجت من معسكر الحجاج يخلج قلبها فرحاً

اما عرفجة فانهُ عرف حسناً حالما وقع بصرهُ عليهِ وتجاهل حتى خرجت ليلى فدس الى الحجاج انهُ عدوٌ كما تقدم . فعهد الحجاج اليهِ ان يفعل بهِ ما يشاء فلما ارفض المجلس خرج عرفجة الى صاحب الحرس واوصاهُ ان يبعث بضعة عشر من رجالهِ بالسلاح يتتفون اثر رفيق الشاعرة و يقبضوا عليهِ حيثما وجدوهُ . وكان عبدالله قد سبق اليهِ بأسرع من لمح البصر وخرج به الى ذلك المخبأ

اما الحرس فلما لم يعثروا على حسن عادوا الى عرفجة فقال « الىَّ بليلى فانها تكون في اخبية النساء » فعادوا اليها فرأوها تتمشى مع هند بجوار الاخبية فأشاروا اليها ان تأتي الى فسطاط الحجاج . فلما سمعت ذلك خافت من انكشاف امرها ولكنها لم تر بدّاً من الطاعة فسارت مع الحرس حتى انوا الفسطاط والظلام قد عقد قبابهُ فلم يدخلوا الفسطاط فظلت هي في اثرهم حتى دخلوا فسطاطاً آخر رأت في صدره عرفجة جالساً فلما رأتهُ استعاذت بالله من شر ذلك المساء ولكنها كانت جريئة لا تبالي بمن تلاقي فدخلت وحيت فدعاها الى الجلوس وقال لها « ابن هو راويتك يا ليلى ؟ »

فلما سمعت سؤالهُ ادركت ان امر حسن انكشف فلم تشأ ان تشرك نفسها في ذنبهِ فيقعان معاً ولا تعود قادرة على مساعدتهِ فعمدت الى الحيلة فقالت « واي راوية تعني ؟ »

قال « راويتك الذي يحمل جرابك وقد جئت بهِ اليوم »

قالت « هل دخلت على الامير ومعي راوية .. ؟ »

قال « لم يدخل معك ولكنهُ بقي خارجاً ولما مضيت اقتفى اثرك »

قالت « وهل يدلُّ ذلك على انهُ راويتي وكيف يكون راويتي ولا ادعوهُ للجلوس معي في حضرة الامير .. »

قال « اراك تتنصلين من تبعتهِ ونحن لا نبغي بهِ شرّاً »

قالت « لا يهمني مهما بغيت بهِ فقد كنت في هذا المعسكر منذ الامس ولم يكن معي راوية فمن اين اتى هذا الآن ... »

قال « جئت بهِ معك من مكة »

قالت « اظنك تعني الرجل الذي يحمل الجراب فقد التفيت بهِ عند دخولي المعسكر ورأيتهُ يسير بجانبي فلم انتبه لامرهِ .. ولا اعرفهُ .. ومع ذلك فاذا كنتم تسيئون

الظن بمن يبذل نفسهُ في خدمتكم فلا حيلة لنا فيكم .. »

فلما رآها غضبت جعل يخفف عنها ويقول « نحن لم ننسَ الظن بك يا ليلى وانت شاعرة الامير ولك عندهُ المنزلة السامية ولكن هذا الرجل قد خدعنا وهو جاسوس دخل معسكرنا تحت ظلك ونحن نحسبهُ راويتك »

قالت « هل يخاف الامير الجواسيس ومن كان مثل اميرنا بالحزم وشدة البطش لا يخاف الجواسيس . وانا اذا علمت بجاسوس في هذا المعسكر يجدر بي ان اطلع الامير عليهِ لاني ضنينة بهِ .. »

قال « بورك فيك وارجو ان تكوني عيناً على هذا الرجل اذا رأيتهِ ابثينا بمكانهِ فقد بعثنا من يقبض عليهِ فلم يقفوا لهُ على اثر ولعلهُ اذا طلعت الشمس يظهر فاكتمي هذا الآن .. » قال ذلك ونهض فنهضت ليلى وخرجت من عندهِ وهي منشغلة الخاطر على حسن ولكنها سرت لنجاتهِ من قبضتهم على انها لم تعلم اين هو فعادت توًّا الى سمية وقصت عليها ما جرى فاطلعتها سمية على حديث عبد الله فاطمأنت بالها

الفصل التاسع والستون

وسيلة الفرار

اما حسن فقد علمت انهُ اختبأ في خربة بجانب المعسكر وهي تطل على الطريق المؤدي الى مكة فقضى ليلتهُ هناك كأنهُ على جمر الغضا وافكاره تائهة في ما حلَّ بهِ وعظم عليهِ ان يخرج من معسكر الحجاج فرارًا ولكنهُ ادرك انهُ يستحيل عليهِ النجاة بغير هذه الطريقة ولبث ليلهُ لم يغمض لهُ جفن وهو يعمل فكرتهُ في سبيل النجاة سمية من الحجاج فاذا نجا بها فقد غلب الحجاج وجندهُ وخليفتهُ

وكان عبدالله قد وعدهُ ان يعود اليهِ بالحيلة التي دبروها للفرار فقضى ليلهُ في امثال هذه الهواجس وفي الصباح صعد على اكمة اشرف منها على معسكر الحجاج لعلهُ يرى رسولاً او يستبشر بشارة فرأى بينهُ وبين المعسكر ارضًا خالية وتبين المكان جيدًا . وفيما هو يتطلع رأى رجلاً قادمًا على هجين من اطراف المعسكر كأنهُ آت من الصحراء . ولم يمضِ قليل حتى ظهر الرجل بلباس اهل البادية ثم تبين لهُ من ملامحهِ انهُ خادمهُ عبدالله فاستبشر بوصولهِ

فلما وصل ترجل واشار اليهِ ان يتربص في الخربة ولا يظهر نفسهُ على تلك الصورة فقال لهُ حسن « ما وراءك الآن »

قال « ابشرك اولاً ان الحجاج لم يتزوج سمية وان كان قد كتب كتابهُ عليها .. »

قال «وكيف عرفت ذلك ....»

قال «عرفتهُ عن ثقة . اخبرتني بهِ ليلى الاخيلية وهي التي ساعدتنا في تدبير الحيلة المخروج .. » وذكر لهُ امر القسم الذي اقسمهُ الحجاج

فانشرح صدر حسن بهذه البشارة لانهُ يكره ان يمسها احدٌ فقال وما الذي دبرتموه فاني ارائي ذليلاً بخروجي فراراً على هذه الصورة ويخيل لي ان سمية لا ترضى مني هذا الضعف ... »

قال « والحال بالعكس فانها لما علمت بنجاتك سرت سروراً عظيماً لان بقاءك ربما كان سبباً للفتك بك وبها . وما الفائدة من الاصرار على العبث هل كنا نقدر على مقاومة الحجاج وجنده ... ؟ مالنا ولهذا فقد جئت اليك في تدبير تم رأينا عليهِ في هذا الصباح وهو ان اترك هذا الجمل عندك واعود وانت تذهب للركوب في العشاء وتخرج من وراء هذا التل حتى تطل على الطريق التي تراها امامك فتلاقينا هناك انا وسيدتي سمية وكل منا على هجين ومعنا المؤونة اللازمة للسفر في الصحراء اياماً وموتى بعدنا عن مكة كما في مأمن .. »

فسر حسن لهذا التدبير مع علمهِ بمشقة الوصول اليهِ لكنهُ وافقهُ وقال « اني في انتظاركما على ما وصفت ولكن احذر ان يطلع احدٌ على ما دبرتموه فتكون الثانية شراً من الاولى فاني في هذهِ المرة لا افرُّ من احد — فاذا لقيني جند ومعي سمية لا افرُّ ولا ارجع وانما اناضل عنها حتى اموت بين يديها »

قال لا يهمك امر تدبير هذه الحيلة فقد اعددنا كل شيء ولا خوف على سمية لان الحجاج وهو لا يأتي الى خباء اهلهِ مطلقاً في هذه الايام للسبب الذي ذكرتهُ لك »

الفصل السبعون

الوقوع في الفخ

فاطمأن بال حسن وجلس يتناول طعاماً احضرهُ لهُ عبدالله ولم تمضِ ساعة حتى سمع قعقعة اللجم ووقع حوافر الخيل فصعد الى الاكمة فاذا هو ببضعةٍ وعشرين فارساً قد اكتسوا بالادراع لا يظهر من وجوههم غير الحدق يتقدمهم عبدٌ عرفهُ لاول وهلة انهُ قنبر عبد عرفجة . فلما وصلوا الى المكان اشار قنبر بيده لى حسن وقال « هذا هو فامسكوهُ » فأحاطوا بهِ من كل ناحية فلم يرَ حسن بدّاً من التجلد فقال لهم « ما بالكم ؟ ما الذي تطلبونهُ »

فأجابهُ قنبر وهو يضحك ضحك الاستهزاء « ان الامير يدعوك الى وليمة العرس »

فانشاط حسن غضباً من استخفاف ذلك العبد بهِ وقال لهُ « اخساً يا عبد السوء وما انا سائلك ... »

وما اتمّ كلامهُ حتى رأى الفرسان احدقوا بهِ وسيوفهم مسلولة فوضع حسن يدهُ على قبضة سيفهِ وقد ثارت الحمية في رأسهِ وقال لهم « لا يغرنكم عددكم ولا تظنوا اني اهاب سيوفكم وخيولكم ولا تحسبوا انكم تأخذونني بالرهبة او العنف . فان امرًا تدعونني اليهِ بالحسنى ترونني مصغياً اليهِ واما بالعنف فلا تنالون مني شعرة قبل ان يقطر حسامي من دمائكم » قال ذلك وقد اخذ الهياج منهُ مأخذاً عظيماً ولم يعد يبالي بالحياة

فتقدّم اليهِ فارس منهم لا يظهر من وجههِ غير الحدق من خلال اللثام وقد شهر السيف بيده وقال « نراك تظهر من الضعف قوة وما انت الاّ جاسوس نذل .. لا احسبك تحتمل ضربة من هذا السيف »

فلما سمع حسن قولهُ صعد الدم الى رأسهِ وعمي بصرهُ وصمتت اذناه عما يقول الفارس وصاح فيهِ « ويلك اتخوفني بسيفك وما انا خائف من كل هذه السيوف ولا يخاف السيف الاّ من يخاف الموت ولست ذلك الرجل . فاذا اردت النزال فانزل فتضارب راجلين ولا يصلح النزال وانت راكب وانا راجل . واذا خفت انفرادك فانزلوا جميعاً وانا استعين الله عليكم »

فضحك الفارس بصوت عال سمعهُ كلهم ثم قال وهو يحول شكيمة جواده عن حسن « لو ان الامير امرنا بقتلك لأريتك القتل كيف يكون ولكنهُ امرنا ان نقودك اليهِ اسيرًا ... فامشِ .. »

قال « لا اسير ماشيًا وانتم راكبون فاما ان اركب معكم او تمشوا معي »

فلما رأوا هذه الجرأة منهُ هابوهُ وحسبوا لهُ حسابًا وجعلوا يتسارون فيما بينهم عما يفعلونهُ . فأشار بعضهم بقتلهِ فقال آخرون ان الامير لم يأمرهم بذلك فقرَّ رأيهم على مسايرتهِ ريثما يبلغون المعسكر وللحجاج فيهِ رأيهُ . ويندر ان يساق الى الحجاج منهم وينجو من القتل فانهُ كان سفاكًا للدماء حتى احصوا الذين قتلهم في حياتهِ فبلغوا مئة الف وعشرين الفًا ووجدوا في سجونهِ بعد موته ثلاثة وثلاثين الفًا لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب[1] . فرأى الفرسان ان يعاملوا حسنًا بالحسنى ويتركوا امر الايقاع بهِ الى الحجاج فتقدم اليهِ فارس غير الذي كلمهُ اولاً وقال لهُ « لو كنا مأمورين بقتالك لقاتلناك مشاة او فرسان ويحكم الله بيننا وبينك ولكننا انما جئنا لنحملك الى الامير »

قال « قلت لكم اني لا اسير معكم ماشيًا وانتم راكبون » وكان قنبر واقفًا يسمع كلامهُ وهو يستغرب صبرهم على جرأتهِ فلما سمع قولهُ تقدم اليهِ وقال بلهجة العبيد ورطانتهم « امشِ يا هسن امشِ وهل انت اهسن مني ؟ .. فها انا ايضًا ماشٍ .. »

فلما سمع حسن كلامهُ لم يتمالك عن ان جرد سيفهُ وصاح فيهِ « اذا تكلم الناس فاخرس انت يا عبد النحس .. والاَّ فاني مطيرٌ رأسك بحد هذا السيف .. »

فما كان من قنبر الاَّ انهُ ضحك حتى كشر عن اسنانهِ وبانت نواجذهُ ثم قال « اقتلني اقتلني ... وبعد قليل نرى من يقتل منا ... ولكنك لا تلام وانت زعلان على سمية لانها هربت من يديك تعالَ يا مسكين وانظرها بين نساء الامير وهي تدهك عليك ومولاي عرفجة يسلم عليك .... »

فلما سمع حسن ذكر سمية وعرفجة ورأى ذلك العبد يحتقرهُ ويهزأ بهِ هاج غضبهُ واستغرب سكوت سائر الفرسان عن وقاحتهِ ولكنهُ امسك نفسهُ وقال لهُ « لولا خوفي ان يقال اني لطخت حسامي بدم عبد لئيم لأطرت رأسك عن جذعك ولكنني ارجو ان يكون ذلك نصيب مولاك الخائن ... فاخرس ولا تخاطبني والاَّ فلومك على نفسك »

---

(١) العقد الفريد ج ٣

الفصل الحادي والسبعون

على الباغي تدور الدوائر

فلم يزدد قنبر الاَّ وقاحةً واستخفافًا فتقدم نحو حسن ويدهُ على قبضة سيفهِ وقال « أَلمثلي تقول هذا الكلام يا هسن ثم تعرّض بذكر مولاي والله اني ضاربك ضربةً اعلمك بها الادب والهشمة » قال ذلك وهمَّ باستلال السيف فلم يعد يصبر حسن على وقاحتهِ مع سكوت الفرسان فجرَّد هو حسامهُ وتلقاهُ بضربة على عنقهِ فذهب رأسهُ يدرج على تلك الاحجار

فلما رأى الفرسان ذلك صاحوا فيهِ « لقد حلَّ لنا دمك بعد هذه الجرأة . . . . كيف نتجرَّأ على قتل هذا الرجل بين ايدينا »

فلم يبال حسن بما ظهر من غوغائهم واجابهم « اتعدون هذا رجلاً ومن بعدهُ رجلاً لجدير ان ينال مثل ما نالهُ ثم اني رأيتكم سكتم عن وقاحتهِ فلم اتمالك عن قتلهِ وقد قلت لكم اني لا ابالي بالموت فلا تخوفوني بهِ . . . » قال ذلك وقد كاد الشرر يتطاير من عينيهِ وظل واقفًا وسيفهُ يقطر من دم قنبر وقد اشتفى قلبهُ بقتلهِ ويئس من الحياة لانهُ لم يكن يتوقع من هؤلاء الفرسان الاَّ الفتك بهِ فعوَّل في باطن سرهِ على الدفاع الى آخر نسمة من حياتهِ فاذا مات فلا اسف على الحياة في الذل . ولكنهُ مالبث ان رأى الفرسان ينسارون ثم تقدم احدهم وترجل عن فرسهِ وقدمهُ لهُ قائلاً « هذا جوادي فاركبهُ حتى تأتي المعسكر وشأنك والامير . وانا اركب جملك »

فلما سمع صوت الفارس عرف انهُ خادمهُ عبد الله فاستأنس بهِ واطمأن بالهُ وادرك ان ما آنسهُ من حسن معاملتهم لهُ وصبرهم على اقواله انما كان بواسطتهِ فركب الجواد وساروا جميعًا نحو المعسكر

وكان السبب في الاطلاع على مكان حسن ان عرفجة لما خرجت ليلى من عندهِ ولم تطلعهُ على مقرهِ بعث عبدهُ للبحث عنهُ في المعسكر فقضى طول ذلك الليل في البحث وفي الصباح رأى هجانًا قادمًا الى المعسكر من ناحية تلك الخرابة ولم يعرف الهجان ولكنهُ انتبهُ لذلك المخبأ فخرج خلسة فرأى حسنًا وجملهُ وحسن لم ينتبهُ لهُ . فاسرع الى سيدهِ فانبأهُ بما رأى فاوعز عرفجة الى الحجاج انهُ ظفر بالجاسوس وانهُ يحتاج الى كوكبة من الفرسان

ليقبض عليه فأذن له بذلك

وكان عبد الله قد عاد الى موقفه مع الحرس فلما سمع الامر احتال في مرافقة الفرسان لعله يستطيع مساعدة سيده في شيء. ولكنه كان خائفاً عليه في اي حال فبذل جهده حتى ابقى عليه مع ما ارتكبه من قتل قنبر وكان قنبر ذا منزلة رفيعة عند الحجاج مراعاة لمولاه ولانه ينفع في مثل هذه المكايد ولكن الجند لم يكونوا يحبونه لفرط استبداده وقساوته واستبداد العبيد ثقيل على الطباع. فلما قتله حسن فرحوا في باطن سرهم ولو اظهروا الغضب

وبعد ان أرسل عرفجة الفرسان دخل على الحجاج في خيمته وجلسا ينتظران ما يكون وعرفجة يمهد السبل للفتك بحسن فاقنع الحجاج انه جاسوس وانه اذا بقي حياً لا تؤمن غائلته وهون ما يكون قتله وراحة البلاد منه والحجاج لا يحتاج في القتل الى توصية او تحريض لما علمته من رغبته في سفك الدماء.

وآن وقت الغداء ولم يشأ الحجاج الخروج من الفسطاط قبل مجيء الفرسان ليرى ذلك الجاسوس المهول على ما بالغ عرفجة في وصفه. فلما جاء لم يعد يصبر عن الطعام فامر ان يؤتى به الى الفسطاط فجاؤه بالمائدة وكان الحجاج يعدّ من الاكلة المشهورين في الاسلام مثل سليمان بن عبد الملك ومسرة البراش وغيرهما حتى قالوا انه اكل ٨٤ رغيفاً مع كل رغيف سمكة في اكلة واحدة [1] فجاؤه بالطعام ودعا من في مجلسه للاكل معه فاعتذروا ليس عن شبع ولكنهم امتنعوا تهيباً الاّ عرفجة فانه اكل معه ولم يكن يحسن المضغ لفرط قلقه مما دبره لحسن من المكايد. فلما فرغ الحجاج من الطعام رفعوا المائدة وجلسوا والحجاج يمسح لحيته بيده ولا يتكلم. وكان عظيم الهيبة حسن الفراسة فاذا سكت لبث الذين في حضرته سكوتاً كان على رؤوسهم الطير

الفصل الثاني والسبعون

الحاكمة

وفيما هم جلوس على تلك الحال دخل الآذن وهو يقول « عاد الفرسان وعماً قليل يصلون »

(١) المستطرف ج ١

فقال الحجاج « ألم تر الاسير معهم »

قال « لم أر معهم احداً ماشياً »

قال « اخرج وتفرس فيهم لعلك جاءنا على جواد »

فخرج ثم عاد وهو يقول « اظنك جاء راكباً لاني رأيت معهم رجلاً بلباس غريب »

فلم يتمالك عرفجة عن الوقوف بباب الفسطاط واطلّ على القادمين ولما وقع نظره على حسن عرفه وكانت هذه اول مرة التقيا فيها بعد تلك المقابلة في المدينة

اما حسن فلما رأى عرفجة ارتعدت فرائصه من الغيظ وودّ لو ان سيفه أصاب عنقه بدلاً من قنبر فيقطع الحية من رأسها . وتفرس عرفجة في الناس فلم يرَ قنبر فظنه تأخر في الطريق فدخل الفسطاط وجلس بجانب الحجاج ثم دخل الآذن [1] وانبأ الحجاج بوصولهم فقال « ادخلوا الرجل لنراه »

فادخلوه عليه وقد نزع سيفه ووقف حارسان من كل جانب في يد كل منهم حربة وفيهم عبد الله . ولا تسل عن هواجس عبدالله في تلك الساعة لما يعلمه من رغبة الحجاج في سفك الدماء. واما حسن فانه وقف بقدم ثابتة كأنه بين يدي بعض الاصدقاء والتفت الى من حوله في ذلك الفسطاط فرأى في صدره الحجاج وعرفجة والى الجانبين رؤساء الاجناد وكلهم سكوت تهيباً من مجلس الحجاج لانه قلما رؤي ضاحكاً . واذا ضحك فانه يكشر عن اسنانه ولا تبدو في وجهه ملامح الضحك . وقد تسمع قهقهته فاذا نظرت الى وجهه لا تراه ضاحكاً

وكان حسن يسمع بظلم الحجاج وشدة وطأته ورغبته في سفك الدماء. فعوّل على الصبر والثبات حتى الموت . ظل واقفاً برهة ولم يخاطبه احد في شيء والحجاج ينظر اليه ويتفرس فيه ثم قال له « ممن انت ؟ »

قال « ما أنا من ثقيف ولا من امية »

قال « وما تعني بذلك . . . »

قال اعني « اني لست من قبيلة الامير ولا من قبيلة امير المؤمنين ومهما كنت بعد ذلك فأنا غريب وللأمير رأيه فيّ . »

فتصدى عرفجة لخطابه ولم يصبر على الحجاج ريثما يتكلم وقال « ايمثل هذا الجواب

(١) الاغاني ج ١٠

يخاطب الامير ... ؟ انها وقاحة ! .. »

فلم يصبر حسن على سماع ذلك من عرفجة فالتفت اليه وقال « بل الوقاحة ان يتصدى مثلك للجواب عن مولانا الامير ويقطع الكلام عليه .. »

فاراد عرفجة ان يتكلم فرأى الغضب في وجه الحجاج وهو يهمّ بالكلام فسكت فقال الحجاج « لسنا هنا في مقام جدال فاخبرني ما الذي جاء بك الى هذا المعسكر متنكرًا »

فتحير حسن في الجواب وخاف ان يصرح له بحقيقة غرضه فيهيج غيرته عليه ولا سبيل بعد ذلك للنجاة فلبث ساكتًا فاستبطأ الحجاج جوابه فاعاد السؤال . فقال حسن « جئت لامر يهمني ولا يهمّ سواي ولا علاقة له بالحرب ولا بالسلم .. »

قال الحجاج « نرى اجوبتك مبهمة فافصح »

فلبث حسن ساكتًا فاغتنم عرفجة سكوته وخاطب الحجاج قائلاً « ان اجوبته مبهمة لانه يخاف ان يعترف بفعلته وانه جاسوس من عبدالله بن الزبير ضد مولانا الامير . بل هو عدو امير المؤمنين ويتمنى سقوط امره ويسعى في ذلك جهده . واذا رأيته ينكر ذلك فاطلب اليه ان يلعن الكاذبين .. »

فالتفت الحجاج الى حسن كانه يستطلع رايه في ما قاله عرفجة فقال حسن « حاشا لله ان اكون كما يقول »

فقال الحجاج « اذا كان الامر كذلك فالعن الكاذبين على بن ابي طالب وعبدالله بن الزبير والمختار ابن ابي عبيد » (١)

فارتبك حسن في امره لانه لا يعتقد كذب هؤلاء ولا يريد ان يلعنهم وخصوصًا على بن ابي طالب . واذا لم يلعنهم فيتخذ عرفجة ذلك حجة عليه فقال « لا أرى علاقة بين صدق نيتي في خدمة امير المؤمنين عبد الملك وبين لعن هؤلاء .. »

فصاح عرفجة للحال « أرأيت يا مولاي انه خائن غادر يكذب على الامير كذبًا صريحًا .. ؟ اما قلت لك انه جاسوس والجاسوس يستوجب القتل . اقتله يا مولاي وارح نفسك منه .. » قال ذلك واعضاؤه كلها ترتعش ولحيته تنتفض في وجهه مع صغرها وعيناه ترتعشان كانهما قد فتّ فيهما حصرم تدلان دلالة صريحة على خبثه وخيانته

وكان الحجاج مع عتوه وظلمه ذا فراسة ونظر فادرك ان تمنع حسن عن اللعن لا يدلّ على جاسوسيته ولكنه اعاد السؤال عليه وقال « لقد أطلنا بالنا عليك حتى حيرتنا جسارتك .

(١) العقد الفريد ج ٣

سألناك عن نسبك فلم تجبنا وهذا ذنب يكفي وحده لاتهامك . ثم سألناك عن غرضك في طروق هذا المعسكر متنكرًا فاجبت جوابًا مبهماً وكلفناك لعن الكاذبين فابيت فهل نتوقع بعد ذلك صبرنا على بقائك ؟ . . »

الفصل الثالث والسبعون

افتضاح الامر

فلما سمع حسن كلام الحجاج تحقق الخطر المحدق به وخاف ان تنفذ حيلة عرفجة فيه فلبث ساكتًا وهو يفكر في ماذا يفعل فاغتنم عرفجة هذه الفرصة الثانية وخاطبهُ قائلاً « أتجب الامير . . ؟ قل الست جاسوسًا ؟ . . يا خائن جئت لتدبير المكائد على امير المؤمنين ثم تدعي انك من اهل النزاهة وتتظاهر بالصدق . . » ثم التفت الى الحجاج وقال « اني اعجب لصبر مولاي على وقاحة هذا الخائن وكيف لم يأمر بقطع رأسه . . . . »

فلما تحقق حسن بلوغ الامر غايتهُ وخاف ان تنفذ حيلة عرفجة فيه فيأمر الحجاج بقتله ولا يستغرق ذلك الاَّ بضع دقائق عول على الايقاع في عرفجة فالتفت اليه وخاطبهُ بقلب جسور وقال لهُ « اتدعوني خائنًا وما الخائن الا أنت . . . ؟ »

فوثب عرفجة من مجلسه واظهر الغضب وقال « كيف تتجاسر على هذه الوقاحة في حضرة الامير وهو أعلم الناس بصدق طاعتي واخلاصي . . . والله لو أذن لي الامير لقطعت رأسك بيدي . . . لاني اعلم الناس بخيانتك ويعلمها ايضًا غلامي قنبر » ثم صاح « قنبر » فلم يجبهُ احدٌ فكرر النداء فأجابهُ حسن « لن يجيبك قنبر لانهُ نال جزاءهُ . . » فالتفت عرفجة الى الحرس واماراتِ الاستفهام في وجههِ وقبل ان يسألهم اشار احدهم بيده « ان حسنًا قتلهُ » فأجفل عرفجة وحملق عينيه في حسن وصاح فيه « قتلت غلامي وانت واقف لا تخاف قصاص الامير . . » ثم التفت الى الحجاج وقال « اتراهُ لم يستوجب القتل بعد وهو قاتل عمدًا . . ؟ »

فابتدرهُ حسن قائلاً « قتلتهُ لخيانتهِ وسوف يصيبك نصيبهُ بأمر مولانا متى ثبتت خيانتك »

فقال عرفجة « اتتهمني بالخيانة وخيانتك ظاهرة للعيان وقد اضفت اليها جريمة القتل . . . »

فلما رآهما الحجاج يتجادلان ويحاول كل منهما اثبات الحياة في الآخر رأى من الحزم والدهاء ان يصبر على الجدال وان كان ذلك مخالفًا لما نعودهُ جلاسهُ

اما حسن فلما رأى الحجاج مصغيًا التفت الى من حولهُ من الامراء وقال « أشهدكم على ان دم الخائن مهدور اياً كان .. »

فقال عرفجة « ما الخائن الاَّ انت .. »

فعند ذلك تجلد حسن حتى ملك نفسهُ ونظر الى عرفجة وقال لهُ بصوت هادئ « من الخائن منا يا عرفجة ؟ . »

قال « انت »

قال « انا الخائن وانت الامين الصادق في خدمة امير المؤمنين ... »

قال « وهل من شك في ذلك .. »

قال « وما قولك بالكرسي .. ؟ »

فلما سمع عرفجة لفظ الكرسي ارتعدت فرائصهُ وبدت البغتة في عينيهِ ولكنهُ تجاهل ولجأ الى المغالطة وقال وهو يضحك ويظهر الاستخفاف « واي كرسي .. اسمعوا ماذا يقول لا شك انهُ يهذي »

قال « انسيت الكرسي ولهيب ناره لا يزال يلفح وجهك .. اعرفت اي كرسي اعني يا عرفجة .. ؟ »

فتحقق عرفجة اطلاع حسن على حريق الكرسي ولكنهُ استغرب ذلك وانكرهُ وعاد الى المحاولة فقال « ما بالك تهذي يا رجل واي كرسي تعني ... » قال ذلك والحجاج ينظر في عينيهِ وقد تبين لهُ وقوعه في ورطة فظل صامتًا

فقال حسن « الم تفهم اي كرسي ؟ ... كرسي المختار بن ابي عبيد الذي كلفتموني لعنهُ الآن ... »

قال « وما شأنهُ وما علاقة المختار في ما نقول »

قال حسن وقد رفع صوتهُ « الا تعرف علاقتهُ بك .. ؟ اذا كنت لا تعرف تلك العلاقة فاسأل محمد بن الحنفية عنها والرجل قريب من هذا المكان اسألهُ او اسأل من شئت . واذا انكرت استنطقنا رماد الكرسي ... هل يكفي ذلك ؟ .. »

الفصل الرابع والسبعون

التخلص

فلم يرَ عرفجة بعد ذلك التصريح الاّ ان يطعن في اقوال حسن كلها و يبالغ في التجاهل فقال وهو يضحك « اتظن مثل هذه المفتريات تنطلي على مولانا الامير وهل تظنهُ يصغي لكلام مختلق لا معنى لهُ ولا أصل ... ؟ ولكن الامير اطال بالهُ عليك فطمعت لأن الحلم في اللئام رذيلة .. فما كان أجدره ان يخرسك بكلمة يقطع بها رأسك ... »

قال « للامير ان يفعل بي ما يشاء ولكن ذلك لا يبطل كونك خائناً قد ارتكبت في سبيل خيانتك القتل والنفاق ... وقد انكرت الكرسي وامره واهل المدينة يعرفون تكتمك بضعة اعوام ومحافظتك على محنة لا يعرف احد ما فيها . ولم يكن فيها الاّ كرسي المختار الذي زعم انهُ لعلي بن ابي طالب وحارب بني امية من ورائهِ فلما مات حفظت هذا الكرسي لتجعل نفسك خليفتهُ في مناصبة بني امية الحرب لاستخراج الخلافة منهم الى محمد بن الحنفية الذي كان المختار يدعو لهُ ... »

فقطع عرفجة كلامهُ وقال « ان هذا محض افتراء واختلاق .. »

فقال حسن « ان ابن الحنفية شاهد على ذلك ومهما قلنا في استحقاقهِ الخلافة او عدم استحقاقهِ فلا يشك احد بصدقهِ واذا استبعدتم شعب علي ففي المسجد بمكة عبد شهد حريق الكرسي معي وشهد الاهانة التي لحقت بهذا النزيه الصادق لما تقدم الى محمد بن الحنفية ان يؤذن لهُ بالدعوة باسمهِ وخلع طاعة امير المؤمنين عبدالملك بن مروان .. »

ولم يتم حسن كلامهُ حتى ضج القسطاط بالناس وترجح عند الحجاج صدق كلام حسن لانهُ كان مع تقريب عرفجة منهُ لا يجهل خبثهُ ونفاقهُ لان الحجاج كان من ذوي الفراسة الصادقة وانما كان يقربهُ منهُ لانهُ يحتاج الى امثالهِ لبعض الاغراض فلما رأى ترجيح هذه التهمة الفظيعة عليهِ صمم على قتلهِ ولكنهُ اجل ذلك ليرى ما يكون ... »

أما عرفجة فلما غابتهُ الحجة عمد الى المواربة فقال وهو يظهر التعقل والهدوّ « يظهر لي ان مولاي الامير سكت عما سمعهُ من هذا الرجل كأنهُ مال الى تصديقهِ .. »

فقال الحجاج « وهل تحسبهُ اختلق ذلك كلهُ اختلاقاً ؟ »

قال « نعم يامولاي »

قال الحجاج « لا يعقل انهُ يفعل ذلك ويستشهد اناسًا احياء معروفين .. وهب انهُ اختلق ذلك فما الذي يدعوهُ الى هذا الاختلاق .. »

فضحك عرفجة ثم اظهر الاهتمام وقال « يدعوهُ الى ذلك امرٌ افظع من هذه الخيانة لو ذكرتهُ بين يديك لم تصبر عن صلبهِ .. »

فقال « وما ذلك .. قل »

قال « اضنُّ بعرض الامير ان يذكر في مثل هذا المقام فاذا اذن مولاي بخلوة ذكرت لهُ السبب وانا ضامن انهُ يقتنع ويرى براءتي .. »

فاقطب الحجاج حاجبيهِ واشار بيدهِ فخرج كل من في الفسطاط من الامراء والحراس وفي جملتهم حسن وبقي الحجاج وعرفجة فقط فلما خرج حسن رأى في وجوه الامراء استحسانًا لما سمعوهُ منهُ وكلهم ناقمون على عرفجة لنظاظتهِ وسوء سريرتهِ واذا اظهروا لهُ الود في وجههِ فانما يظهرونهُ خوفًا من الحجاج لما يعلمونهُ من قرابتهِ منهُ . وفاتهم ان الحجاج نفسهُ لم يكن يثق بهِ وانهُ كان يداهنهُ لعلهُ ينفعهُ في امر

فلما خلوا اخذ عرفجة يقص عليهِ حديث حسن مع سمية وانهُ (اي عرفجة) نظرًا لما آنسهُ في ابنتهِ من الجمال والتعقل ارادها للحجاج منذ بضعة اعوام وكان يبذل ما في وسعهِ لتهيئتها لخدمتهِ . فجاء هذا الشاب وخدعها بحبهِ وهي فتاة لا تدرك امور الدنيا فانخدعت بظاهرهِ حتى انهُ اراد سرقتها والفرار بها وكادت تفرُّ معهُ لولم يطلع هو على هذه الدسيسة فسعى في قتلهِ بمساعدة طارق بن عمرو عامل المدينة — الى ان قال « وهذا طارق بين يدي مولاي اسألهُ وهو ينبئك بصدق قولي فالظاهر ان الرجل الذي انقذناهُ لقتلهِ لم يظفر بهِ فبقي في قيد الحياة ولما علم بأن سمية زفت الى الامير جاء متنكرًا ليخدعها مرة ثانية ويفرَّ بها فرأيتهُ انا ساعة مجيئهِ مع ليلى بالامس وبعثت من يتعقبهُ فلم يجدوهُ ولكنني علمت انهُ سار الى جهة اخبية النساء وقد شقَّ عليَّ ان اصرّح بذلك لمولاي الامير لئلاَّ اكدرهُ فقلت ان الرجل جاسوس وهو بالحقيقة لا يخلو من الجاسوسية لانهُ هو صاحب الكتاب الذي جاء بهِ ذلك الثقفي وكنت ظننتهُ قتل صاحبهُ فاذا هو قتل رجلاً آخر . وخلاصة الامر ان الرجل علم اننا اطلعنا على امرهِ ففرَّ الى الخرائب المجاورة حتى كشف لنا سرهُ عبدي قنبر (رحمهُ الله) فأرسلنا معهُ الفرسان للقبض عليهِ . ويؤيد صدق قولي انك لما سألتهُ عن غرضهِ من المجيء الى هنا لم يستطع جوابًا .. ؟ »

فرأى الحجاج كلام عرفجة معقولاً ولكنهُ رأى التهمة الموجهة اليهِ معقولة ايضاً فلم يرَ خيرًا من الصبر ليتجلي لهُ الحق ولكنهُ عوّل في باطن سرهِ ان يقتل الاثنين فأمر بسجن حسن ومتى احتاج اليهِ في تحقيق التهمة على عرفجة استحضرهُ . ونظاهر لعرفجة انهُ اقتنع بسوء قصد حسن وطيب خاطرهُ وصرفهُ

الفصل الخامس والسبعون

السم

ذهب حسن الى محبسهِ في خيمة افردوها لهُ في طرف المعسكر وبابها خفيران بالحراب ولما وصل اليها رآهم قد اعدوا لهُ الاغلال فأغلوا رجليهِ وشدوا وثاقهُ فعظم ذلك عليهِ وايقن بقرب الخطر . ولما خلا بنفسهِ جعل يفكر في ما مرّ بهِ وراجع ما دار بينهُ وبين عرفجة من الجدال فرأى انهُ صرح بالتهمة لكنهُ لم يثق ان الحجاج اقتنع بجناية عرفجة وخصوصاً بعد ان علم الحجاج ان حسناً يسابقهُ على سمية فان الغيرة وحدها قد تكفي لتعامي الحجاج عن كل ذنوب عرفجة واضافتها الى ذنوب حسن

قضى حسن في ذلك بقية ذلك اليوم وجاؤهُ بالطعام فلم يتناول منهُ شيئاً وقضى ليلتهُ ساهرًا وخيال سمية امام عينيهِ وذكرها في فيهِ واعمل فكرته في حيلة يحملها بها ويطير من ذلك المعسكر فلم يهتد الى حيلة

وفيما هو متوسد على حصير من سعف النخل وقد اثقلتهُ الاغلال سمع وقع اقدام خفيفة في الخيمة فانتبه فسمع صوتاً يناديهِ « لا تخف يا مولاي اني خادمك عبدالله »

فحاول حسن الجلوس فساعده عبد الله وجلس وهو يقول « ما وراءك »

قال « ما ورائي الاَّ الخير ان شاء الله »

قال « وما الذي جاء بك اليّ »

قال « احتلت على الخفيرين حتى استبدلت احدهما بنفسي لما لي من النفوذ لاني من حرس الحجاج ولبثت خارجاً حتى أتت نوبتي في السهر عليك ونام رفيقي فدخلت لاسألك عما تريد »

قال « لا أُريد شيئًا ... اما الفرار بنفسي فلا ابغيهِ ولو عرض عليَّ ما قبلتهُ واما مع سمية فأُقنع نفسي في قبولهِ — لاني اكره الفرار وآبى ان ارتكبهُ مرة أخرى .. »

فقال عبد الله « ما الحيلة يا مولاي اذا وقع الحرُّ بين يدي الطغام وقد غلبوا عليهِ بعددهم وقوائهم ؟ أيسلم نفسهُ لهم ام يستحل الخروج من بينهم باي وسيلة كانت ؟ »

قال « اتريد ان افر من هذا المعسكر وحدي واترك سمية في بيت الحجاج . هل تراني أهوى البقاء لاجل حياتي وحدي ؟ . »

فابتدره عبدالله وقال « كلاَّ يا مولاي لا اعني ان تخرج وحدك بل اعني البحث عن وسيلة تخرجان بها انت وسمية معًا .. ولا عار في الفرار من بين يدي وحش كاسر لا يعرف الحق ولا يراعي العدل »

فظل حسن ساكتًا وسكوتهُ دليل على القبول . فلما رآهُ عبدالله ساكتًا استأنف الكلام فقال « وسأذهب غدًا الى خباء النساء استطلع طلع الامر وأرى ما يتم الاتفاق عليهِ واعود اليك .. أما الآن فاقلع عما انت فيهِ من القنوط وكل واشرب حتى يأتي الله بالفرج .. » ثم ودعهُ وخرج وقد احس حسن بارتياح واعجب بغيرة عبدالله وصدق مودتهِ ومكث في اليوم التالي ينتظر رجوعهُ بما تمَّ عليهِ رأي سمية

وكانت سمية قد واعدت عبدالله على الخروج معهُ في مساء الامس ثم سمعت القبض على حسن والرجوع بهِ الى المعسكر ثم بلغها انهُ سجن وما لبثت ان رأت الجند قد احدقوا بخبائها ومعهم السلاح فأيقنت ان الحجاج اطلع على سرّ الامر وعلم الغرض من قدوم حسن الى معسكرهِ فتحققت وقوعها في خطر الموت ولم ترَ فرجًا الاَّ بمخاطبة امة الله فاستدعتها اليها وكانت هي التي اخبرتها بسجنهِ وكانت اشد قلقًا منها على حياة مولاها ولكنها اظهرت التجلد وجاءتها وهي تتظاهر بعدم المبالاة فقالت لها سمية « ما رأيك بهذا الجند المحدق بنا كما يحدقون بالقتلة واصحاب الجرائم الكبرى .؟ »

قالت « وما الذي يفعلونهُ .. ؟ »

قالت « تسأليني عما يفعلونهُ ... وقد سجنوني وسجنوهُ ولا شك ان ذلك العاتي قد اطلع على ما بيني و بين حسن فما الذي نرجوهُ منهُ غير الفتك بنا .. »

قالت « لا أظنهُ يفتك بك .. »

فقطعت كلامها « تظنينهُ يستبقيني لمأربهِ الدنيء ... ! وما انا مبقية على نفسي .. اين السم الذي حفظتهِ لي ؟ .. لقد آن وقتهُ .. » وكانت امة الله قد اخذتهُ لتحفظهُ

عندها لحين الحاجة

قالت « لا اظن وقتهُ ازف يا مولاتي وحسن لا يزال في قيد الحياة ومن يدري ما يأتي بهِ الغد »

قالت « أتتوقعين لحسن بقاء وقد وقع في قبضة هذا الظالم وهو مناظرهُ على عروسهِ .. ؟ اعوذ بالله من ظلمهِ ... آه يا ليتني ظللت على يأسي الماضي ولم اعلم ببقاء حسن حياً فقد كنت احسبهُ مات ولا يدٌ لهذا الظالم في قتلهِ . اما الآن فكيف ابغي الحياة في بيت رجل قتل حبيبي ... »

فقطعت امة الله كلامها وقالت « لا تقولي قتلهُ لانهُ لم يقتلهُ وعساهُ ان لا يقتلهُ فان الله قادر على انقاذه .. »

قالت « نعم ان الله قادر على كل شيء واما حسن فانهُ في حكم المقتول الآن » قالت ذلك وخنقتها العبرات فسكتت

فاحتارت أمة الله في ما تعزيها بهِ وهي واثقة من قرب مقتل حسن ولا تلوم سيدتها اذا انفجرت ولم ترض البقاء بعدهُ في بيت قاتلهِ فظلت ساكتة . فاستأنفت سمية الكلام فقالت « أين السم اعطيني اياه ... »

فتغير وجه أمة الله وتناثرت الدموع من عينيها وقالت « دعي السم لم يأت وقتهُ »

قالت « اعطيني اياه واعاهدك اني لا أتناولهُ الا بعد ان أقطع الامل من بقاء حبيبي ومنتهى أملي . حسن ... » وشرقت بدموعها واطلقت لنفسها عنان البكاء فبكت أمة الله معها ثم رأت هنه ان لا تبيح لها الاسترسال في الحزن على هذه الصورة فكظمت ما في نفسها وقالت « أتعديني انك لا تتناولين السم الا بعد وقوع الخطر حقيقة » فعاهدتها على ذلك فخرجت ثم عادت وناولتها ورقة فيها المسحوق السام . فتناولتهُ منها وقبلتهُ وهي تقول « أنت هو منقذي من احزاني واتعابي .. أنت وحدك معيني على قهر هذا العاتي وانت وحدك ستحول بيني وبينهُ »

وكان الحجاج قد أمر باخراج سائر النساء من الخباء الاَّ سمية وخادمتها وامر الحرس أن يحدقوا بهِ وهم في غفلة عن سبب ذلك فكانت سمية تصيخ بسمعها من داخل جدران الخباء لما يتحادث بهِ اولئك . وسمعتهم يتحدثون بما أظهرهُ حسن من الشهامة وعزة النفس وما ظهر في كلام عرفجة من التلاعب والغدر . وكانت سمية اذا سمعت ذلك رقص قلبها فرحاً ولكنها لا تلبث ان تعود الى هواجسها

اما عبدالله فلما جاء للمداولة مع سمية في الفرار رأى الحرس محدقًا بخبائها على هذه الصورة فعاد ولم يرها فأخبر حسنًا بما كان فزاد الامر عرقلة عنده ولم ير خيرًا من الصبر لما يأتي به القضاء وعبد الله يعزيه ويسليه ويتجسس أحوال سمية ويتنسم أخبارها . فيعلم انها باقية في الخباء

الفصل السادس والسبعون

دعوة مستعجلة

قضى حسن أيامًا في ذلك واصبح ذات يوم وقد رأى في منامه بلالاً خادمه وكان قد تركه في مكة وقد قال له « اذا استبطأتني فاطلبني في معسكر الحجاج » فلاح لحسن أن يكون قد جاء المعسكر ولم يعلم بمكانه . فلما دخل عبدالله عليه في الليل ذكر له هذا الامر ووصف له بلالاً وقيافته فقال عبد الله « رأيت في هذا المعسكر عبدًا أظنه هو الذي تعنيه ويظهر انه يفتش عن ضائع ولم ينتبه له أحد لان الحجاج وحاشيته وسائر الامراء يتأهبون للهجوم على ابن الزبير دفعة واحدة ولولا ذلك لكشف عرفجة أمره واتهمه بالجاسوسية .. »

فقال حسن « يهمني ان أرى هذا العبد استقدمه لي على عجل » فخرج عبد الله فرأى بلالاً فاغتنم انشغال الناس بالنأهب وجاء به الى السجن بحجة انه يحمل له طعامًا وادعى انه لا يأمن دخوله عليه وحده فدخل هو معه فقال بلال « اني أبحث عنك منذ بضعة أيام حتى يئست من لقائك وكدت أرجع خائبًا فالحمد لله اني رأيتك ولو في السجن ... »

فقال حسن « وما خبرك »

قال « جئت اليك في فهمة مستعجلة واخشى ان يكون قد فات أوانها »

قال « وما هي »

قال « استدعاني ابن صفوان الى منزل عبدالله بن الزبير في مكة وسألني عنك فأخبرته انك لم تعد بعد . فقال ان أمير المؤمنين (ابن الزبير) يجب أن يراك لامر ذي بال خاطبته أنت بشأنه منذ بضعة وعشرين يومًا ويبث اليك شيئًا لا يقدر ان يعهد به الى سواك . فجئت على عجل وقد قضيت ثلاثة أيام في البحث عنك حتى جاء في عبدالله

كما رأيت ..»

فقال حسن «ابن الزبير يطلب ان يراني في مكة ؟»

قال «نعم يا مولاي وقد ألح علي كثيرًا وقال انهُ يريد ان يسر اليك أمرًا يهمك كما يهمهُ وان الوقت ضيق ..»

فاطرق حسن واعمل فكرهُ فتبين لهُ ان ابن الزبير يريده لكلام يتعلق باخيهِ رملة وخالد بن يزيد وتذكر انهُ انما جاء الحجاز من أجل هذا الامر وقد عهد خالد ذلك اليهِ وانهُ بشأنهِ فرأى من الواجب عليهِ أن يجيب الدعوة حالاً . فالتفت الى عبدالله وقال «عرضت علي منذ أيام الخروج من هذا المعسكر فهل في امكانك اليوم ان تطلقني»

قال «ذلك عليَّ هين في اي وقت شئت واني افديك بروحي»

قال «لاأبغي الفرار وانما ابغي الخروج الليلة لمقابلة ابن الزبير ثم اعود في الصباح الى محبسي»

فأعجب عبدالله بعزة نفسهِ وقال لهُ «افعل ما بدا لك فاني فاعل ماتريد» وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل فقال عبد الله تمهل قليلاً فأعطيك ثوبي فتلبسهُ وتتزيأ بزيي وانا البس ثوبك وامكث في هذا السجن مكانك ريثما تعود . وتخرج انت كأنك من حرس الحجاج واظهر انك ذاهب بهمة الى ابن الزبير فلا يعترضك احدٌ واذا رايت ان تبقى هناك وانا احتال في اللحاق بك فعلت»

فأدرك حسن ما ينوي عبدالله تضحيتهُ في سبيل نجاتهِ فقال لهُ «بورك فيك من صديق صادق ولكنني اخشى ان اصاب بسوء فلا اعود فتقع انت تحت ظائلة العقاب»

قال «اذا اصابك سوء فلا ابغي انا البقاء وفضلاً عن ذلك فان الناس سيصبحون مهاجمين ولا اظنهم ينتبهون لما حل بسجينهم ولا يطالبني احد بك وربما أطلقت نفسي من السجن ولا بأس عليَّ ..»

فقطع حسن كلامهُ وقال «أما الرجوع فلا بد لي منهُ ... لابد لي من الاستهلاك في سبيل سمية ..» قال ذلك وصمت بغتة كأن فكرًا جديدًا طرق ذهنهُ ولبث برهة لايتكلم ثم قال «لابد لي من السعي في الانتقام من أبيها الخائن ...» ثم التفت الى بلال وقال لهُ «أتذكر ما رأيناه خلسة من خيمة صاحبك سعيد في فسطاط محمد بن الحنفية ...»

قال «أظنك تريد حكاية عرفجة والكرسي ...»

قال « اياها أعني . هل تستطيع الحصول على كتاب من خط محمد المذكور الى الحجاج يشهد لهُ فيهِ ان عرفجة جاء ومعهُ الكرسي وعرض نفسهُ ليطلب لهُ البيعة من أهل العراق ليخلعوا بيعة عبد الملك ابن مروان ..؟ »

قال بلال « ذلك عليَّ هين بالنظر لما لي من الدالة على سعيد ولما أعلمهُ من دالة سعيد على محمد .. »

قال « اذهب اذاً الى الشعب توًّا وأتني بذلك الكتاب عاجلاً . سر من أقرب الطرق واجعل رجوعك الى هذا المعسكر لاني ذاهب الى مكة لمقابلة ابن الزبير ثم أعود الى اغلالي وأرى ما يأتي بهِ القدر .. »

فخرج بلال وسار في مهمتهِ . واما عبدالله فانهُ خرج الى المعسكر وقد اشتغل الناس بالاستعداد وزميلهُ واقف بباب الخيمة ويود لو انهُ يلحق بالمحاربين ليصيب بعض الغنيمة فلما رأى عبدالله خارجاً سألهُ اذا كان ينوي البقاء في خنزه او الذهاب للقتال فقال « اذا شئت انت اللحاق بالجند فاذهب وانا ابقى هنا حارساً لهذا السجين » فسر الرجل وتحول ولما غربت الشمس دخل عبدالله على حسن فألبسهُ ثيابهُ وسلمهُ الحربة وصرفهُ وجلس هو مكانهُ . فخرج حسن والنمس طريق مكة لا يلتفت اليهِ أحدٌ لانشغال الجند في التأهب للهجوم على الكعبة فسارع خطوانهُ ليدرك الكعبة باكرًا فينبيء عبدالله بعزم الحجاج لعلهُ يجد سبيلاً للدفاع

الفصل السابع والسبعون

مفاوضة

دخل مكة ولم يعترضهُ احد ولا رأى في اسواقها احداً حتى اشرف على المسجد فوجد الناس قد تزاحموا فيهِ وفي ماجاورهُ من المنازل فعلم انهم يتوقعون شرًّا ولم يفتهم ما نواهُ الحجاج . فسار توًّا الى منزل عبدالله بن الزبير فرأى الناس يتزاحمون عند بابهِ فسأل عن ابن صفوان فقيل لهُ انهُ في خلوة مع أمير المؤمنين فوقف مع الواقفين حتى مضى معظم الليل فشق الناس ودخل يلتمس الحجرة التي فيها عبدالله فلقيهُ الخدم فسألوهُ عن شأنهِ فقال انهُ يريد امير المؤمنين لامر ذي بال فخرج اليهِ ابن صفوان

وحالما عرفهُ رحب بهِ وقرأ حسن الانقباض على وجههِ فقال لهُ « أين امير المؤمنين »

قال « تركتهُ يصلي الفجر »

قال « جئت اليهِ عملاً باشارتهِ »

قال « طلب ان يراك لامر يريد ان يسرَّهُ اليك .. وسوف ادخلك عليهِ .. »

قال ذلك وعاد الى الحجرة ومكث وحسن في انتظار عودتهِ في فناء البيت وهو يتوقع ان يكون غيابهُ طويلاً لعلمهِ بطول صلاة ابن الزبير مذ رآهُ يصلي في المسجد من عهد قريب

وبعد هنيهة عاد ابن صفوان واشار الى حسن فتبعهُ ودخل فرأى عبدالله واقفاً في الغرفة وقد تقلد الحسام ولبس الدرع تحت جبة خز ونحتها سراويل ومنطقة وقد فاحت منهُ رائحة المسك وآنس في وجههِ امتقاعاً لم يتبينهُ لضعف نور المصباح . فأسرع حسن الى تقبيل يدهِ فأمسكهُ عبدالله عن ذلك ورحب بهِ واشار الى ابن صفوان فخرج فاقفل عبدالله الباب ولم يبق في الحجرة غيرهُ وحسن . فاستغرب حسن اهتمامهُ وتكتمهُ ولبث واقفاً ينتظر ما يبدو منهُ وقد تأدب في موقفهِ . فلما اقفل عبدالله الباب تنحى الى وسادة على طنفسة بجانب الحجرة واشار الى حسن فتبعهُ فأجلسهُ الى جانبهِ ووضع عبدالله السيف مستعرضاً على ركبتيهِ واسند ذراعيهِ عليهما فوقهُ وحسن جالس شبه القرفصاء وهو صامت يراعي ما يبدو من حركات جليسهِ . ظل عبد الله برهة مطرقاً وهو يلاعب لحيتهُ بين انامليهِ ولا يتكلم ثم التفت الى حسن وقال لهُ « لا أظنك حصلت على كتاب من خالد »

قال « كلاَّ يا مولاي ان الرسول لم يعد بعد .. »

قال « ولا أظنني أراهُ ولو عاد من الغد ... »

قال وهو لم يدرك قصدهُ « كيف لا وهو طوع امير المؤمنين حالما يجيء .. »

قال « لا بأس اذا لم أرهُ فاني على يقين من رغبة خالد في اختي وقد استخرت الله بشأنهِ فاذا هو خير اولئك الاقوام ..... فأتقدم اليك اذا لقيتهُ ان توصيهُ بأختي خيرًا وتقول لهُ « ان مصاهرتهُ لآل الزبير جاءت متأخرة . ولو عجل بها بضعة اعوام لما استطاع بنو مروان الاستبداد بهذا الامر بما لا ينطبق على كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليهِ وسلم .. » ولما بلغ الى هنا ظهر الهياج في عينيهِ وخشن صوتهُ فأتمَّ كلامهُ قائلاً « كيف يسود العناة الظلمة وكيف يتغلب قوادهم المنافقون الذين يرمون بيت الله بالحجارة ... فيغلبون رجالاً يعبدون الله ويعملون بكتابهِ »

فأدرك حسن من خلال كلامهِ انهُ يئس من الفوز فأراد ان يستطلع عزمهُ في الصبر

او التسليم او الحرب فقال له « لا يخفى على مولاي ان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ولا غرابة في غلب أهل الدنيا على اهل التقى — فقد غلب معاوية على الامام علي صهر الرسول وابن عمه وقد فتك ابن زياد بالحسين وغيره . ذلك لان الدنيا شيء والآخرة شيء آخر وقد انقضى العصر الذي ساد فيه الحق — عصر الخلفاء الراشدين عصر الدين . ذلك هو عصر التقوى واهله من الصحابة يعرفون الحق ويرضخون له . وما الحكم الآن الا حكم دنيا فلا يتولاه غير اهل الدهاء والسياسة و ... » ولما بلغ الى هنا بلع ريقه وبدا في وجهه انه اراد التصريح بشيء ثم توقف خوفاً او حياء . فنظر عبدالله اليه نظرة من يتوقع اتمام الكلام فأتمّ حسن كلامه قائلاً « ولا اخفي على مولاي ان آل مروان وآل ابي سفيان قبلهم لم يخلص لهم الملك دون بني هاشم وغيرهم الا بما توخوه من الدهاء والسياسة وما بذلوه من المال لدعاتهم وانصارهم ... » فلما ذكر المال بدا في وجه عبدالله انقباض وظهر فيه النفور رغماً عنه فسكت حسن . فقال عبدالله « لا تذكرني بالمال وامره فقد كنت شحيحاً به لانه مال بيت الله ولعلي لو بذلته للاحزاب لم يستطع ابن مروان الاستبداد بالامر دوني .. ولكنني لا ألتمس الدنيا بالباطل ولا ابتاع الانصار بالمال ... » فاغتنم حسن الفرصة وذكر له ما ارتكبه من الخطإ حتى خرجت الخلافة من يده فقال « ومع ذلك لو اصغيت للحصين بن نمير يوم وفاة يزيد لما صار الامر الى بني مروان بل كان انتقل من آل ابي سفيان الى آل العوام .. »

فقطع عبدالله كلامه وقال « سمعتك تذكر هذا الامر غير مرة وسمعته من سواك والكل يحسبون ابن الزبير لو اطاع الحصين ورافقه الى دمشق لبايعه بنو امية . وانا احسب ذلك بعيداً ولا آمن ان اسلم نفسي لاناس يشق علينا غليهم في عقر دارنا فكيف في بينهم وبين احزابهم . ومع ذلك فقد قضي الامر ... — بعثت اليك الآن لاوصيك بأختي خيراً فاوصِ بها خالداً عني وقل له يقول لك عبدالله « دع امر الخلافة من ذهنك فانها شاقة على اهل الدين في هذا الزمان واشتغل بما انت مشتغل به من العلم والكيمياء فان النظر فيها لذيذ » ولا اخفي عنك اني عوّلت على الاستسلام الى القضاء . بعد ان نبذني الاهل والاصدقاء خوفاً من الموت ولو طلبت الدنيا لما امتنع عليّ الحصول عليها ولكنني اطلب الآخرة واعتقد اني دعوت الناس الى الحق فلم يصغوا فتركتهم وشأنهم ... وقد أنبأني الجواسيس ان الحجاج وقومه عزموا على مهاجمتنا في الغد فسألقاهم في هذا المسجد فاذا تجاسر وا عليه فبالكعبة والله ينفعل ما يشاء ... » قال ذلك وغصّ بريقه ووقف

وهو يتشاغل باصلاح بند حسامهِ فوقف حسن معهُ فقال عبدالله « تعالَ معي الى امي لاخبرها بما تمَّ عليهِ الامر بشأن رملة »

الفصل الثامن والسبعون

قدوة الامهات

فمشى حسن في أثره وقد لاح الفجر فدخلا حجرة رأى حسن في صدرها امرأة عجوزًا عرف حالاً انها اسماء ذات النطاقين والدة عبدالله وهي بنت ابي بكر الصديق واخت عائشة زوج النبي وقد كفَّ بصرها وبدا الهرم في وجهها فاقبل عبد الله اليها وحياها وهمَّ بيدها فقبلها فقبلتهُ وتنشقت ريحهُ وتهدت ثم قالت « ما وراءك يا بنيَّ ... ؟ اني اشم منك رائحة الحنوط »

قال « اني انحنط كل يوم استعدادًا للموت واما الآن فقد جئتك بحسن وكنت ذكرت لك قدومهُ من عند خالد بن يزيد لطلب اختي رملة فاستقدمتهُ واخبرتهُ بما رضيت بهِ من هذا الامر وانا أعلم ان خالدًا يستحقها فاذا جاءك ولم اكن فهو ينوب عني في ذلك »

فرفعت رأسها وهي تجيل عينيها المظلمتين كأنها تحاول ان تنظر الى ابنها او تبحث عن موقفهِ بين يديها ولكنها لم تكن ترى غير الظلام . ونظر حسن الى وجهها وقد تغطى جانباه بالنقاب فرأى دمعتين تقطرتا من جانبي انفها بغير ان يبدو للبكاء اثر في وجهها . فلم يستغرب صبرها وتجلدها لما سمعهُ من ثبات جأشها وقوة قلبها . ثم سمعها تقول « سأفعل كما تقول » وسكتت وكأن في نفسها شيئًا تكتمهُ ثم قالت « في اي ساعة من الليل نحن »

قال عبد الله « نحن في الصباح » وما أتمَّ كلامهُ حتى سمعوا وقع حجارة المنجنيق على الكعبة اكثر مما يعهدونهُ من قبل . فتحقق حسن قرب هجوم أهل الشام وايقن بوقوع الخطر العظيم ونظر الى عبدالله فاذا هو قد تغيرت سحنتهُ وبان الغنوط في وجههِ وقد التفت الى امهِ وقال « والآن يا اماه ؟ فقد لح اعداؤنا بالمجانيق وقد علمت انهم سيهجمون علينا هجومًا نهائيًا ليس بعدهُ هجوم فاما ان نظفر او يظفروا وقد آليت ان افعل امرًا لا أستشيرك بهِ فبماذا تشيرين .. ؟ »

فنظر حسن الى اسماء وتفرس في وجهها فاذا هي لا تزال تجيل بعينيها وقد اسرعت

حركتها كأنها تتلهف لروية ابنها وليس في عينيها اثر للدمع وقد امسكت النقاب وازاحته عن فمها فبان تجعد شفتيها تجعداً طولياً على موازاة مواقف الاسنان وقالت وشفتاها ترتجفان من الشيخوخة لا من الخوف « انت اعلم بنفسك يا بنيّ — فان كنت تعلم انك على حقّ واليه تدعو فامض له فقد قتل عليه اصحابك ولا تمكن من رقبتك غلمان بني امية . وان كنت انما أردت الدنيا فبئس العبد انت أهلكت نفسك ومن قتل معك . وان قلت — كنت على حق فلما وهن اصحابي ضعفت — فهذا ليس فعل الاحرار ولا أهل الدين . لمَ خلودك في الدنيا . . . ؟ القتل أحسن . . . »

فقال « يا اماه اخاف ان قتلني اهل الشام يمثلوا بي ويصلبوني »

قالت « يا بنيّ ان الشاة لا تتألم بالسلخ فامض على بصيرتك واستعن بالله »

فقبل رأسها وقال « هذا رايي والذي خرجت به دائباً الى يومي هذا . ما ركنت الى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها . وما دعاني الى الخروج الاّ الغضب لله وان تستحل حرماته ولكني أحببت ان أعلم رايك فقد زدتني بصيرة . فانظري يا اماه فاني مقتول في يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلمي الامر الى الله . فان ابنك لم يتعمد ايثار منكر ولا عمل بفاحشة ولم يجر في حكم الله ولم يغدر في امان ولم يتعمد ظلم مسلم او معاهد ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل انكرته ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي . اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسي ولكني أقوله تعزية لامي حتى تسلو عني »

فقالت وقد بان الجدّ في جبينها « أرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً — ان تقدمتني احتسبتك وان ظفرت سررت بظفرك . اخرج حتى انظر الى ما يصير اليه أمرك »

فقال « جزاك الله خيراً فلا تدعي الدعاء لي »

قالت « لا أدعه لك أبداً فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق »

ثم تحوّل عبد الله ليودع اخته رملة في الحجرة الثانية وظلّ حسن واقفاً في انتظار عودته فسمع اسماء تناوه وقد رفعت بصرها نحو السماء وقالت « اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل وذلك النحيب والظماء في هواجر مكة والمدينة وبره بابيه وبي . اللهم قد سلمته لامرك فيه ورضيت بما قضيت فاثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين »

فاستغرب حسن صبرها ومتانة اعتقادها . ثم عاد عبدالله اليها وهمّ بتقبيل يدها وهو بعيد عنها فقالت له « هذا وداع ؟ فلا تبعد » فقال « جئت مودعاً لاني أرى هذا آخر ايامي من الدنيا »

فلما سمع حسن قولهُ اقشعر بدنهُ ونظر الى وجه اسماء فاذا هو لم يتغير . فرأى من ثباتها فوق ما كان يسمعهُ عنها وعكس ما كان يتوقعهُ من والدة في مثل هذه الحال ثم ما لبث ان سمعها تقول لهُ « امض على بصيرتك وادن مني حتى اودعك » فدنا منها وعانقها فعانقتهُ واحاطت يديها بخصرهِ وقبلتهُ فوقعت يدها على الدرع فنفرت وصاحت فيهِ « ما هذا صنيع من يريد ما تريد » فقال عبدالله وقد بدا الخجل في وجههِ « ما لبستهُ الاَّ لاشدَّ بهِ متنك » فقالت « انهُ لا يشد مني ... البس ثيابك مشمرة » فمدَّ يدهُ الى الدرع ومزعها ودرج كمية وشد اسفل قميصهِ وجبتهِ تحت اثناء السراويل وادخل أسفلها تحت المنطقة وخرج [1] فخرج حسن وقد أدرك ان عبد الله انما خرج مستقلاً

الفصل التاسع والسبعون

مقتل ابن الزبير

خرج حسن في اثرهِ وقد ثارت الحمية في راسه وعوَّل على الحرب معهُ فشعر عبد الله بذلك فالتفت اليهِ وقال « استحلفك بالله وبالرسول ان لا تعرض نفسك للقتال من اجلنا اذ ليس لك شيء في هذا الامر »

فشق ذلك الاستحلاف على حسن لانهُ لم يكن يصبر على رؤية القتال ولا يقاتل وهو مع ذلك على يقين من فوز جند بني أمية لكثرتهم واتحادهم . ولكنهُ ظل سائرًا في أثر عبد الله حتى خرج من المنزل فرأى الناس ينتظرونهُ وفيهم بقية أهلهِ وقد تدرعوا وتسلحوا وتهيأوا للقتال وقد تغطت ابدانهم بالدروع فقال لهم « اكشفوا وجوهكم حتى انظر اليكم » فكشفوها فقال « يا آل الزبير لو طبتم بي نفساً عن انفسكم كنا أهل بيت من العرب اصطلحنا في الله . فلا ينزعكم وقع السيوف فان ألم الدواء للجراح أشد من الم وقعها . صونوا سيوفكم كما تصونوا وجوهكم غضوا أبصاركم من البارقة ويشغل كل امرىء قرنهُ ولا نسأ لوا عني فمن كان سائلاً عني فاني في الرعيل الاول — احملوا على بركة الله »

واما حسن فاحتار في أمرهِ بعد ان استحلفهُ عبدالله ان لا يقاتل وخاف من الجهة

(١) ابن الاثير ج ٤

الاخرى ان يراه الحجاج او بعض رجاله يقاتل فيثبت عندهم انه عدوٌ فلا تفلح معهم حيلة بعد ذلك في الحصول على سمية وخصوصاً اذا عادوا بعد تلك المعركة ظافرين . فاختار الدخول الى المسجد والوقوف في بعض الاطراف ريثما تنقضي الواقعة . فصبر حتى مرَّ رجال عبدالله نحو الحجون ثم التفت فرأى اعلام بني أمية قد ملأت مكة وهم كثيرون فاسرع الى المسجد الحرام فلم يستطع الدخول لان الحجاج كان قد وضع أناساً في بابه يمنعون الناس من دخوله فاسرع الى منزل بجوار المسجد ودخله واطلَّ من كوة فيه فرأى ابن الزبير يناضل مناضلة الاسود مرة في هذه الناحية ومرة في تلك كأنه اسد في اجمة وابن صفوان بجانبه يدافع عنه ثم سمع عبدالله يقول « ويله فتحاً لو كان له رجال » فقال له ابن صفوان « اي والله والف » فتحمس حسن حتى كاد يقذف بنفسه الى المعركة . ثم لاحت منه التفاتة فرأى الحجاج ترجل واقبل يسوق الناس لمقاتلة ابن الزبير لانه رآهم لا يقوون على الوقوف بين يديه واسرع بجماعة من رجاله الى حامل علم ابن الزبير وكان واقفاً بباب شيبة من أبواب المسجد . فجاء ابن الزبير لحماية العلَم فانكشف الناس عنه وقد دخلوا المسجد وصار القتال فيه . فمضى ابن الزبير ليصلي بجانب المقام فاغتنم الحجاج ورجاله فرصة صلاته وهاجموا صاحب العلم فقتلوه واخذوا العلم فتفرق الرجال وعاد ابن الزبير للقتال بلا فائدة . وقاتل حتى قتل هو وابن صفوان وغيرهما ثم رأى حسن رجلاً أسرع الى جثة عبدالله وحز رأسه وحمله الى الحجاج فلما رأى الحجاج الرأس سجد واكرم صاحب البشارة . ثم أمر ان يحمل رأسا ابن الزبير وابن صفوان الى المدينة وان تصلب جثة الاول في الحجون فصلبوها أياماً [1]

أما حسن فلما رأى ماحلَّ بقوم ابن الزبير وتحقق انتصار بني امية وسمية عندهم رأى ان يعود الى معسكر الحجاج لعله يغتنم فرصة غياب الجند فينجو بها والا فيعود الى محبسه فاختلس الطرق حتى خرج من مكان لا يراه فيه أحدٌ ولم يلتفت يمنة ولا يسرة . وكان وهو سائر يفكر في ماحل بابن الزبير فقال في نفسه « لقد خلا الجو لعبد الملك بن مروان واصبحت الخلافة له لا ينازعه فيها منازع » وكان حسن كلما دنا من معسكر الحجاج تمثلت له النجاة بسمية هينة فمشى وهو لا يزال بلباس الحرس والحربة بيمينه فلا يشك الذي يراه عن بعد انه من حرس الحجاج . فلما دخل المعسكر لم ير فيه الا نفراً قليلاً من الحامية فالتمس خباء

(١) ابن الاثير وغيره

النساء وقلبهُ يخفق لما ينازعهُ من عوامل الرجاء والخوف والحياء والشوق . فبين هو يرجو السعادة بالفرار بسمية فانهُ يعدُّ الفرار عارًا ولكنهُ هونهُ على نفسهِ بأنهُ لا يرى غير الفرار سبيلاً الى نجاتهِ والا فانهُ يكون سببًا لتعاسة سمية او قتلها . فمشى بين الخيام وكل من يراه يحسبهُ قادمًا بهمة مستعجلة . ثم رأى الافضل ان يذهب الى السجن ليرى ماثمَّ لعبد الله هناك فاذا وجد حل وثاقهُ واستعان بهِ على الفرار . فلما دنا من الخيمة رآها خالية فوقف برهة يفكر في أمره ثم استعجل الى الخباء لئلا تفوت الفرصة وهو بين العجلة والتردد . وفيما هو يمشي سمع صوت الابواق فالتفت فرأى جماعة الفرسان عائدين من مكة فاسرع في مشيتهِ ليبتعد عنهم وهم وراءه والخباء امامهُ . وكانت الشمس قد مالت نحو الغروب فلما أطل على الخباء لم يرحولهُ أحدًا فهرول وهو يخاف ان تحول بغتة سمية دون ما يبغيهِ من سرعة الخروج بها لانها لم تره منذ خروجه من المدينة ولا هو رآها ولكنهُ تجلد ومشى وهو يود ان يعدو عدوًا لولا ما يخاف ان يجر العدو عليهِ من الشبهات

الفصل الثمانون

مقابلة مهولة

ولما وصل الخباء قصَّر خطاه ريثما يتنسم الاخبار ويستطلع الاحوال وهو لا يعرف مدخل الخباء ولا مخرجهُ ولا يدري اذا كان عند سمية أحدٌ من النساء أو الخدم الغرباء . وفيما هو يدور حول الخباء سمع خفق نعال فيهِ فاصاخ بسمعهِ فرأى شبحًا خارجًا فتفرس فيهِ فاذا هو أمة الله ولم يكن يعرفها ولكنهُ كان يعرف انها عندها فاشتبه بها . اما هي فكانت قد رأته في دار عرفجة بالمدينة والنساء المحتجبات بين الرجال ولا يرونهنَّ . فلما رأته والحربة بيمينهِ استعاذت بالله لئلا يكون قادمًا من عند الحجاج ثم مالبثت ان تفرست بهِ حتى عرفتهُ فدنت منهُ وقالت « حسن .. »

قال « نعم حسن . ابن مولاتك ؟ »

قالت « هي في هذا الخباء في حالة يرثى لها .. »

قال « لماذا ؟ .. »

قالت « حزنًا عليك وخوفًا من ذلك الظالم لانهُ فرغ من الحرب وانحلَّ من عهودهِ

ان لا يقرب النساء »

فلما سمع قولها وفهم فحواه اقشعرّ بدنهُ وهمّ بالدخول الى الخباء ولكنهُ خاف ان تضرّ البغتة بسمية فقال « ادخلي وانبئيها بقدومي للفرار معًا فلننشدد ولنخرج في ظلام هذا الليل حالاً ... »

فهرعت امة الله ولم يصبر حسن الاّ قليلاً حتى دخل في اثرها فوجد سمية جالسة وهي تفرك عينيها بانامِلها وتنظر الى امة الله وتقول « أصحيح ما تقولين ... ؟ حسن هنا ؟ ... حسن جاء .. ؟ ام انت تمزحين ام انا في حلم ... »

فلما وقع بصرهُ عليها رآها قد تغيرت من الضعف وقد امتقع لونها . ولما سمعها تسأل امة الله اجابها هو « لا بل انت في يقظة يا حبيبتي انت في يقظة ... انا حسن جئت لانقاذك هلمّ بنا واتركي العواطف وادفعي الخفقان واحفظي لواعج الاشواق حتى نبعد عن هذا المعسكر ... هلمّ بنا حالاً .. ان الوقت قصير والخطر قريب .. »

فوقفت وركبتاها تصطكان وهي لا تزال تحسب نفسها في حلم ولكنها عملت باشارتهِ وتركت كل شيء في الخيمة الاّ عباءة التفت بها ولبست نعالها وقالت وهي لا تدري اتضحك ام تبكي . تفرح ام تحزن « ما أحسن هذا اللقاء ... هلمّ بنا . »

وكانت امة الله تشتغل بحمل بعض الطعام وهي اكثر انتباهًا وصحواً منهما لخلو قلبها مما يتوقد في قلبيهما . فسمعت وقع حوافر الخيل عن بعد فاسرعت اليهما وهي تقول « لقد جاء الفرسان — واظنهم الحرس الذين كانوا حول الخباء بالامس »

فلما سمعت سمية ذلك التفتت الى حسن وقالت وصوتها يرتجف « حسن ... حسن .... لا تخرج فانهم اذا رأوك خارجًا اشتدت شبهتهم فيك ... لا تخرج .. واذا كانوا انما جاؤا لاذيتك فلنمت معًا ونعم الموتة هي ... »

فثارت الحمية في حسن وهان عليهِ لقاء الالوف والاستهلاك في الدفاع عنها فقال لها « لا عاش من يمسك بسوء وانا حيٌّ ارزق .. »

ثم سمعوا وقع الحوافر يتقارب والليل قد سدل نقابهُ وبدأ الظلام يتكاثف وسمية ممسكة بيد حسن ولسان حالها يقول « امّا نعيش معًا او نموت معًا » ولا تسل عن خفقان القلوب لما اصاب الحبيبين من فواعل الغرام على اثر ذلك اللقاء البغتي وما مازج ذلك الانفعال من بواعث الخوف والاضطراب فاختلط خفقان الشوق بخفقان الخوف وخفقان البغتة وقد امتقع لونها وتصبب العرق من وجهيهما وارتعدت فرائصهما

وحسن يشعر مع ذلك الضعف انه اشد بطشاً من الاسد وانه لا يبالي بمن يلقاهم وهو بين يدي سمية ولو كانوا الوفاً . وسمية قد انساها ذلك اللقاء كل خوف على نفسها وانما كان همها ان لا يصاب حسن بسوء فامسكت به وهي لا تدري اتحرضه على الفرار بنفسه ولا صبر لها على فراقه بعد هذا اللقاء ام تفرّ هي معه وفي فرارها خطر عليه ام تستبقيه في الخباء معها وفي بقائه تهمة كبرى . وودّت لو انها تخبئه في قلبها او في عينيها لتحرسه من كيد الكائدين

مرّت هذه الهواجس بهما في لحظة وغلب عليهما التربص ليريا ما يبدو من الفرسان فجلسا وقد اسكتهما الهوى والخوف حتى وصل الفرسان واحدقوا بالخباء ولم يتكلم احد منهم ولا تعرض احدهم بشيء فترجح عند حسن ان قدومهم لا لشبهة او تهمة جديدة وانما عادوا لحفارة الخباء كما كانوا بالامس . فسكن روعه وروع سمية واخذا بالكلام والاستفهام والتشاكي والترجي والتامل . فضيا برهة تزيد قيمتها عندهما على قيمة الحياة كلها فلا غرو اذا نسيا الحجاج وفرسانه وحسبا انهما في مكان غير ذلك المكان أو خيل لهما ان اولئك الفرسان ملائكة من السماء جاؤا لحراستهما

الفصل الحادي والثمانون

رسولٌ في الهواء

ولكنهما ما عتما وهما في ذلك الهدوان سمعا طنين سهم مرسل في الفضاء وكانه أصاب عمود الخباء من الخارج . وكانت امة الله مشغولة ببعض الشؤون في طرف الخباء بالقرب من موقع السهم فلما سمعت وقع السهم خرجت واطلت راسها من الخباء فلم تر غير الفرسان في مواقفهم كالعادة . فمدت يدها الى السهم واستخرجته من العمود ودخلت به الى حسن فتناوله فاذا في محل الريش زقٌّ ملفوف فدنا من المصباح وفتح الرق ونظر فيه فاذا فيه كتابة بخط عبدالله خادمه فقرأها ونصها « اطلع عرفجة على مقركما فوشى بكما وارسل الفرسان للقبض عليكما فتجلدا والله مع الصابرين »

فلما قرأ حسن البطاقة أيقن بوقوع الامر الخطير ولم يرَ بدّاً من تهيئة أسباب الاطمئنان لسمية وكانت هي قد قرأت البطاقة معه فخافت خوفاً شديداً ولبثت تتوقع ما يبدو من حسن . اما هو فابتدرها قائلاً « لا بدّ لي من الذهاب الى الحجاج بنفسي لانني

لا أظنهُ ارسل الناس في اثري الاّ لزعمهِ انني فررت من محبسي بالامس وبالحقيقة اني لم افر ومهما يكن من الامر فلا بد من مواجهة الحجاج والاطلاع على ما يكون ....»

فقطعت كلامهُ قائلة « اتذهب الى الحجاج ولا تدري ما يكون منهُ .. ؟ اعوذ بالله من شر هذا الرجل ... ماذا يكون منهُ غير القتل والعياذ بالله .. ! وخصوصاً انت وقد علم انك عندي ... ويلاه كل ذلك بسببي ... يا ليتني متُّ منذ اعوام ولم اكن سبباً لهذا الاذى ... دعني اذهب عوضاً عنك وليقتلني فاذهب فداءً عنك لاني مقتولة في اي حال ... »

فوضع يدهُ على كتفها وكلاهما ترتجفان وقال « لا أرى الامر يقتضي كل ذلك ولا أنت كنت السبب في قتلي اذا قتلت .... » فقطعت كلامهُ وقالت « لا تقل قتلت »

قال « عسى ان لا اقتل بل ابقى في قيد الحياة — وقد كنت استطيع الفرار بنفسي من بين يدي هؤلاء الفرسان ولكنني لا أبغي الحياة من أجلي واخاف اذا خرجت معي ان تقعي بين يدي احدهم فتهانين والاهانة شر من القتل . اما ذهابي الى الحجاج بنفسي فانهُ احفظ لشرفي وشرفك وما ياتي بهِ الغدر لا مناص منهُ . هذا ابن الزبير كان الى صباح هذا اليوم يسمونهُ أمير المؤمنين فقتلوهُ وصلبوهُ وحملوا راسهُ الى المدينة وقد استقبل الموت باسماً وامهُ تشجعهُ على استقباله فلا توهني عزائمي ولا تخوفيني بملاقاة الحجاج ولو كان شعلة من جهنم ولكنني ابغي منك اذا قدّر لي الموت ان تذكري حسناً وانهُ كان يحبك ويهواك وانهُ ذهب شهيداً في سبيل ذلك الهوى ...» قال ذلك واختنق صوتهُ

فقطعت كلامهُ ودموعها تتساقط على خديها وكانت مطرقة فرفعت عينيها ومدت يدها الى جيبها فاستخرجت لفافة السم وقالت « كن في راحة واعلم اني اعددت ما يلحقني بك اذا لاسمح الله اصبتَ بسوء ... هذا هو السم الشافي من العذاب . وهب انك لم تصب بشيء فان هذا السم قد اعددتهُ للنجاة من هذا الرجل الظالم في اول يوم يريد ان يكون لي زوجاً حقيقياً .... »

فاعجب حسن بشدة تعلقها بهِ وقال « بالحقيقة ان مثل هذه الشهامة لا تكافأ باقل من الروح . ولكن عسى ان ينقلب الامر ويصفو لنا الزمان .. »

ثم رفع يدهُ عن كتفها وقال « استودعك الله يا سمية وموعدنا الغد ان شاء الله .. » قال ذلك وخرج ولم ينتظر جوابها لئلاّ تحاول ان تثنيهُ عن عزمهِ بدموعها . فلما صار خارج الخباء صاح باعلى صوتهِ « ابن هو عريف هذه الكوكبة ؟ »

فتقدم اليهِ فارس منهم وقال « وماذا تريد منهُ »

قال « اريد ان يهديني الى فسطاط الامير لاني ذاهب اليهِ »

فقال « لم ياذننا الامير بالرجوع اليهِ وانما أمرنا ان نخفر هذا الخباء بمن فيهِ حتى ياتي هو ولعلهُ آت الساعة .. »

فادرك حسن ان ذلك تدبير عرفجة لانهُ يريد ان يري الحجاج حسناً وسمية معاً ليثير غيرتهُ ويسرع في قتلهِ فعول حسن ان يضيع تلك العزيمة فقال « ولكنني في حاجة كبرى الى رؤية الامير الساعة .. »

قال الفارس « لا يمكنك الخروج من هذا المكان ... »

قال « لابد من خروجي .. » قال ذلك وقد عوّل على العدو فاذا تخلص من بين الخيل يخفيهِ الظلام فيذهب توًّا الى خيمة الحجاج ويحاول الطعن في أعمال عرفجة .

فاجابهُ الفارس « الافضل لك ان تمكث هنا .. »

قال « واذا لم امكث ... ؟ »

قال « لا أقول لك اننا نقتلك لاننا مامورون باستبقائك حياً ريثما يجيء ... »

فظن حسن ان الحجاج يريد استبقاءه ليبحث عن صحة التهمة التي وجهها الى عرفجة من قبل الكرسي فتشدد وقال « أقول لكم لا بد من ذهابي الساعة الى الامير والا خذوني الى السجن امكث فيهِ الى الصباح .. » قال ذلك ومشى فتجمهر وا حولهُ ليمنعوهُ واذا بفارس مقبل من بعيد ووراءهُ بضعة فرسان فلما رآهم حراس الخباء تهامسوا فيما بينهم وترجلوا ففهم حسن من تهامسهم ان القادمين الحجاج وحاشيتهُ فظل واقفاً ينظر ما يكون ولكنهُ لم يتمالك من التأثر عند رؤية ذلك الرجل العاتي

وكان الحجاج لا يزال بلباسهِ الذي حارب بهِ ابن الزبير وقد كستهُ الادراع هو وجوادهُ وعليها بقع الدماء . فلما اقبل قال للفرسان « ماذا تفعلون هنا »

فتقدم عريفهم وقال « نخفر هذا الخباء لنمنع من فيهِ من الخروج .. »

قال « ومن امركم بذلك ؟ .. »

قال « امرنا بهِ عرفجة عن أمر مولانا الامير »

فأطرق الحجاج وقد ادرك ان عرفجة لا يهتم الاَّ بحسن لما بينهما من المنافسة وكلٌّ يريد الايقاع بالآخر ولم يكن الحجاج يعلم بمجيء حسن الى خباء سمية ولا بما امر بهِ عرفجة وانما جاء الى خباء نسائهِ تلك الليلة لانهُ حلَّ من يمينهِ بمقتل ابن الزبير في ذلك

النهار فرأى الفرسان هناك كما تقدم . فلما علم بما فعلهُ عرفجة سأل العريف عما وجدهُ هناك فقال وهو يشير الى حسن « وجدنا هذا الرجل خارجاً من الخباء يريد الذهاب الى مولانا »

فنظر الحجاج الى حسن فعرفهُ فخفق عندهُ تهمة عرفجة لهُ بمجيئهِ الى سمية وعظم عليهِ ان يراهُ خارجاً من خباء نسائهِ وهمَّ ان يأمر بقتلهِ حالاً لكنهُ تذكر التهمة التي وجهها الى عرفجة فرأى ان يصبر عليهِ الى الغد و بعد ان يثبت التهمة على عرفجة يقتلهما جميعاً شر قتلة

وكان عرفجة قد امر الجند بحراسة الخباء واستبقاء حسن فيهِ لعلمهِ ان الحجاج يأتي الاخبية تلك الليلة فيرى حسناً عند سمية فيتحقق قول عرفجة ويأمر بقتلهِ حالاً لشدة الغضب والغيرة فلا يبقى سبيل لاثبات التهمة عليهِ . ولكن الحجاج كان مع عنفهِ وظلمهِ ذا دهاء وحكمة فكظم غيظهُ ريثما يتحقق الامر فقال « خذوهُ الى السجن وموعدنا الغد . . »

فسرَّ حسن لذلك التأجيل ولكنهُ مشى مع الخفر وهو يتلفَّت الى الوراء ليتحقق ابتعاد الحجاج عن خيمة سمية فلما توارت الخيمة عن بصرهِ تلفت قلبهُ الى من فيها

الفصل الثاني والثمانون

المحاكمة

قضى حسن بقية تلك الليلة مخمورًا وفي الصباح ساقوهُ الى فسطاط الامير باكرًا وقد امر الحجاج ان لا يحضر ذلك المجلس احدٌ غير عرفجة وحسن . فدخل حسن ووقف في وسط الفسطاط وظل عرفجة جالساً بجانب الحجاج كأنهُ من خاصتهِ وحسن المجرم وكان الحجاج اذا نظر الى حسن كاد يتميز غيظاً ولكنهُ صبر نفسهُ حتى يثبت التهمة على عرفجة فقال لهُ « عهدناك في الامس مسجوناً فما الذي اخرجك من السجن »

قال حسن « خرجت منهُ لامر ضروري ثم عدت ولو كان قصدي الفرار ما رجعت »

فقطع عرفجة كلامهُ وهو يضحك « ذهبتَ لامر ضروري . . ؟ اما ذهبت الى عدوّنا وكنت في منزلهِ طول ليل امس وتقول انك رجعت ولكن الى اين ؟ أإلى الحبس أم الى خباء . . . . »

فالتفت الحجاج الى عرفجة لفتة ظهر الغضب فيها وادرك عرفجة منها تغير الحجاج عليهِ فأراد تخفيف غضبهِ فقال « لا اجهل انى تعديت الحد بتكلمي في حضرة الامير

ولكنني لم استطع الصبر على نفاق هذا الغلام وخداعه فهو يوهمنا انهُ ليس من الاعداء ولا من الجواسيس ثم يفرُّ من السجن ليلاً ويحمل اخبارنا الى عدوّنا ثم يقول انهُ رجع والامير ادرى بمكان رجوعه ... »

ففهم الحجاج ان عرفجة يعرض بذلك المكان ليثير غضبهُ ولا يصبر على التحقيق فصبر نفسهُ والتفت الى حسن وقال « لا يهمنا السبب الذي خرجتَ من اجلهِ الى ابن الزبير فانك منهم عندنا في اي حال . واما سبب دخولك خباء نسائنا فسنبحث عنهُ ولكنك اتهمت صديقنا عرفجة بالامس فهل تستطيع اثبات تلك التهمة ... ؟ »

فلما سمع عرفجة عود الحجاج الى تهمته خفق قلبهُ وخاف عاقبة تمليق الحجاج لهُ بذكر الصداقة ولكنهُ تظاهر بالاستخفاف وجلس كمن يصغي لما سيختلقهُ الخصم . اما حسن فقال « اما كونهُ خائنًا لدولة بني امية فأمرٌ لا شك فيهِ وقد رأيتهُ بأُم عيني واقفًا بين يدي محمد بن الحنفية في الشعب ومعهُ الكرسي الذي كان المختار بن ابي عبيد يسميهِ كرسي علي ويدعو الناس الى بيعة ابن الحنفية بهِ . وسمعتهُ يحرّض محمدًا المذكور على امداده بالمال للخروج على بني امية في العراق ويدعو الناس الى بيعتهِ لانهُ في زعمهِ اولى من بني امية بهذا الامر ... ذلك كلهُ رأيتهُ بعيني وسمعتهُ باذني ... »

وكان الحجاج مصغيًا لما يسمعهُ وعيناهُ شاخصتان في حسن يتفرَّس في حركاتهِ وسكناتهِ ليستطلع مقدار ما في كلامهِ من الاخلاص فرأى الاخلاص ظاهرًا في كل كلمة . فقال لهُ « ثم ماذا »

قال « اما ابن الحنفية فانهُ استخفَّ بطلبهِ وردعهُ عن القيام بهذا الامر لان وقتهُ فات وتاكيدًا لذلك امر بالكرسي فأُحرق بين يديهِ واخرج هذا الرجل من عندهِ مهانًا »

فلما رأى عرفجة صراحة كلام حسن حتى كاد الحجاج يصدقهُ لم يرَ سبيلاً الى دفع تلك التهمة الاَّ بالخداع والمغالطة فوقف ووجه خطابهُ الى الحجاج وقال « اذا كان لكلام هذا الغلام اقل تاثير في اذن مولاي فليامر بقتلي حالاً لان ظل هذه الشبهة يستوجب القتل فكيف بما يقولهُ هذا المنافق ... ؟ انهُ امر مستحيل .. ولكنهُ كبر التهمة ليخفف بها ذنبهُ الذي لم يرتكبهُ احدٌ قبلهُ ... »

فقال حسن « اما ذنبي فلا أُنكرهُ وسابسطهُ لمولاي ولهُ بعد ذلك ما يشاء واما انت »

فأراد عرفجة ان يشغل الحجاج بذنب حسن عن ذنبهِ فقال « ان ذنبك لا يحتمل الانكار لانهُ ظاهر للعيان . واما اتهامك اياي بالمروق من دعوة بني مروان فاختلاق

غريب لم نسمع بمثلهِ . واغرب ما فيهِ انك لم تستطع اقامة اقل دليل عليهِ ويستحيل ذلك عليك لان دعواك محض اختلاق . » قال ذلك وجلس جلوس رجل فاز على خصمهِ بالحجة والبرهان . .

فلم يعبأ الحجاج بتلك الشقشقة فالتفت الى حسن وقال « لا تصح دعوى بلا بينة فما هي بينتك على ما تقول »

قال « واي بينة ترجو ان تقوم على ذلك وقد كانت المخابرة بينهُ وبين ابن الحنفية سرًّا . . ولم يكن معهما ثالث »

فصاح عرفجة « اسمع يامولاي تقلّب هذا المنافق وتناقض اقوالهِ . . فاذا كان ذلك الامر حصل سرًّا في خيمة مقفلة فما الذي اطلعهُ على ذلك السر . . . ؟ أرأيت مقدار تنطعهِ وجهلهِ كيف انهُ لم يحسن سبك الاكذوبة . . ؟ »

فداخل الحجاج شك في قول حسن فقال « لقد صدق عرفجة . . زعمت انك عرفت مادار بينهما وسردتهُ كأنك سمعتهُ من شفاههما وقلت انك رأيت وسمعت فكيف ذلك . . ؟ فاذا كنت انما تقول جزافًا فاقصر ولا تطل اجلك ساعة اخرى »

فلما رأى حسن انخداع الحجاج لكلام عرفجة تجلد واظهر التعقل وقال « نعم كان الكلام في فسطاط مقفل . . ولكنني سمعت ورأيت خلسة . . . »

فقال عرفجة « انت تقول انك سمعت ورأيت وقد بدا من تلون اقوالك ونفاقك انك لم تسمع ولم ترَ ولعلنا اذا الححنا بطلب الشهود منك اتيتنا بخادمك واقمتهُ شاهدًا وانا لا اقبل غير شهادة محمد بن الحنفية نفسهِ لانك انت تقول انهُ لم يكن معنا ثالث . . . »

فقال الحجاج « انهُ طلب عادل لا مندوحة لك عنهُ . . . »

ثم تذكر حسن انهُ ارسل بلالاً في تلك المهمة ولا يدري اذا كان يتأتى لهُ النجاح فيها فقال « ان الامير ادرى مني بما يحول دون الوصول الى مثل هذه الشهادة . فاما ان نستقدم ابن الحنفية الى هنا او نذهب اليهِ او نستكتبهُ وكلٌّ من هذه شاقٌّ . . . »

فقطع عرفجة كلامهُ وقال « لا اقبل الاَّ شهادة ابن الحنفية نفسه . . . . »

فقال الحجاج « ذلك عليَّ هين فاننا نسأل ابن الحنفية ونعمل بشهادتهِ وهو مصدق عندنا ولو لم يكن على دعوتنا . . . »

قال ذلك وتحرك عن وسادتهِ كأنهُ يريد استئناف الهمة في البحث والتفت الى حسن وقال « بقي علينا النظر في تهمتك ولكنها ليست تهمةً نطلب اثباتها وانما نحن نسألك عما دعاك الى هذه الوقاحة . . . »

الفصل الثالث والثمانون

وقوع ونجاة

وكان حسن قد همّ باخبار الحجاج انهُ ارسل من يأتي بشهادة ابن الحنفية فلما سمع مباغتهُ بهذه العبارة وجه قواه الى البحث في الموضوع واراد ان يجيب فاعترضهُ عرفجة قائلا « انا اقص عليك الخبر من اولهِ الى آخره لانهُ يخجل ان يقصهُ هو ... »

فلم يعد حسن يصبر على نفاق عرفجة فقال ورفع صوتهُ « بماذا اخجل من قصتي . ؟ أأخجل لاني انقذتك من الموت انت واهل بيتك ام اخجل لانك خدعتني بوعودك ثم نكثت غير مرة .. ؟ اني لم اعمل عملاً اخجل من ذكره » ثم وجه كلامهُ الى الحجاج وقص عليهِ اصل الحكاية باختصار منذ انقذه في العراق ووعده بابنتهِ ثم لما جاء الى المدينة فوعده ثانية ثم اخلف وبعث من يقتلهُ . فلما وصل الى هنا كان الحجاج مصغياً الى الحديث بفارغ الصبر فقطع عرفجة كلام حسن قائلاً « قال اني سعيت في قتلهِ ولم يقل لماذا — سعيت في قتلهِ لاني رأيت معهُ كتباً الى عبد الله بن الزبير الذي فرّ اليهِ بالامس كما رأيت فخابرت طارق بن عمرو عامل المدينة بشأنهِ فاعتده جاسوساً فبعث من يقتلهُ ... وهب اني كنت وعدتهُ بابنتي ثم خطبها مولانا الامير فكيف استطيع غير الطاعة . هل يتوقع ان ارفض طلب المولى واصغي الى قولهِ . والعجب كل العجب انهُ بعد ما علم انها زفت الى الامير لا يزال يرجو الحصول عليها . واغرب من ذلك انهُ طرق هذا المعسكر متنكرًا وهمّ باغرائها للذهاب معهُ . فأوقعهُ الله بين ايدينا وسجناهُ ففرّ الى عدوّنا ثم اغتنم اشتغال الامير وجنده في الحرب وعاد الى اغراء تلك الفتاة وقد شاهد الامير بنفسهِ خارجاً من خباء سمية . فاذا كان الامير يرى الصبر عليهِ حلمًا فاني لا أصبر على هذه الخيانة . خيانة العرض — وما جزاء من أراد باهلك سوءًا .. »

فوقع كلام عرفجة على قلب الحجاج وقوع النار على يابس العشب وقد كان الى تلك الساعة يصبر نفسهُ ويتجلد فهبت فيهِ الغيرة اي هبوب على انهُ التفت الى حسن وقال « هل تنكر انك تحبُّ سمية »

قال « كلاَّ »

قال « ونقول ذلك بين يديَّ أيضًا وانت تعلم انها من نسائي .. ؟ »

فظل حسن ساكتاً فقال له الحجاج « وهل هي تحبك .. »

فأدرك حسن انه اذا صرح بحبها له جر عليها الموت كما جره على نفسه فاراد الرفق بها فقال « لا أدري .. »

فصاح عرفجة « انها لا تحبه ولكنها بسيطة القلب فربما استطاع ان يخدعها بكلام الجهال . كيف لا وهي تفاخر كل نساء المدينة بما نالته من الحظوة لدى أمير جند عبد الملك وفاتح الحجاز وحامي ذمار بني امية .. »

فاستاء حسن من ذلك التدليس القبيح ولم يسعه الا توبيخ عرفجة فقال له بصوت ملؤه الرزانة والتعقل « لا انكر ان سمية نالت أحسن نصيب تترجاه نساء المسلمين اليوم بعد امير المؤمنين ولكنك يا عرفجة لم تزف ابنتك الى الامير الا رغبة في المال ولو مهرك هذا المال زنجيٌّ لزففتها اليه »

فصاح عرفجة « يا للوقاحة انقول ذلك في حضرة الامير وتذكر عروسه بين يديه على هذه الصورة ..... ؟ » ثم التفت الى الحجاج وقال « لقد كفاك يا مولاي صبراً وحلماً على رجل لم يحترم عرضاً ولا نسباً »

فالتفت حسن اليه وقال « ايجوز لمثلك ان يحرض الامير على القتل وانت أشد تعرضاً للقصاص مني ... انك ملاق حتفك عاجلاً جزاء خيانتك للدولة التي تدعي انك تدافع عنها . واما أنا فاذا قتلت فاني اذهب شهيد الامانة والحب الصحيح .. »

فالتفت عرفجة الى الحجاج وقال « اسمع يا مولاي انه لا يزال يذكر الحب ! .. »

فقال حسن « وهل الحب عارٌ .. ؟ نعم اني احب سمية حباً شديداً واكره أباها كرهاً شديداً ولا ابالي ان اصرح بذلك وقد ابيح دمي فاقتلوني .... ولكن اعلم يا عرفجة انك مقتول عما قليل لان شهادة ابن الحنفية آتية على الطريق ان لم تكن قد وصلت الآن » قال ذلك وتحوّل نحو باب الفسطاط ونظر من شق فيه لعله يرى بلالاً في جملة الواقفين فرآه لا يزال قادماً وقد علاه الغبار ... فخفق قلبه وعاد الى الحجاج وقال « اذا اذن مولاي لرسولي ان يدخل ويسلم اليه ما جاء به من ابن الحنفية تبين له الصدق »

فقال « واي رسول .. »

قال « رسول كنت انفذته قبل الامس الى الشعب ليسعى في هذه الشهادة لانه كان معي يوم حريق الكرسي وأراه الآن عائداً فأمر بادخاله لنرى ما الذي جاء به .. »

فنادى الحجاج « يا غلام » فدخل احد غلمانه من الحرس فقال له « ترى رجلاً

فادماً برسالة ادخلهُ علينا ... »

فعاد الغلام وادخل بلالاً . فأقبل بلال وبيده عقدة من القصب الغليظ سلمها الى الحجاج مختومة فقرأ الختم من الخارج فاذا هو ختم ابن الحنفية ففضهُ واستخرج من العقدة لفافة من الرق ففتحها وقرأها وعرفجة جالس وقد بانت البغتة على سحنتهِ ورقصت لحيتهُ في صدره . ولكنهُ عمد الى الاستخفاف والمغالطة فصار ينظر الى الحجاج ويبتسم كأنهُ واثق ان الكتاب انما يتضمن براءتهُ . أما الحجاج فلما فرغ من قراءة الكتاب التفت الى عرفجة وقال لهُ « لقد صح الصحيح ولم يبق مجال للمكر والخديعة ... صدق هذا الشاب بما قالهُ عنك وهذا خط محمد بن الحنفية وختمهُ يثبتان ذلك حرفياً ... »[1]

فهمَّ عرفجة ان يتكلم فانتهرهُ الحجاج ونظر اليهِ نظرة الحنق والغضب وقال لهُ « لا تتكلم ولا تدافع فقد كفانا ما سمعناهُ من خلطك ... » ثم صفق فجاءهُ الغلام فقال « اليَّ بالجلاَّد » فخرج وعاد برجل عليهِ قميص من جلد وعلى رأسهِ عمامة مستطيلة وبيده سيف حادٌّ اعدَّهُ لقطع الرقاب — وكم قطع بهِ رقابًا . فاشار الحجاج بسبابتهِ الى عرفجة وحسن وقال « اثنني برأسيهما » فأراد عرفجة ان يدافع عن نفسهِ فلم يسمع لهُ فصاح « كيف تامر بقتلي ولم تتحقق تهمتي ... ؟ ان هذه الرسالة مزوَّرة » واخذ في الصياح حتى سمع صوتهُ كل من في المعسكر فغضب الحجاج وصاح في الجلاد « هات رأس هذا اولاً » واشار الى عرفجهِ

فجذبهُ الجلاد من طوقهِ بعنفٍ كانهُ كان ناقماً عليهِ . وبالحقيقة ان المعسكر برمتهِ كان يشكو من تصرفهِ وسوء نيتهِ . ولم تكن قرابتهُ من الامير لتكسبهُ قلبًا من قلوبهم — وربما اكتسب الملك رؤوس رجالهِ بالارهاب او الاطماع واما قلوبهم فلا يكسبها الاَّ بصدق انعطافهِ نحوهم واخلاصهِ لهم — لأن القلب لا يجذبهُ الاَّ القلب

فجرَّهُ الجلاَّد حتى اركعهُ في ذلك الفناء ونزع عمامتهُ عن راسهِ . فركع عرفجة وهو يلتفت الى الحجاج والحجاج معرض عنهُ ولم يكن الاَّ كلمح البصر حتى طار راسهُ من بين كتفيهِ والناس ينظرون وفي جملتهم حسن . وكان ذلك المنظر اشد تاثيرًا فيهِ من الجميع لشعورهِ بقرب اجلهِ

(١) كان ابن الحنفية على الحياد في اثناء الحرب بين الحجاج وابن الزبير لانهُ يود هلاكهما جميعاً وكان كل منهما قد دعاه الى المبايعة فابى وقد اضمر ان يبايع الغالب فلما ظفر الحجاج بايع لعبد الملك

الفصل الرابع والثمانون

البريد

فلما قتل عرفجة دخل الجلاد على الحجاج والسيف يقطر دماً ووقف ينتظر امره فلم يتكلف الحجاج الاَّ اشارة ان «خذهُ»

فامسك الجلاد في طوق حسن واراد جرَّهُ الى الخارج . فقال حسن للحجاج «اتقتلني بعد ان رأيت صدقي واخلاصي ؟ ..»

فصاح فيهِ الحجاج صيحة الغضب وقد احمرَّت عيناهُ وتجلى الغدر فيهما وقال لهُ «أتسالني عن قتلك وانت مستحق الصلب منذ ايام . ؟ ولكنني صبرت حتى تحققت خيانة ذلك الغادر على يدك . اما انت فذنبك لا يجوز النظر فيهِ وهذا يكفي .. » قال ذلك وحوَّل وجههُ

فقال حسن « فاذا لم يكن بدٌّ من قتلي فاقتلوني داخل هذه الخيمة واوس على مشهد من الناس .... »

فقال « أتشترط علينا في كيفية اخراج هذه الروح النجسة ..؟ اقتلهُ ياجلاد والاَّ قتلتك »

فعاد الجلاد الى طوق حسن فامسكهُ فيهِ وشدَّهُ فقال حسن « لاتجذبني فان الموت اهون ما اتلقاه وأنا واثق ببراءتي ... » قال ذلك ومشى نحو الباب

وفيما هما يهتمان بالخروج سمعا قعقعة وصوتاً يقول « البريد البريد من أمير المؤمنين » فعلم الناس ان البريد قادم من عبد الملك بن مروان وكان من عاداتهم اذا جاء البريد لا يمنعونهُ ولا يؤخرون حاملهُ لحظة سواء كان قادماً من الخليفة الى الامراء او بالعكس . فلما سمع الحجاج صوت البريد قال « ادخلوهُ »

ولم يتم كلامهُ حتى دخل رجل كهل قد أنهكهُ التعب وتعفرت ثيابهُ وترامى عند قدمي الحجاج وسلم اليهِ كتاباً مختوماً ولم يعد يستطيع الوقوف لكثرة التعب . وكان حسن منشغلاً بنفسهِ عن كل تلك المشاهد ولكنهُ استغرب وقوع الرجل فنظر اليهِ وتفرس فيهِ فاذا هو صديقهُ أبو سليمان فتذكر انهُ كان قد أرسلهُ الى خالد بن يزيد في

الشام بشان رملة ولا بد ان يكون قد عاد بجواب خالد الى ابن الزبير فعوّل على الاستئذان من الحجاج بكلمة يقولها لذلك الرجل قبل قتله ليكلفه بلاغ خالد رضاء ابن الزبير وان رملة في انتظاره لتزف اليه فيكون قد اتم مهمته قبل موته

اما الحجاج فتناول الكتاب ونظر الى الختم على ظاهره فاذا هو ختم الخليفة عبد الملك فقبله ووقف تعظيماً للخلافة ثم نظر الى الرجل الذي حمله فاذا هو ليس صاحب البريد فقال له « من ابن لك هذا الكتاب هل انت من عمال البريد ؟ »

قال « لست منهم ولكنهم حملوني على دواب البريد للاسراع في ابلاغ هذه الرسالة الى مولاي ... » قال ذلك وهو يلهث وصوته يتقطع ويتلجلج من التعب والخوف

فنضّ الحجاج ختم الكتاب وفتحه وجعل يتلوه ويعيد قراءته ويتثاءب ويحكّ شفته باصبعه ويلعب بشعر لحيته وقد ظهر التأثر في عينيه . ثم جعل ينظر الى حسن ويتفرس فيه ثم يعود الى قراءة الكتاب ويتأمل في خطه ويقلبه بين يديه وابو سليمان لا يزال مستلقياً يلهث من التعب وينظر الى وجه حسن كأنه لم يعرفه وحسن ينظر في وجهه وكلهم سكوت ينتظرون ما يبدو من الحجاج بعد تلاوة ذلك الكتاب

اما الحجاج فبعد ان أعاد قراءة الكتاب مراراً أشار الى الجلاد فانصرف ولم يبق في الخيمة الاّ هو وحسن وابو سليمان فالتفت الى حسن وقال « هذا كتاب أمير المؤمنين جاءني بما كنت تبغيه انت ... ووالله لولا حرمة الخليفة لم يكن في الارض من ينجيك من القتل »

فلما سمع حسن ذلك أبرقت أسرته ولكنه لم يطمئن تماماً لانه لم يفهم صريحاً فحوى ذلك الكتاب فاطرق وظل ساكتاً

فنادى الحجاج « يا غلام » فدخل غلامه فقال له « ادع الكاتب » فخرج ثم عاد بالكاتب فدفع اليه الكتاب وقال « اتلُ هذا علينا » فتلاه وهذا نصه :

« من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الى الحجاج بن يوسف أمير جنده في الحجاز . أما بعد فقد بلغني انك خطبت ابنة عرفجة المنافق وهي مخطوبة لحسن .... فأخذتها وحرمته منها والرجل ممن ينتمون الينا وتهمنا رعايته فاذا أتاك كتابي احمل الفتاة الى خطيبها وامهرهُ بما يقوم بالنفقة . ووالله لرجوعك عن الحجاز ولم تفعله لأهون عليّ من ارتكابك هذا الامر مع رجل من صنائعنا وخاصتنا [illegible] فاعلمْ

فما فرغ الكاتب من تلاوة الكتاب حتى رقص قلب حسن طرباً وقد حسب نفسهُ في حلم . وربما خيل لهُ انهُ قتل وان هذه الخيالات ما يمر في ذهن المقتول بعد موتهِ فجعل يحقق وجدانهُ و ينظر الى ما حولهُ . وفيما هو في تلك الاحلام سمع الحجاج يقول « لم نتلُ عليك الكتاب الاَّ لنعلم اننا انما نجاوزنا عنك عملاً بامر أمير المؤمنين . . . » والتفت الى غلامهِ وقال « اعطه الف دينار . . . وسمية طالقٌ منذ الآن . . وامض بهِ الى خباء النساء وانبيء اهلهُ اننا طلقنا سمية وازوجنا حسناً بها فلتذهب معهُ آمنة . وليخرجوا من هذا المعسكر قبل غروب هذا اليوم » قال ذلك ووقف فخرج حسن والغلام وكان أبو سليمان قد استراح ووقف مع الواقفين فلما خرجوا خرج معهم وهو يهم ان يخاطب حسناً وحسن يهمُّ ان يخاطبهُ

الفصل الخامس والثمانون

مصيبة اخرى

وقبل أن يتكامل خروجهم رأوا فارساً يسوق جواده نحو فسطاط الحجاج والبغتة ظاهرة على وجهه حتى اذا وصل الفسطاط ترجل ودخل بدون ان يستأذن وهو يقول « ان مصيبة حلت في خباء النساء »

فلما سمع حسن الصوت علم انهُ صوت عريف الحرس وخاف أن يكون نجم نحسهِ لا يزال سائداً فتكون المصيبة حلت في سمية . فاصغى فسمع الرجل يقول « ان مولاتنا سمية سقطت لاحراك بها كأنها تجرعت سماً او أصابها الموت بغتة »

فلما سمع حسن ذلك صعد الدم الى وجههِ واحسَّ كأن صخراً سقط على ام رأسهِ فكاد يفقد رشده وشغل عن مخاطبة ابي سليمان في كيفية الحصول على ذلك الكتاب . ولم يتمالك عن العدو نحو خباء سمية ولم يكن ابو سليمان اقلَّ بغتة منهُ لانهُ بعد ان بذل وسعهُ في خدمة حسن ووسط خالداً لدى عبد الملك حتى استكتبهُ ذلك الكتاب الى الحجاج ثم اجهد نفسهُ في سرعة السفر حتى تجاوز خطوات البريد وجاء بالكتاب في آخر لحظة وسر نجاحه بانقاذ حسن ونجاة سمية لهُ — بعد ان توفق في كل ذلك جاء ذلك الخبر [illegible] نحو الخباء وسار في اثرها بلال وغلام الحجاج

اما سمية فكانت قد سمعت ما دار بين الحجاج وفرسانه تلك الليلة وما أمرهم به من حبس حسن الى الصباح وقد ايقنت ان الحجاج لا يبقي عليه. ولكنها تعللت بالممكن البعيد وصبرت نفسها الى ما يكون في الغد فقضت تلك الليلة وهي تفكر في مصير حسن واصبحت وقد اعدت السم لحين الحاجة وجلست وراء جدار الخباء تسمع ما يتبلغة الخفر من حديث ذلك اليوم

وكان الخفر شديدي الرغبة في الاستطلاع — شأن الناس في مثل هذه الحال فكانوا يرسلون النفر بعد النفر لينقل اليهم اخبار تلك المحاكمة حتى جاء احدهم بمنديل عرفجة فدق قلبها أسفاً على والدها وخوفاً على حبيبها . وكانت امة الله قد يئست من تخفيف المصيبة عنها ولم تعد تستطيع مخاطبتها فتركتها وشأنها

وبعد قليل جاءهم مخبر آخر ان الحجاج قتل حسناً داخل خيمته . فهمت سمية الى السم والتقمته حالاً فرأتها امة الله وهي تفعل ذلك فاسرعت لمنعها فلم تدركها الاَّ وقد ابتلعته فصاحت وولولت فجاء عريف الخفر ليسأل عما جرى فاعلمته ان مولاتها تجرعت السم فنظر اليها فاذا هي قد امتقع لونها والقت رأسها على جدار الخباء ثم توسدت ولم تبد حراكاً فاسرع على جواده الى الحجاج كما تقدم وهو لم يصدق انها تجرعت السم

اما حسن فقد كان يعدو نحو الخباء وهو لا يرى طريقة ولا يبالي بمن يراه من الناس ولا بما في سبيله من الاحجار او الحبال او الاوتاد . وربما عثر بها فنهض وعاد الى العدو لا يلتفت يمنة ولا يسرة — حتى اشرف على الخباء فصاح وهو لا يعي ما يقول « سمية سمية . . انا حيٌّ . . . سمية . . . يا حبيبتي . . »

ولما وصل الى الخباء أراد الفرسان اعتراضه فاخبرهم الغلام بأمر الحجاج فتركوه فاطل من الباب فرأى فيه نسوة حول سمية وهي مستلقية كانها جثة بلا روح وقد أطبقت عيناها وامتقع لونها وانحل شعرها وابيضت شفتاها فلم يتمالك حسن لما رآها في تلك الحال ان صاح وهجم نحوها وفي يده خنجر . فتفرقت النساء عنها فقال وهو يجس يدها « حبيبتي . . . روحي . . . منيتي . . . ماذا أصابك . . ؟ تجرعت السم ياساً من حياتي . . ؟ اني حيٌّ يا سمية . . . سمية . . . اما ان تحيي مثلي او أموت مثلك . . . »

وفيما هو يفعل ذلك ويهمُّ ان يطعن نفسه بالخنجر احسَّ بيد امسكته وسمع صوتاً يناديه « تمهل يا حسن ان سمية حية لا بأس عليها » فالتفت فرأى ليلى الاخيلية وبيدها كوبة ماء جاءت بها لترش سمية . فقال حسن « ماذا تقولين كيف تحيا وقد تجرعت

السم وهو كاف لقتل أشد الرجال

قالت « ان الذي تجرعته ليس سماً لا تخف ... »

قال « لاتعلليني بالاوهام انها ميتة وقد ماتت لاجلي أفلا أموت لاجلها ؟ .. » قال ذلك ورفع يده والخنجر فيها . فصاحت فيه ليلى « تمهل يا جاهل ان سمية حية ولم تتجرع السم ولكنها في غيبوبة »

قالت ذلك وتناولت بعض الماء بيدها ورشتها به من بعيد فحركت سمية راسها ثم حركت شفتيها وقالت « حسن ... حسن ... قتلوك قتلهم الله ها اني ذاهبة اليك »

فلما سمع حسن صوتها جثا عند رأسها وقال لها « سمية ... سمية ... انا حسن .. أنا حيٌّ يا حبيبتي وقد أنقذني الله . سمية افتحي عينيك وانظريني ... »

فتنحت سمية عينيها وتلفتت وهي تقول « ما هذه الاحلام ... ! ابن حسن ؟ »

ولما وقع بصرها على حسن شخصت فيه لحظة ثم قالت « حسن .. حسن .. ؟ »

فاجابها « نعم ... نعم ... انا حسن »

فجلست للحال والفت نفسها عليه واخذت في البكاء وهو يقول لها « لا تبكي يا سمية انني في خير »

فقالت له ليلى « دعها تبكي فتتنفس كربتها وتصحو من سكرتها ... »

فسكت واما سمية فكانت تبكي وتشهق ثم ترفع راسها وتنظر الى وجه حسن وتصيح « حسن حبيبي ... هل انا في يقظة ام في منام .. ؟ »

فاجلسها الى جانبه وهو يقول لها « انظري اليّ ها اني حي وهذه صديقتنا ليلى ... واطمئنك ان اسباب تعاستنا قد زالت ... »

فقطعت كلامه قائلة « والحجاج ... الحجاج ... كيف تزول اسباب التعاسة وهو باقٍ .. » وبكت

قال لها « قد جاءه امر الخليفة بذلك فطلقك وانعم علينا بالمال على ان نخرج اليوم من هذا المعسكر » فحدقت بنظرها فيه كأنها تحقق ما يقول . فاذا هو يقول الجد واقسم لها بحياتها انه يقول الجد

الفصل السادس والثمانون

حسن الختام

فسكن روعها والتفتت الى من حولها فرأت ليلى وهند وامة الله فلم تصدق انها شفيت فقالت « يظهر ان السم تأخر فعلهُ »

فقالت ليلى « انك لم تجرعي الاَّ دقيق الذرة . واما السم الذي ظننت انك تجرعتهِ فهو معي » قالت ذلك واستخرجت من جيبها ورقة فتحتها وفيها السم وقالت « الا تذكرين الليلة التي بتُّ فيها عندك وانت تتوعدين نفسك بالسم .. ؟ فقد استغفلتك وابدلت السم بدقيق الذرة الناشفة لاني خفت من مثل هذه العجلة فالحمد لله على نجاتك »

فهمت سمية بليلى وقبلتها وقالت « جزاك الله خيرًا » فقال حسن « بل هي مفضلة عليَّ .. » ثم قص عليهم ما دار بينهُ وبين الحجاج بالاختصار حتى أتى على ذكر ابي سليمان وكيف جاءهم في ابان الضيق وانهُ كان السبب في نجاتهِ من الموت كما كانت ليلى سببًا في نجاة سمية منهُ . وكان ابو سليمان لا يزال خارجًا فناداه حسن فدخل وهو يقول « هل يدخل عبد الله »

قال حسن « اي عبد الله ؟ »

قال « خادمك »

قال « فليدخل . اني أعد صديقي »

ثم دخل عبدالله وهو يقول « لا تظنني تخلفت عن خدمة مولاي ولكنني اصبحت بعد اخراجك من السجن تحت غضب غرفجة فلم أعد استطيع الظهور ولكنني كنت متخفيًا اتنسم الاخبار . فلما تحققت نجاتك على هذه الصورة جئت لاكون في خدمتك .. »

وكانت سمية قد صحت وتحققت انها فازت بحبيبها وانها نجت من والدها فثبتت بصرها في حسن وبصره فيها ولم كنفيا بتفاهم اللواحظ ثم قال حسن « والى أين تودين الذهاب واين نقيم ؟ »

فاجابهُ ابو سليمان على الفور « تقيمان عندنا في المدينة .. »

فقال حسن « لقد اذكرتني امر رملة هل أتيت بالكتاب من خالد الى ابن الزبير في طلب رملة .. وكيف حصلت على هذا الامر من عبد الملك .. ؟ »

فقصّ عليهِ خبر سعيهِ في ذلك الامر على يد خالد ثم قال « واما ابن الزبير فقد جئتهُ بالكتاب ولكنهُ وأسفاه عليهِ قتل ولا ندري ما تمّ باهلهِ »

فقال « اهلهُ لا يزالون في ما من بمكة وقد صرح لي بقبولهِ بالزواج » وقص عليهِ مختصر الامر ثم قال « وبعد عودتنا الى المدينة سابعث عبدالله الى خالد بالخبر ليبعث احداً يحمل رملة اليهِ ... »

ثم التفت الى ليلى وقال لها « ولا أنسى تعبك ابنها الصديقة في سبيل هذا الامر ويكفي انك كنت سبباً لبقاء سمية كما كان العم أبو سليمان سبباً لبقائي »

فقالت ليلى « لا فضل لي في ذلك وقد فعلتهُ وانا مدفوعة بدافع قهري لاني جربت هذا العناء وعرفت شقاء المحبين وجهادهم ولا أظن أحداً من هؤلاء ادرك من حالكما ما ادركتهُ انا لاني وقعت في نحو هذا البلاء. ولكني لم افز كما فزتما » قالت ذلك وشرقت بريقها فادرك حسن انها تشير الى حالتها مع توبة فشكر الله وسكت عن جوابها لئلا يثير عواطفها

ثم وقف ابو سليمان وقال « كل ذلك بتدبير العزيز الحكيم وكل شيء يجري بقضاء من الله سبحانهُ وتعالى .. هلمّ بنا الآن نستعد للرحيل وها ان عبدالله وبلالاً يعدان الاحمال ونحن نستعد معهما للرحيل »

فلما تحققت سمية قرب سفرها التفتت الى هند بنت النعمان زوج الحجاج وقالت « أرجو ان يوفقك الله الى سبيل تنجين بهِ كما نجوت انا .. »

فتلألأت الدموع في عيني هند ولم تجب

وفي اصيل ذلك اليوم شدوا الاحمال وساروا جميعاً نحو المدينة الاّ ليلى فانها التمست وجهة اخرى . ولما وصلوا المدينة ساروا توًّا الى بيت عرفجة وقد اصبح بما فيهِ ارثاً شرعياً لسمية . وكذلك كل ما كان يملكه عرفجة من العقار صار اليها . وفي يوم وصولهم جاء سليمان لاستقبالهم وقد سرّ بنجاح مهمتهم . واحتفلوا بزفاف سمية الى حسن احتفالاً حضرتهُ سكينة بنت الحسين وغيرها من سكان المدينة واكثرهم كانوا يكرهون عرفجة . وغنيّ فيهِ طويس وعزة الميلاء واجاد أشعب الطماع في المجون حتى كادت تتمزق خواصر الناس من الضحك وبعد الفراغ من العرس سار عبد الله الى خالد في دمشق ومعهُ كتاب حسن بتفصيل ما وقع لهُ من جهة رملة وبلغهُ جواب ابن الزبير . فجاء خالد وتزوج رملة بنت الزبير كما هو مدون في التاريخ

(تمت الرواية)

DATE DUE

JAFET LIB.
31 AUG 2002
Circulation Dept.3

JAFET LIB.
23 JAN 2002
Circulation Dept.3

زيدان ،جرجي
الحجاج بن يوسف
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01044356